

روايات (الهلال)

الغاب الأبيض

جاءك لندت



عالم الأجهزة الكهربائية تحت اسم واحد... أولمبيك الإلكترونيك



OLYMPIC



تصنيع : شركة القاهرة للصناعات الخفيفة - القاهرة - طناشيت : ٢٤١٤٨٢/٧٦ - الوكيل الوحيد : شركة المتطلبات الهندسية والشركات

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والاfrیقی والبلکستان سبعة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا أو بحواله بريديه غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

اسعار البيع للمعدد فئة ٢٠٠ قرش : -

لبنان ٧٠٠ ليرة - الأردن ٦٠٠ فلس - الكويت ٥٠٠ فلس - العراق ٢ دينار - السعودية ٧ ريالات - البحرين ١٢٠٠ فلس - الدوحة ٨ ريالات - دبي ٨ دراهم - ابو ظبى ٨ دراهم - مسقط ٨٠٠ بييسه - المغرب ٢٠ درهم - غزة والضفة ١,٢٥ دولار - لندن ١,٥ جك - عدن ٢ دولار ..

الكويت: السيد عبد العال بسيونى
زغلول الصفاة - ص . ب رقم
13079٢١٨٣٣ - تليفون -
٤٧٤١١٦٤

اشترك
في
روايات
الهلال

للحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٢٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمى

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٤٩٦ إبريل ١٩٩٠
رمضان ١٤١٠ هـ

No . 496 AP 1990

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود فتاسم

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحة حسنين

الكتاب الأبيض

شاهي
7

تأليف

چالك لندن

ترجمة

عبدلنعم صادق



دار الهلال

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

WHITE FANG

تأليف : JACK LONDON

الجزء الأول

الفصل الأول طريق اللحم

بدأت أشجار التنوب الفضى على جانبي القنساء المتجمدة عابسة بعد أن جردتها الريح التي هبت أخيراً من غطائها الثلجي الأبيض ، وأخذ بعضها يميل نحو البعض الآخر فبدأت في الضوء الباهت سوداء مندرة بالشر . وخيم على المنطقة كلها صمت مترامي الاطراف . أما الارض نفسها فكانت موحشة خالية من أية حياة أو حركة وسادتها روح العزلة واشتدت برودتها ولم تكن توحى حتى بالحزن بل كانت فيها لمحة من الضحك ولكنه ضحك أشد من الحزن . ضحك خال من السرور شأنه في ذلك شأن ابتسامة أبى الهول ، ضحك بارد كالجليد يسهم بنصيبه في عبوسية الحكيم المنزه عن الخطأ . انها حكمة الازل البارة التي لا تبين عن نفسها وهي تضحك من عبث الحياة ومن جهودها . كل ذلك في برارى أرض الشمال البرية المتوحشة ذات القلب المتجمد .

ولكن كانت في تلك المنطقة حياة . وهي حياة تتصف بالتحدى . فعلى الطريق المائي المتجمد كانت جماعة من الكلاب الذئبية تكدح في جر زحافة وقد غطي الجليد فراءها الخشن ، وكانت أنفاسها حالما تخرج من أفواهها تتجمد في الهواء وتصبح زبدا من البخار يستقر على شعرها في شكل بلورات من الجليد . وكانت عدتها التي تقيدها بالزحافة من الجلد . ولم يكن على الزحافة سائق يسوق تلك الكلاب . والزحافة مصنوعة من خشب النامول الصلب وقد استقر قاعها كله على سطح الجليد أما مقدمتها فقد ثنيت الى فوق حتى لا تحدث في الجليد أو تثيره فيهب أمامها كاللوج . وعلى الزحافة صندوق ضيق طويل ثبت بالزحافة وبجواره أشياء أخرى منها الاغطية وبلطة وأبريق قهوة ومقلاة وكان الصندوق أبرز هذه الاشياء اذ شغل معظم الفراغ على الزحافة .

وكان رجل يمشى أمام الكلاب قدماء في حذاء خاص بالمشى على

الجليد • وكان رجل آخر يمشى وراء الزحافة • وفي داخل الصندوق الذى على الزحافة الرجل الثالث الذى انتهت رسالته فى الحياة بعد أن هزمت البرارى وقهرته وافقدته القدرة على الحركة أو الكفاح لان البرارى لا تحب الحركة وترى فى الحياة اساءة لها لان الحياة حركة وهدف البرارى دائما هو القضاء على الحركة • أنها تجمد الماء لتمنع من الجريان الى البحر وتمتص من الاشجار عصيرها حتى تتجمد ويصيب التجمد لها • وأشد ما تكون البرارى وحشية وفظاعة مع الانسان فهي تزعيجه وتلجئه الى الخضوع لها لان الانسان أشد أنواع الحياة حيوية وهو المتمرد دائما على الرأى القائل بأنه لا بد لكل حركة من التوقف فى النهاية •

وظل الرجلان اللذان لم يموتا بعد ولم يسر اليهما خوف ولم يقهرا بعد ساترين ، ان أحدهما أمام الزحافة والاخر ورائها وقد غطيا جسديهما بالفراء والجلد المدبوغ الناعم اما أهداب أعينهما وشفاهما فهي مغطاة بالبلورات التى كونتها أنفاسهما بعد خروجها من فميهما بحيث لم يعد ممكنا تمييز وجهيهما اللذين اكتسبيا بقناعين مخيفين وكأنهما من ناقل الموتى فى عالم الاشباح يمشيان فى جنازة شبح آخر أما هما تحت القناعين فرجلان يخترقان أرض الوحشة والسخرية والصمت ومغامران ضيئان ماضيان فى مفامرة هائلة يجندان نفسيهما ضد قوة عالم ناء غريب جامد بلا نبض وكأنه هوة فضاء •

ومضيا فى طريقهما دون كلام يوفران بالصمت أنفاسهما لما يتطلبه جسدهما من جهد • وأحاط الصمت بهما من كل جانب يفرض عليهما وجوده بصورة واضحة مما أثر فى عقليهما تأثير الاجواء العديدة التى تفتاب الماء العميق الغور فى جسد الغطاس وضغطهما بشقل الاتساع الذى لا آخر له والقانون الذى لا معقب لحكمه • ضغطهما داخل عمق تجاويف عقليهما ثم اعتصر العقلين وجردهما من أى حماس أو تجميد زائف وتقييم ذاتى للنفس البشرية بلا مبرر كما يعتصر الخمار العنب حتى أدركا انهما محدودان وصغيران بل بقعتان وذرتان تتحركان بالحيلة الضعيفة والحكمة الضئيلة وسط مظاهر حركة العناصر والقوى العمياء الجبارة •

ومرت ساعة وأخرى • وأخذ الضوء الشاحب - الذى كان سائدا فى يوم قصير لم تظهر له شمس - فى الذبول عندما شقت حجاب الصمت والهواء الساكن صيحة واهنة آتية من بعيد • وارتفعت علوا

في دفعة سريعة حتى بلغت ذروتها ، وهنا استمرت مختلجة متوترة ثم انتهت في بلاء . ربما كانت عويل نفس ضائعة لولا ما تضمنته من وحشية حزينة ولهفة جوع . وأدار الرجل الامامى رأسه حتى التفتت عيناه بعيني الرجل الذى يمشى وراء الزحافة . وتبادلا الائمة بالراس فوق الصندوق الضيق المستطيل .

وارتفعت صيحة ثانية وشقت حجاب الصمت فى حدة سنن الابرة وعرف كلا الرجلين مكان الصوت . جاء الصوت من ورائهما من مكان ما فى البيداء الجليدية التى قطعها منذ قليل . ثم ارتفعت صيحة تالفة ترد على الصيحتين السابقتين وكانت هى الاخرى آتية من ورائهما ولكن من مكان يقع الى يسار مكان الصيحة الثانية .

وقال الرجل الامامى :

« انها تطاردنا يا بيل . »

وبدا صوته أجش وغير حقيقى ودالا على أنه تكلف جهدا واضحا فى الكلام .

ورد رفيقه قائلا :

« اللحم نادر فلم أر أرنب منذ أيام . »

ولم يتكلما بعد ذلك وبقيت أذانهما مرهفة تترقب صسسيحات

المطاردة التى استمرت وراءهما .

وعندما خيم الظلام ادخلا الكلاب وسط مجموعة من اشجار التنوب الفضى على حافة الممر المائى حيث أقاما لهما مخيما . واتخذوا من صندوق الرجل الميت مقعدا ومنضدة بجوار النار التى أوقدها . وتجمعت الكلاب الذئبية عند الطرف البعيد من النار واخفت تزمجر ويشاغب بعضها البعض الاخر ولكن لم يبد على أى واحد منها أى ميل للابتعاد فى جوف الظلام .

وقال بيل :

« يبدو لى يا هنرى أنها باقية على كعب من مخيمنا . »

وأوما هنرى برأسه علامة الايجاب وهو جالس القرفصاء بجوار النار يسند ابريق القهوة بقطعة من الجليد ولم يتكلم حتى عاد الى جلسته فوق الصندوق وأخذ يأكل .

وعندئذ قال :

« ان هذه الكلاب تعرف أين سلامتها فاذا اطمانت أسرع بالاكل

قبل أن تؤكل هى . . انها غاية فى الحكمة . »

وهز بيل راسه وقال :
« لا أعرف . »
ونظر رفيقه اليه في فضول وقال :
« هذه هي أول مرة أسمعك فيها تقول شيئا يدل على أنك ترى فيها انها غير حكيمة . »
وقال الآخر وهو يعضخ الطعام في تمهل :
« هل لاحظت كيف كانت هذه الكلاب تركل بأقدامها وأنا أطعمها ؟ »
واعترف هنرى بأنه لاحظ ذلك وقال :
« نعم كانت أكثر نورة منها عادة . »
وقال بيل :
« كم لدينا من الكلاب يا هنرى ؟ »
« ستة . »
« حسن يا هنرى . »
وتوقف بيل لحظة حتى تكتسب كلماته أهمية أكبر . ثم استطرد يقول :
« لدينا يا هنرى ستة كلاب وأخرجت من الكيس ست سمكات وأعطيته كل كلب سمكة ومع ذلك بقي كلب لم يأخذ نصيبه . »
« لابد أنك أخطأت العد . »
وردد الآخر عبارته بهدوء :
« لدينا ستة كلاب وأخرجت من الكيس ست سمكات . وبقي واحد من هذه الكلاب دون أن يأخذ نصيبه . فعدت الى الكيس وجئت بسمكة لهذا الكلب . »
وقال هنرى :
« لدينا ستة كلاب فحسب . »
واستطرد بيل في حديثه يقول :
« لا أقول يا هنرى انها كانت كلها كلابا بل أقول ان التى اكلت السمك سبعة . »
وكف هنرى عن الاكل ونظر عبر النار وعد الكلاب . وقال :
« انها الآن ستة فحسب . »
وقال بيل فى هدوء تام :

« رأيت الآخر يجرى عبر الجليد . وانا واثق من انى رأيت
سبعة . »

ونظر هنرى اليه فى اشفاق وقال :

« عندما تنتهى هذه الرحلة فلن تكون ليهجتى حدود . »

وسأله بيل قائلا :

« ماذا تقصد بهذا القول ؟ »

وأجاب هنرى :

« أقصد ان الشحنة التى نحملها ترهق أعصابك وانك بدأت

تنوهم اشياء لا وجود لها . »

ورد بيل فى أسى قائلا :

« لقد فكرت فى هذا . ولذلك عندما رأيته يجرى فوق الجليد

نظرت الى آثار أقدامه فى الجليد . ثم عدت الكلاب فوجدتها ستة .

ولا تزال الآثار على الجليد حتى الآن . هل تريد أن تلقى نظرة

عليها ؟ سأريك إياها . »

ولم يرد هنرى بل استمر يضغط طعامه فى صمت الى أن انتهى من

تناوله ثم شرب فنجان القهوة الاخير . ومسح فمه بظاقر يده وقال :

« اذن فأنت ترى انه كان . . »

وقطعت عليه حديثه صيحة معولة طويلة شديدة الحزن آتية من

مكان ما فى الظلام . وتوقف لينصت ثم اتم عبارته وهو يلوح بيده

ناحية مصدر الصيحة قائلا :

« انه واحد منها . »

وأما بيل برأسه وقال :

« كنت أفضل أن أكذب ناظرى على ان يكون لمثل هذا الشئ وجود

ولقد لاحظت بنفسك الضجة التى أثارتها الكلاب . »

وتعافيت الصيحات واحدة اثر اخرى وردت عليها صيحات اخرى

حتى تحول السكون الى مستشفى مجاذيب . وارتفعت الصيحات من

كل جانب وكشفت الكلاب عن مخاوفها وهى تتزاحم ويتجمع بعضها

الى البعض الاخر وتقترب من النار حتى احترقت النار شعرها . والقى

بيل فى النار مزيدا من الوقود ثم اشعل غليونه .

وقال هنرى :

« انى أتصورك وأنت فى قم واحد منها . »

ورد بيل قائلا :

« اسمع يا هنرى .. »

وجذب نفسا طويلا من غليونه فى تأمل . ثم عاد يقول :

« اسمع يا هنرى . كنت أحدث نفسي بأنه اسعد حظا منك ومنى »
وأشار بإبهامه الى الرجل الثالث الراقد فى الصندوق الذى كانا
جالسين عليه وقال :

« .. فعندما نموت أنا وأنت يا هنرى فلن يسعدنا الحظ بالحجارة
التي تكفى لتغطية جثتيما لابعاد الكلاب عنهما . »
وقال هنرى .

« ليس لنا أهل ولا مال ، فالجنازات التي تقطع المسافات الطويلة
شيء لا تستطيع أنت ولا أنا ان نكفله تماما . »
وقال بيل :

« هناك أمر يفوق قدرتي على ادراكه يا هنرى وهو لماذا يقوم شخص
كهذا له مكانته الكبيرة فى بلده وليست به حاجة الى البحث عن غذاء
او غطاء بالرحيل الى أقصى الارض المجهولة .
ووافق هنرى قائلا :

« كان من المحتمل أن يعمر طويلا لو أنه بقى فى بلده . »
وفتح بيل فمه ليتكلم ولكنه غير رأيه . وأشار الى جدار الظلام الذى
ضاق حولهما من كل جانب وهو ظلام حالك لا تمكن رؤية أى شيء
من خلاله . ولكنهما رأيا عينيّن براقتين كجذوتى فحم متقد . وأشار
هنرى برأسه الى عينيّن أخريين ثم الى عينيّن غير هاتين وهاتين .
وأحاطت دائرة من العيون البراقة بهما . ومن وقت لآخر تظهر عيناّن
جديدتان ثم تختفيان لتعودا الى الظهور من جديد بعد لحظة أخرى .
وزاد اضطراب الكلاب وتدافعت بدافع من خوف مفاجيء واقتربت
من النار فى تذلّل زاحفة عند أقدام الرجلين . وفى أثناء هذا الزحف
انقلب أحد الكلاب على ظهره عند حافة النار فعوى من شدة الألم
والخوف ومالت الهواء رائحة احتراق جلده . ودفع هذا الاضطراب
حلقة العيون الى الكف عن التحديق لحظة بل وإلى الانسحاب الى الوراء
قليلا ولكنها عادت الى الاستقرار والتحديق بعد أن هدأت الكلاب .

وقال بيل :

« من سوء الحظ أنه ليست لدينا أية ذخيرة . »
وكان بيل قد انتهى من تدخين غليونه . وأخذ يساعده صاحبه

فى اعداد فراش للنسوم وهو فراش من فراء وبطاين فوق فسروع
أشجار التنوب الفضى الجافة التى كانا قد صبغها فوق الجليد قبل
يده تناول طعام العشاء . وجلس هنرى القرفصاء وأخذ يفك إربطة
حذاءه . وسأل صاحبه .

« كم خرطوشة لدينا ؟ »

ورد عليه بيل قائلا :

« انها ثلاث . وكنت أرجو أن تكون ثلثمائة حتى كنت أؤدب هذه

الذئاب . »

وهز قبضة يده مهددا العيون البراقة ووضع حذاءه أمام النار
واستطرد يقول :

« ولكم أتمنى أن تذكر حدة هذا البرد فدرجة الحرارة منذ
اسبوعين وهى دون الصفر بخمسين درجة وليتنى يا هنرى لم أبدأ
الرحلة فمظهرها لا يعجبنى وأحس شيئا من الغم على نحو ما . وما
دمت فى مجال التمنى فأنى أتمنى أيضا أن تنتهى هذه الرحلة وينتهى
أثرها وأن نجلس أنا وأنت فى قلعة ماجيورة بجوار النار نلعب الورق
هذه هى تمنياتى .

وهمهم هنرى وزحف داخلا الفراش . ولما غلبه النعاس أيقظه رفيقه
وهو يقول له :

« اسمع يا هنرى . ان ما يزعجنى هو أن ذلك الذئب الذى جاء
وحصل على السمكة لم تتعرض له الكلاب . »

وجاءه الجواب الناعس :

« أنك تكثر من الانزعاج ولم يكن هذا شأنك من قبل وما عليك
الا أن تصمت وتنام فتصبح فى الصبح بكل خير وعافية . . ان سر
انزعاجى هو معدتك التى تؤلمك . »

ونام الرجلان جنبا الى جنب وهما يتنفسان فى صعوبة تحت غطاء
واحد وخمدت النار وزاد اقتراب حلقة العيون البراقة التى أحاطت
بهذا المخيم الصغير . وتجمعت الكلاب فى خوف وأخذت من حين الى
آخر تكثر عن أنيابها وتزمر كلما اقتربت عينان من تلك العيون .
وفى ذات مرة علا نباحها لدرجة أيقظت بيل فخرج من الفراش على حذر
حتى لا يقلق نوم رفيقه والقى مزيدا من الوقود فى النار ولما أخذ اللهب
فى الارتفاع ابتعدت تلك العين . ونظر نظرة عابرة نحو الكلاب وبعضها

يحتضن البعض الآخر . وفرك عينيه وحدد نظرتة اليها ثم عاد زاحفا
الى داخل الفراش .
ونادى صاحبه :
« هنرى ! هنرى ! »
وتنهذ هنرى وهو ينتقل من النوم الى اليقظة وسأله .
« ماذا تريد ؟ »
ورد بيل عليه قائلا :
« لا شيء سوى أن الكلاب أصبحت الان سبعة مرة أخرى وقد
عددتها بنفسى . »
وهمهم هنرى بما يفيد أنه علم هذه الحقيقة ثم راح يغط فى نومه
العميق .

وفى الصباح سبق هنرى صاحبه فى الاستيقاظ وانتزعه من
الفراش كان باقيا على طلوع النهار ثلاث ساعات رغم أن الساعة بلغت
السادسة صباحا وبدأ هنرى يعد طعام الافطار فى الظلام بينما أخذ
بيل يلف الاغطية ويعد الزحافة للمسير .
وسأله بيل فجأة :
« كم عدد الكلاب التى لدينا يا هنرى ؟ »
« ستة »
وقال بيل بلهجة الانتصار .
« هذا خطأ . »
وتساءل هنرى :
« هل عادت سبعة ؟ »
« كلا . . بل خمسة . . وبهذا تكون قد نقصت كلبا . »
وثار هنرى وترك الطهو وجاء يعد الكلاب . وانتهى من العد
بقوله :
« أنت على صواب . فقد ذهب الكلب البدين . »
وقال بيل :
« لقد تسلل ثم مضى بسرعة البرق ولم نستطع أن نراه بسبب
الدخان . »
وقال هنرى :
« لا أمل فى عودته على الإطلاق أو العثور عليه . فقد ابتلعتة

الذئاب حيا . وأراهن على أنه ظل يعوى وهو ينزلق من حلوقها .
عليها اللعنة . »

وقال بيل :

« لقد كان كلبا أحرق دائما . »

ومضى هنرى يقول :

« ولكن مهما بلغ أى كلب من الحمق فإنه لا ينبغي أن يصل به
الامر الى الانتحار على هذا النحو . »

ونظر الى بقية الكلاب بعين التكهن بما ينطق به مظهر كل منها من
ميول وقال :

« أراهن على أنه ليس منها ما يقدم على هذا العمل . »

ووافقه بيل على هذا القول اذ قال :

« لم أستطع دفعها بالعصى بعيدا عن النار وكان من رأى دائما
أن ذلك الكلب البدين غير طبيعى . »

وكان هذا هو رثاء كلب ميت فى طريق أرض الشمال . . فكان
أقل رثاء قيل فى أى كلب من الكلاب العديدة التى يملكها الناس
عديون .

الفصل الثانى الذئبة

واتم الرجلان تناول طعام افطارهما ووضعوا متاع المخيم وهو قليل على الزحافة وأدار ظهريهما للنار المتوهجة ومضيا فى جوف الظلام . وعاد العواء فورا يتصاعد فى الهواء حزينا بالغا يشق حجاب الظلام والبرد تتبادله الذئاب من هنا ومن هناك . وتوقف حديث الرجلين وطلع النهار فى الساعة التاسعة . وعند الظهيرة اصطبغ الافق الجنوبي باللون الوردى يوحى بالدفع وحدد المكان الذى ننأ فيه بطن الارض بين شمس الظهيرة وعالم الشمال . ولكن سرعان ما ذهب اللون الوردى وحل محله اللون الرمادى الذى استمر حتى بلغت الساعة الثالثة وعندئذ اضمحل هذا اللون وخيم ذلك اللون الكثيب لون الليل القطبى وهو يهبط على الارض الصامتة المنعزلة .

وعندما حل الظلام اقتربت صيحات الذئاب المطاردة من يمين ومن شمال ومن وراء - اقتربت حتى بعثت الخوف فى الكلاب فأصابها الذعر فترة قصيرة .

وفى ختام احدى فترات الذعر هذه أعاد بيل وهنرى الكلاب الى مكانها الذى تسير فيه وهى تجر الزحافة وراءها . وقال بيل :
« لكم أرجو أن تجد هذه الذئاب صيدا آخر فقتبعد عنا وقدعنا لساننا . »

وقال هنرى :

« انها مرهقة للاعصاب بصورة رهيبة . »

ولم يتكلما حتى نصبا مخيمهما .

وكان هنرى متحميا فوق قدر الفول يضيف اليها بعض الثلج عندما فوجئ بسماع صوت ضربة قوية وصيحة من بيل وصيحة ألم

بين الكلاب . فاعتدل واقفا ورأى فى الوقت المناسب شكلا مبهما يختفى فوق الجليد ثم يلتجئ الى الظلام . وعندئذ رأى بيل واقفا بين الكلاب بين ذلة وانتصار وباحدى يديه عصا غليظة وبيده الاخرى ذيل سمكة وبعض ما تبقى منها وقال بيل :
« لقد أخذت نصفها ولكنى مع ذلك ضربتها . هل سمعت عواءها ؟ »

وسأله هنرى :

« كيف كانت تبدو ؟ »

« لم أستطع تمييزها ولكن لها أربع سيقان وفم وشعر ومظهرها مظهر أى كلب . »
« لا بد أنها ذئبة مستأنسة . »

« إنها مستأنسة جدا فهى تأتى وقت تناول الطعام وتحصل على نصيبها من السمك . »

وأما تناول عشائهما تلك الليلة وجلسا على الصندوق البضاوى وأخذا يجذبان الانفاس من غليوئيهما وزاد اقتراب الاعين البراقة عن ذى قبل .

وقال بيل :

« لكم أرجو أن تشب هذه الذئاب على سرب من الايائل أو شيء من هذا فتمضى بعيدا عنا وتدعنا لساننا . »

وهمهم هنرى على نحو خال من التعاطف مع هذه الفكرة وظلا صامتين ربع ساعة وأخذ هنرى يحدق النظر فى النار كما أخذ بيل يحدق النظر فى حلقة الاعين الملتهبة فى الظلام وراء دائرة ضوء النار . وعاد بيل يقول :

« لكم أتمنى أن لو دخلنا ماجيورى الان . »

وانفجر فيه هنرى غاضبا يقول :

« كف عن تمنياتك ونعيمك . لاشك فى أن معسدتك تؤلك . »

اشرب جرعة من الصودا فتصبح حلو الحديث حسن المرافقة . »

وفى الصباح استيقظ هنرى على صيحة سباب شديدة صادرة من فم بيل واعتدل فى جلسته ونظر فرأى صاحبه واقفا بين الكلاب بجوار النار المتجددة وقد رفع ذراعيه وهو يصيح مؤثما وسأله هنرى :

« ماذا جرى ؟ »

أجابه بيل :

« لقد اختفى الكلب ضفدع . »

« هذا غير معقول . »

« أوكد لك ذلك . »

وقف هنرى خارجا من أغطيته ومضى نحو الكلاب وعددها بعناية
ثم شارك صاحبه فى لعنة حيوانات البرية التى سلبتهما كلبا ثانيًا
وأخيرا قال بيل :

« لقد كان ضفدع أقوى ما لدينا من كلاب . »

واتم هنرى حديثه قائلا :

« ولم يكن أحق . »

وهكذا تم تسجيل ثانى رثاء خلال يومين .

وأكلا طعام افطارهما وقد خيم عليهما الوجوم والكتابة .

وقيدا الكلاب الاربعة الباقية بالزحافة . وكان النهار صورة
مكررة لكل نهار سبقه . ومضى الرجلان فى صمت فوق الارض التى
يغطيها الجليد . ولم يقطع هذا الصمت سوى صيحات الذئاب
المطاردة التى لم يكادا يريانها ولكنها ظلت فى أعقابهما . ومع قدوم
الليل بدا العواء أكثر قربا اذ دنت الذئاب منهما طبقا لعادتهما
واضطربت الكلاب وخافت وأصابها الذعر مما زاد فى قنوط الرجلين .
وقال بيل فى تلك الليلة وهو يشعر بالرضا اذ انجز عمله :

« بهذه الطريقة ستكفين عن ارتكاب الحماقات . »

وترك هنرى الطهو وجاء ليرى موضوع حديث صاحبه مع الكلاب
ورأى أن صاحبه لم يقيد الكلاب بصورة عادية مألوفة بل انه قيدها
على الطريقة الهندية بالعصا . وذلك بأن ثبت فى عنق كل كلب سيرا
من الجلد وقيد فى هذا السير طرف العصا الغليظة على نحو يجعل من
العسير على الكلب أن تصل اسنانه الى الجلد وثبت الطرف الاخر من
العصا فى الارض بسير اخر من الجلد . وبهذا تمنعه العصا من
الوصول الى قطعة الجلد فى طرفها البعيد .

وأوما هنرى برأسه موافقا وقال :

« ان هذه هى الحيلة الوحيدة التى تحفظ ذا الاذن الواحدة انه
يستطيع أن يقطع الجلد بأسنانه كأنها سكين بل وبأسرع ما تستطيع
السكين . هكذا تكون الكلاب فى الصباح كاملة غير منقوصة . »

وأكد بيل صحة ما ذهب اليه هنرى بقوله :
« تستطيع أن تراهن على ذلك . وإذا نقص منها واحد فلن اشرب
قهوتي في الصباح . »

وعندما أويا الى فراشهما قال هنرى .
« ان الذئب تعلم انه ليست لدينا ذخيرة لقتلها ولو استطعنا
اطلاق رصاصتين عليها لزاد هذا من احترامها لنا . انها في كل ليلة
تزداد قربا . حديق النظر جيدا هناك ! هل رأيت ذلك الذئب ؟ »
وقضى الرجلان بعض الوقت فى التلهى برؤية حركات الاشكال
الغامضة عند حافة ضوء النار . وظلا يحددان البصر باستمرار فى
العينين المتوهجتين فى الظلام ورأيا شكل الذئب يتحدد .
وصدر صوت بين الكلاب فاجتذب انتباه الرجلين اليها كان
الكلب ذو الاذن الواحدة ينهته نهضة سريعة متقطعة وهو يعض عصاه
ويتوقف من لحظة لآخرى ليجدد هجومه على العصا بأسنانه .
وهمس هنرى قائلا :

« انظر يا بيل الى ذلك ! »

وبدا فى ضوء النهار شكل حيوان متلصص . وكان الحيوان
يتحرك حركة تدل على شكه وجراته وهو يرقب الرجلين فى حذر ويوجه
انتباهه للكلاب ووجه الكلب ذو الاذن الواحدة عصاه نحو هذا الحيوان
الدخيل ونهته بحماس .

وقال بيل بصوت منخفض :

« ان الكلب ذا الاذن الواحدة الاحمق لا يبدو خائفا قط . » وهمس

هنرى قائلا :

« انها ذئبة وهذا هو سر هلاك الكلب البدين وضفدع . انها الطعم
الذى يرسله قطع الذئاب لاصطياد الكلاب التى تجرى وراءها فتتلقفها
الذئاب الجائعة وتلتهمها . »

وقرقت النار . وسقطت كتلة من الخشب بفضوضاء واضحة
ولدى صدور هذا الصوت قفز الحيوان الغريب راجعا الى الوراء فى
الظلام .

وقال بيل

« انى افكر يا هنرى »

وسأله هنرى .

« فيم تفكر ؟ »

« افكر فى أن هذه هى الذئبة التى ضربتها بالعصا . »
ورد هنرى قائلا
« ليس فى ذلك أدنى شك . »
وقال بيل :
« اريد هنا أن اذكر ملاحظتى من أن تألف الذئبة مع نار المخيم
مثير للشك . »
ووافق هنرى على رأيه وقال :
« ان خبرة هذه الذئبة تزيد على خبرة أى ذئب يحترم نفسه فهى
تجئ فى وقت اطعام الكلاب . »
وقال بيل
« لقد كان لويليام كلب هرب ذات يوم مع الذئاب ولم أكن أعرف
ذلك وأطلقت النار على قطيع من الذئاب فى مرعى للأيائل عند وادى
« ليتل ستيك » يوما فأصبت ذلك الكلب وبكى ويليام كالطفل عندئذ
اذ كان الكلب قد غاب عنه ثلاث سنوات قضاها بين الذئاب . »
وقال هنرى
« ان هذه الذئبة كلبة وكثيرا ما أكلت الطعام من يد انسان . »
وقال بيل
« واذا نجحت فى أصابة هذه الذئبة التى هى فى نفس الوقت كلبه
فإنها على كل حال ستكون صيدا طيبا . فنحن لم نعد مستطيعين احتمال
خسارة مزيد من الكلاب . »
واعترض هنرى قائلا :
« ليست لدينا سوى ثلاث خرطوشات . »
ورد بيل على هذا الاعتراض بقوله :
« لن أطلق رصاصة الا اذا كنت متأكدا من أنها ستصيب الهدف . »
وفى الصباح جدد هنرى النار وأتم طهو الطعام بينما كان صاحبه
يفط فى نومه
وعندما ايقظه لتناول طعام الافطار معه قال له :
« لقد كنت نائما فى راحة تامة . ولم يطاوعنى قلبى لايقاظك . »
وبدا بيل تناول الطعام ناعسا . ولاحظ أن فتجانه خال وبسط
يده نحو ابريق القهوة ولكن ابريق كان أبعد من متناول يده ومجاورا
لهنرى فقال له برقة :
« اسمح يا هنرى . ألا تراك نسيت شيئا ؟ »

وتلفت هنرى حواليه باهتمام كبير وهز رأسه يريد أن يقول انه
لم ينس شيئا • فرغ بيل الفنجان الفارغ •

وقال هنرى

« لن تشرب قهوة • »

« هل فرغ ما لدينا من بن ؟ »

« كلا • »

« ألا ترى أن حرمانى من القهوة يسىء الى هضمى ؟ »

« كلا • »

وتصاعد دم الغضب الى وجه بيل وقال

« هل تريدنى أن أبقي هادئا وأنا اسمعك تقول هذا القول ؟ »

ورد عليه هنرى قائلا :

« لقد ذهب الكلب سبانكر • »

ويدون تردد أدار بيل رأسه فى جو استسلام لسوء الحظ وأخذ

يعد الكلاب وهو جالس مكانه وسأل صاحبه فى بلادة •

« كيف حدث هذا ؟ »

وهز هنرى كتفيه وقال :

« لا أدري الا أن يكون ذو الاذن الواحدة قطع له قيده بأسنانه ولم

يستطع هو اخلاء سبيل نفسه • لا شك فى هذا • »

وقال بيل فى وقار وبطء دون أية اشارة الى أن غضبا يثور بين

جوانحه :

« لانه لم يستطع عض سير الجلد الذى يقيده ويقطعه فعل ذلك

بقيد سبانكر • »

وقال هنرى

« لقد انتهت متاعب سبانكر على كل حال وأظنه الان قد تم هضمه

وهو يجرى الان فى هذا الفضاء الفسيح فى بطون عشرين ذئبا • اشرب

بعض القهوة يا بيل • »

ولكن بيل هز رأسه

وناشده هنرى وهو يقدم له الأبريق أن يشرب القهوة •

وازاح بيل الفنجان جانبا وقال

« لن اشرب القهوة فذلك عهد قطمته على نفسى حين قلت اذا فقدنا

كلبا فلن اشرب القهوة • »

وقال هنرى يفرقه

« انها قهوة لذیذة . »

ولكن بیل كان عنیدا واكل افطارا خالیا من القهوة التي استبدلها
باللبنات یصبها علی الكلب ذی الاذن الواحدة بسبب الحيلة التي لعبها .
وقال بیل عندما عادا یستأنفان رحلتها .

« سأقیدها الليلة قیدا یعیدا عن منالها . »

ولم یزد ما قطعاه بعد ذلك عن مائة یاردة عندما مال هنری علی
الارض وكان فی مقدمة المسيرة والتقط شیئا كان قد اصطدم بحذاءه
ولم یستطع أن یراه للونه الداكن ولكنه عرفه باللمس والتي به الی
الوراء فاصطدم بالزحافة ثم قفز ثانية فاصطدم بحذاء بیل .
وقال هنری

« ربما كنت فی حاجة الی هذه العصا فی تنفيذ ما اعتزمت القيام به
الليلة . »

واعرب بیل عن دهشته اذ كانت هذه العصا هی كل ما تبقى من
سبانكر وهی العصا التي كان قد قیده بها .
وقال بیل

« لقد آكلته الذئاب لحما وعظما وجلدا ولم تبقى منه حتی سیر
الجلد الذی یقیده بالعصا فهی نظیفة كالصفارة . لابد أنها جائعة جدا
وستبقینا فی حالة تکهفات مستمرة بقية الرحلة . »
وضحك هنری فی تحد وقال :

« لم یسبق أن تعقبتنی الذئاب كما فعلت هذه المرة ولقد مررت
بعدد كبير من المشاق التي تفوق مشقة الذئاب هولا واحتفظت بصحتی .
ولابد من أن يمر المرء ببعض هذه المشاق یابنى لكی تصبح رجلا متینا
وأهلا لمثل هذه الرحلات . »

وتمتم بیل فی تشاؤم قائلا

« لا أعرف . لا أعرف . »

« ستعرف عندما ندخل ماجیوری . »

« لا اشعر بأی حماس . »

— لقد شحب لون وجهك . وانت فی حاجة الی الكینا وسأجعلك
تقرب منها الكثير عندما فصل الی ماجیوری . »

واعرب بیل عن عدم رضاه عن هذا التفتیص وراح فی صمت
عمیق . وكان الیوم كالایام السابقة . اذ طلع النهار فی الساعة

التاسعة صباحا • وسرى الدفء فى الجو فى الساعة الثانية عشرة اذ كانت الشمس عند الافق الجنوبى وان لم تظهر لاعينهما ثم بدأت برودة فترة بعد الظهر التى لا تستغرق اكثر من ثلاث ساعات حتى يهبط الليل •

وبعد أن بذلت الشمس جهودا غير مجدية للظهور جذب بيل البندقية من بين أغطية الزحافة وقال
« عليك يا هنرى أن تستمر فى المضى وسأذهب أنا لارى ما اذا يمكن أن أراه » •

« خير لك أن تبقى بجوار الزحافة فليس لديك سوى ثلاث خرطوشات ولا يدري أحد ماذا يمكن أن يحدث • »
وقال بيل فى انتصار :
« من الذى يبكى الآن ؟ »

ولم يرد هنرى • ومضى يسير وحده وهو يكثر من التلفت المتلف إلى الوراء حيث اختفى رفيقه فى القفر المكفر •
وبعد ساعة جاء بيل بعد أن اختصر الطريق إلى الزحافة بفضل الدروب بين منحنيات الطريق التى لا بد للزحافة من أن تمضى فيها •
وقال :

« ان الذئاب منتشرة فى دائرة واسعة وهى بهذا تبقى على اتصالها بنا وتبحث عن صيد لها فى نفس الوقت وهى كما يرى مطمئنة إلى الحصول علينا الا أنها تنتظر أوان ذلك بينما هى فى نفس الوقت راغبة فى التقاط مايتيسر لها مما يمكن أكله • »
واعترض هنرى قائلا

« هل تقصد أنها واثقة من الحصول علينا ؟ »

ولكن بيل تجاهله واستطرد يقول :

« لقد رأيت بعضها وهى غاية فى الهزال ويبدو أنها لم تأكل شيئا منذ اسابيع فيما عدا الكلب البدين وضفدع وسبانكر • وهذه الذئاب كثيرة العدد • ولم تبتعد عنا كثيرا • انها غاية فى النحافة وضلوعها بارزة وبطنها خاوية ملتصقة بسلاسل عظمها الفقري وهى الى ذلك غاية فى التهور والاندفاع وقد تصاب بالجنون ولهذا يجب الانتباه • »
وبعد بضعة دقائق أطلق هنرى الذى يسير الآن وراء الزحافة صغيرا منخفضا فيه انذار • والتفت بيل نحوه ونظر اليه واقف الكلاب بهدوء • كان وراءهما عند آخر منحنى تجاوزاه وفى أثرهم شكل ذو

فراء يتسلل ركضا ولهذا الشيء أنف يتشمم الاثر على الارض وهو في مسيره خفيف لا يبذل جهدا . وعندما توقفا توقف هذا الشيء ورفع رأسه في الهواء ونظر اليهما نظرة صارمة وخياشيمه في حركة دائمة وهي تلتقط رائحتهما وتفحصها .

وقال بيل

« انها الذئبة »

ورقدت الكلاب على الارض وتجاوزها بيل ماضيا نحو صاحبه في الزحافة وراقبا معا الحيوان الغريب الذى ظل يطاردهما عدة أيام وقضى على نصف كلايهما .

وبعد فحص دقيق ركض الحيوان بضع خطوات الى الامام وتكرر هذا عدة مرات حتى أصبح على بعد مائة ياردة منهما . وتوقف ورفع رأسه بالقرب من مجموعة من اشجار التنوب الفضى وأخذ يفحص الرجلين اللذين يراقبانه مستخدما حاستي البصر والشم ونظر اليهما نظرة شوق غريب كما يفعل الكلب ولكنه شوق ليس فيه شيء من شوق الكلب الذى يتميز بالحب بل هو شوق مثاره الجوع فهو كامن فى قسوة أنيابه وفى جموده الذى يحكى جمود الجليد نفسه .

ويزيد حجمه عن حجم الذئب العادى واطاره الهزيل يدل على انه ينتمى الى اكثر أنواع الذئاب حجما .

وقال هنرى :

« ان عرض كتفيه يبلغ قدمين ونصف قدم ، وأراهن على أن طوله لا يقل عن خمسة اقدام . »

وقال بيل :

« ولونه غريب يخالف لون الذئاب ولم يسبق لى أن رأيت ذئبا احمر من قبل قط ولونه اقرب الى لون القرفة . »

ولم يكن الحيوان بالتأكيد فى لون القرفة بل كان فراؤه فراء ذئب حقيقى واللون الغالب على فراؤه هو اللون الرمادى ومع ذلك فهناك أثر من لون يميل الى الاحمرار وهو لون خداع يظهر ثم يختفى وكأنه خدعة من الخدع البصرية فهو تارة رمادى واضح وتارة أخرى يبرق بريقا يميل الى الحمرة لون لا يمكن تحديده على ضوء الخبرة العادية .

وقال بيل :

« انه يبدو كلبا ضخما من كلاب الاسكيمو المخصصة لجر الزحافات ولن يثير دهشتى لو أنه هز ذيله . »

وناداه بيل .

« تعال يا كلب الاسكيمو . تعال هنا كائنا ما كان اسمك » .

وضحك هنرى وقال

« انه غير خائف منك » .

ولوح بيل بيده ناحية الذئب مهددا وصاح بصوت عال ولكن لم يظهر على الحيوان أى أثر للخوف وكل ما حدث فيه من تغيير ولم يستطعا ملاحظته هو دقة انتباهه وهو يرقبهما بعينين فيهما شوق الجوع الذى لا يرحم فهما بالنسبة له لحم وهو جائع وبوده أن يقتحمهما وأن يأكلهما لو أن لديه الجرأة لذلك .

وقال بيل وقد خفض صوته بدرجة الهمس عن غير قصد وذلك بسبب ما يفكر فيه :

« اسمع يا هنرى . لدينا ثلاث خرطوشات ولو صوبنا اليه اصابة قاتلة لما أفلت منها . ولقد أكل هذا الذئب ثلاثة من كلابنا ولا بد من أن نضع حدا لهذا » . فما رأيك ؟ » .

وأوما هنرى برأسه موافقا . وجذب بيل البندقية من الزحافة فى حذر . وكانت البندقية فى طريقها الى اتخاذ مكانها فوق كتف بيل ولكنها لم تصل لان الذئبة فى تلك اللحظة قفزت جانبا من الطريق واختفت بين مجموعة اشجار التنوب القضى .

ونظر كلا الرجلين الى الآخر . وصفر هنرى بفمه طويلا فى فهم . وأنب بيل نفسه بصوت عال وهو يعيد البندقية الى مكانها قائلا : « كان يجب أن أعرف ذلك فالذئب الذى يعرف كل مايتصل باطلاق الاسلحة النارية . اسمع يا هنرى ان هذه الذئبة هى سبب متاعبنا . كان يجب أن يكون لدينا ستة كلاب الآن بدلا من ثلاثة لولا تلك الذئبة . واسمع أيضا يا هنرى لا بد أن اقتلها . وهى أشد ذكاء من أن تقتل صراحة ولهذا سادبر مكيدة لقتلها ساتصيداها بين الاشجار وأنا واثق من قدرتى على ذلك ثقتى بأن اسمى بيل » .

وحذره رفيقه قائلا :

« لا حاجة بك الى الشرود بعيدا للقيام بهذا العمل لانه اذا بدأ هذا القطيع من الذئاب الوئب عليك فلن تساوى الطلقات الثلاث أكثر من سعال فى الجحيم فتلك الذئاب جائعة جدا واذا بدأت الهجوم فثق بانها ستأكلك » .

وبكرنا تلك الليلة بنصب مخيمهما . اذ ما كانت ثلاثة كلاب بقادرة على جر الزحافة بنفس السرعة أو نفس المسافة التي تستطيعها ستة كلاب وخاصة وقد بدا عليها الانهاك . وبكر الرجلان في النوم ولكن بعد أن استوثق بيل من قيد الكلاب على نحو لا يسمح لواحد منها بفك قيده .

ولكن الذئاب زادت جراتها وأيقظت الرجلين من نومهما أكثر من مرة واقتربت الذئاب منهما الى حد أن الكلاب أصيبت بالذعر واصبح من الضروري تجديد النار من آن لآخر لابقاء الذئاب المفجرة بعيدة بدرجة تجعل الرجلين أكثر أمنا .

وقال بيل بعد أن عاد الى الفراش عقب تجديد النار في احدى المرات :

« لقد علمت أن الملاحين يتحدثون عن سمك القرش الذي يتبع السفن والذئاب هي اسماك القرش على الارض وهي أكثر منا علما بمهمتها وهي لا تتعقب أثرنا مراعاة لصحتها بل انها ستقتلنا وهي واثقة من أنها ستقتلنا يا هنرى . »

ورد هنرى عليه بحدة قائلا :

« أنك بحديثك هذا تهين نفسك لان تغتالك . فالانسان يصبح نصف قتيل اذا هو قال ذلك . وانت نصف مأكول على ضوء تصرفك ازاء الذئاب » .

ورد عليه بيل قائلا :

« لقد سبق أن افترست الذئاب رجالا خيرا منا » .
وقال هنرى :

« كف عن عواذك فانك تزيدنى تعباً » .

ومال هنرى غاضبا على جنبه ولكن أدهشه أن بيل لم يغضب كما غضب . ولم يكن هذا هو اسلوب بيل فهو سريع الغضب اذا هو سمع كلمات عنيفة . وأطال هنرى التفكير في ذلك قبل أن ينام وبينما كانت اهدابه تلتقي ويروح في نعاسه حدثه عقله قائلا :

« لا شك في أن بيل غاضب ولا بد من أن أصلحه غدا » .

الفصل الثالث نداء الجوع

وبدا اليوم بداية سعيدة اذ لم يفقدا شيئا من الكلاب الثلاثة الباقية أثناء الليل ومضيا على الطريق وفي الصمت والظلام والبرودة بروح طيبة ، وبدا على بيل أنه نسي ما ازعجه في الليلة الماضية بل انه مازح الكلاب عندما قلبت الزحافة عند الظهر .

وكانت الاشياء قد اختلطت اختلاطا سخيفا عندما انقلبت رأسا على عقب وانضغطت بين جذع شجرة وصخرة كبيرة واضطروا الى فك قيود الكلاب لاصلاح وضع الزحافة . وانحنى الرجلان فوق الزحافة محاولين اصلاح وضعها ولاحظ هنرى أن الكلب ذا الاذن الواحدة يتسلل مبتعدا عنهما .

وصاح بعد أن اعتدل في وقفته واستدار نحوه :

« انتظر يا ذا الاذن الواحدة » .

ولكن ذا الاذن الواحدة كان قد بدأ الجرى فوق الجليد مخلفا وراءه اثاره على الجليد . وهناك فوق الجليد وبعيدا وراء الزحافة كانت الذئبة تنتظره ، واقترب منها واصابه الحذر فجأة فابطأ حركته واصبحت مشيته يقظة وثيدة ثم توقف . واخذ ينظر اليها فى شك ومع ذلك كانت له رغبة فيها . وبدا عليها أنها تبسم له كاشفة عن أنيابها واقترب منها ذو الاذن الواحدة وهو محتفظ بيقظته وحذره وقد رفع ذيله واذنيه فى الهواء وشمخ برأسه .

وحاول أن يحك أنفها بأنفه ولكنها تفهقرت فى مداعبة مستدرجة اياه . وكلما تقدم خطوة تفهقرت هى خطوة مماثلة . وظلت تفريه على الابتعاد عن الامان الذى يجده فى صحبة البشر خطوة خطوة . وحدث ذات مرة أن بدا عليه أنه ينصت لانهذار خفى فأدار رأسه والتفت الى الزحافة المقلوبة والى الكلبين الآخرين الباقين عندها والى الرجلين اللذين يناديانه .

ولكن الذئبة قضت على أية افكار تدور فى ذهنه بأن تقدمت نحوه

وحكت أنفه بأنفها لحظة خاطفة ثم عادت تتقهقر تهقرها المخرى وجدد هو تقدمه نحوها .

وفي أثناء ذلك فكر بيل في البندقية ولكنها كانت مضغوطه تحت الزحافة المقلوبة هي الأخرى . وفي الوقت الذى ساعده هنرى فيه فى اصلاح وضع الزحافة كان ذو الاذن الواحدة والذئبة قد ازدادا قربا كلاهما من الآخر واصبحت المسافة بعيدة بعدا لا تسمح بالمخاطرة برصاصة .

وادرک ذو الاذن الواحدة غلطته بعد فوات الأوان . ورأى الرجلان الكلب يستدير ويأتى مسرعا نحوهما دون أن يريا السبب الذى دفعه الى ذلك . ثم رأيا عشرة ذئاب هزيلة ضامرة غبراء تقطع عليه طريق التقهقر وتثب عليه فوق الجليد وسرعان ما ذهب عن الذئبة ما كانت تظهره من مداعبة واغراء ووثبت عليه مكشرة عن انيابها فدفعا عنه بكتفيه وبالرغم من قطع الطريق عليه فانه ظل مصمما على العودة الى الزحافة . وغير محرجى سيره بأن جعله دائريا ليصل الى الزحافة . وتكاثر الذئاب وزاد عددها مع كل لحظة واشتركت فى المطاردة وظلت الذئبة على بعد خطوة واحدة وراء ذى الاذن الواحدة لا تتقدم ولا تتأخر عن ذلك .

ووضع هنرى يده على ذراع رفيقه وقال :

« الى أين انت ذاهب ؟ »

وأبعد بيل يد صاحبه عنه وقال :

« لن احتمل ذلك . ولن تأخذ تلك الذئاب هذا الكلب ما دام فى استطاعتي أن امنعها » .

ومضى بين الشجيرات الصغيرة المجاورة للطريق وبندقيته فى يده وكانت نيته واضحة . وجعل الزحافة مركز الدائرة التى يصنعها ذو الاذن الواحدة وأراد أن يصل الى محيط الدائرة فى نقطة ما قبل أن تصل اليها الذئاب المطاردة ورأى من المحتمل والبندقية فى يده وفى وضوح النهار أن يخيف الذئاب وينقذ الكلب . وناداه هنرى :

« اسمع يا بيل . كن حذرا ولا ترتكب مخاطرة » .

وجلس هنرى على الزحافة وظل يرقب ما يحدث اذ لم يكن لديه ما يصنعه غير هذا . واختفى بيل عن ناظره ولكن ذا الاذن الواحدة ظل من لحظة الى اخرى يظهر ثم يختفى بين الشجيرات الصغيرة ورأى

هنرى أنه لم يعد هناك أمل فى انقاذ ذى الاذن الواحدة وادرك الكلب الخطر المحدق به أدراكا تاما ولكنه أخذ يوسع الدائرة التى يجرى فيها بينما الذئب تضيق دائرة ركضها ومن العبت أن يخطر ببال المراء أن يستطيع الكلب البعيد كل البعد عن مطارديه اقتحام الدائرة والعودة الى الزحافة .

واقتربت الخطوط المختلفة بسرعة من نقطة ما . وحالت الاشجار دون أن يرى هذه المطاردة التى تجرى على الجليد ولكنه عرف أن كلا من قطيع الذئاب والكلب وبيل يقتربون بعضهم من بعضهم الآخر للالتقاء فى نقطة . وقد حدث هذا فعلا باسرع مما كان يتوقع . وسمع صوت طلقة نارية ثم صوت طلقتين أخريين . وعرف هنرى أن ما لدى بيل من ذخيرة قد نفذ ثم سمع عواء ونباحا وميز صيحة الالم والرعب الصادرة عن ذى الاذن الواحدة وسمع صيحة ذئب تدل على أن صاحبها أصيب ولم يسمع بعد ذلك شيئا . كف العواء والنباح وخيم الصمت من جديده على الارض الموحشة .

واطال الجلوس على الزحافة . ولم تكن به حاجة الى الذهاب ورؤية ما حدث اذ عرف كل ما وقع كما لو انه وقع برأى من عينيه . ونهض فى فزع واسرع بأخراج البلطة من مكانها بالزحافة . ولكنه عاد الى الجلوس فترة أطول سادها التأمل وظل الكلبان الباقيان قابعين عند قدميه يرتعدان .

وأخيرا نهض متعبا وكأنما قد خلا جسمه من كل قدرة على المقاومة وقيد الكلبين بالزحافة ووضع أحد الحبال على كتفه وساعد كلبيه فى جر الزحافة . ولم يمض بعيدا اذ حالما بدت أولى طلائع الظلام اسرع بنصب المخيم واهتم بالكثائر من وقود النار واطعم الكلبين وطها طعامه وأكل عشاءه وبسط فراشه على كشب من النار .

ولكنه لم ينعم بالفراش طويلا اذ قبل أن يغمض عينيه كانت الذئاب قد اقتربت منه على نحو لم يعد معه يأمن على سلامته . ولم يكن فى حاجة الى اجهاد عينيه لرؤية الذئاب التى احاطت به وبالنار فى حلقة ضيقة ورأها بوضوح على ضوء النار راقدة أو قابضة أو زاحفة على بطونها أو مترجعة أو متقدمة . بل ان بعض الذئاب نام وقد طوى جسده كما يفعل الكلب ينام بعد أن حرم النوم على هنرى .

وابقى النار مشتعل غاية الاشتعال علما منه بأنها الحاجز الوحيد الذى يمنع الذئاب من الاقتراب منه . وظل كلباه قريبين جدا منه وهو

يتوسطهما • وكانا يستندان اليه طلبا لحمايته يزمجران بصوت منخفض وأحيانا يعويان بصوت عال اذا ازداد أحد الذئاب قريبا • وفى اللحظة التى يرتفع فيها صوت عواء الكلبين تتحرك حلقة الذئاب التى تقف على أقدامها متوثبة الى الامام وهى تعوى ثم تعود الى الرقود • ومن لحظة لآخرى يستيقظ واحد منها •

ولكن هذه الحلقة استمرت تضيق عليه شيئا فشيئا وفى كل مرة تضيق بمقدار بوصة اذ يبدأ ذئب فيزحف على بطنه هنا ويزحف آخر على بطنه هناك • وضائق الحلقة حتى أصبحت الوحوش على بعد وثبة واحدة • وعندئذ أمسك حزمة من الاعواد المشتعلة وألقى بها على القطيع واسفر هذا عن تراجع الذئاب بسرعة الى الوراء وهى تزمجر زمجرة الغضب والخوف كلما أصاب عود مشتعل جسم ذئب جرى فى تقدمه • وجاء الصباح فاذا الرجل منهمك القوى شاحب اللون وقد اتسعت عيناه من أثر الحاجة الى النوم • وطها طعامه وتناول افطاره فى الظلام • ولما جاءت الساعة التاسعة وطلع النهار ابتعدت الذئاب عنه ومضى ينفذ الخطة التى ظل ليله كله يدبرها • فقطع الاغصان الصغيرة الغضة وجعل منها شبكة وكون من الشبكة منصة متينة فوق جنوع الاشجار على ارتفاع كبير من الارض واستخدم قيود الكلاب فى ربط المنصة بالاشجار ورفع صندوق الميت فوق المنصة • وقال للجسد المسجى فى الصندوق :

« لقد افترست الذئاب بيل وقد تفترسنى أنا ولكنها لن تصل اليك أيها الشاب » •

وخف حمل الزحافة ومضى بها وقد اسرع بها الكلبان اللذان يعرفان أن السلامة انما هى فى بلوغ قلعة ماجيورى • واصبحت الذئاب الان أكثر صراحة فى مطاردتها وهى تثب فى اتزان وراء الزحافة وتحيط بها من جانبيها وقد تدلت السننات الحمراء بينما كشف ادبهما عن اضلاعها البارزة • كانت غاية فى النحافة والهزال مجرد جلد على عظم تتخللهما العضلات • ولقد بلغت نحافتها حدا كبيرا حتى عجب هنرى من بقائها تجرى على اقدامها دون أن تصاب بانهايار فوق الجليد • ولم يجرؤ على الاستمرار فى السفر حتى هبوط الليل فما انتصف النهار وأدفات الشمس الافق الجنوبى ورفعت حاجبها الاعلى شاحبا ذهبى اللون على خط الافق حتى اعتبر هنرى ذلك اشارة له لنصب مخيمه وكان النهار قد بدأ يطول والشمس بدأت تعود • ولكن حالما راحت

بهجة ضيائها دخل مخيمه مع انه كانت هناك عدة ساعات باقية من النهار تنقضى في ضياء أغبش اللون يليها غسق مكفهر واستخدم هذه الساعات في قطع كمية كبيرة من خشب الوقود .
وجاء الرعب مع قدوم الليل . ذلك أن الذئاب الجائعة ازدادت جراه كما أن وطاة الحاجة الى النوم زادت شدتها . وراح في نعاس بالرغم منه فجلس بجوار النار وغطى كتفيه بالاغطية ووضع البطلة بين ركبتيه واستند الكلبان اليه كلاهما من جانب . واستيقظ ذات مرة فرأى أمامه وعلى بعد لا يزيد عن عشرة أقدام ذئبا أغبر بالغ الضخامة هو من أكبر ذئاب القطيع وفيما كان ينظر اليه تعمد الوحش أن يتمطي كما يفعل الكلب الكسول وتناهب في وجهه تناؤيا عريضا وحدق النظر فيه كما لو كان هنرى مجرد وجبة غذائية سرعان ما تدخل فمه .
كانت هذه الثقة واضحة في وجوه القطيع كله واستطاع أن يمد منها عشرة وكلها تحدد النظر فيه في جوع شديد أو نائمة في هدوء على الجليد . وذكره منظرها هذا بأطفال تجمعوا حول مائدة منصوبة ينتظرون السماح لهم بالبده في تناول الطعام . انه هو نفسه الطعام الذى ستأكله الذئاب وتساءل كيف ومتى ستبدأ الذئاب أكله ؟

وبينما كان يكوم حطب الوقود فوق النار اكتشف في نفسه ميلا الى تقييم امكانياته الجسدية على نحو لم يحدث له من قبل وراقب عضلاته في حركتها واهتم ببراعة أصابعه في الحركة وما تتصف به هذه البراعة من ذكاء . وأخذ يشنى أصابعه في بطة ويكرر هذه الحركة في ضوء النار مرة يفعل ذلك بأحد أصابعه ومرة أخرى يفعله بأصابعه كلها دفعة واحدة ينشرها على آخر امتدادها أو يقبضها بسرعة . وفحص تكوين أطافره ونخس أطراف أطافره مرة بقوة ومرة برفق ليقيس الاحساس العصبى الناشئ عن ذلك . وفتنته هذه التجربة واصبح فجأة مغرما بمرونة جسده أثناء حركته الجميلة اليسيرة الرقيقة .
ويعقب ذلك بأن يلقى نظرة خوف على حلقة الذئاب التى ازدادت اقترابا منه في ترقب وتبين أن جسده هذا . هذا اللحم ليس أكثر من لحم ستأكله الذئاب المفترسة بأنيابها الجائعة بعد أن تمزقه اربا وتقطعه شرائح ليكون غذاء لها يبقى على حياتها تماما كما كان يجد غذاءه الذى يبقى على حياته فى لحم الايائل والارانب ، وأحس فى هذا التبين ضربة هوت عليه .

وافاق من غفوة كانت اشبه شيء بالكابوس رأى فيه الذئبة ذات اللون الاحمر واقفة امامه على بعد لا يزيد عن ستة أقدام فوق الجليد تنظر اليه نظرة اشتها لأكله بينما الكلبان عند قدميه يعويان ولكنها لا تعيرهما اهتماما بل تنظر الى الرجل الذى يبادلها النظر بعضا من الوقت . وليس فى نظرتها ما يوحى بالتهديد بل هى تكتفى بالنظر اليه فى لهفة شديدة ولكنه يعلم أن هذه الלהفة مشربة بجوع شديد . انه هو الطعام كما أن منظره يثير فيها حاسة المذاق . وانفتح فمها وسال منه لعابه ولعلقت أضلاعها وهى تستمتع باللذة المنتظرة .

وسرى فى جسده تشنج عضلى من أثر الخوف . وبسط يده الى قطعة من الحطب المشتعل ليلقى بها على الذئبة ولكنه ما كاد يمد يده وقبل أن تطبق أصابعه على قطعة الحطب حتى كانت الذئبة قد وثبت بعيدا الى حيث تكون آمنة وعرف من ذلك أنها تعودت أن يلقي الناس عليها اشياء . وكشرت عن أنيابها وهى تثب الى الوراء فكشفت عن جذور أنيابها واختفت لهفتها وشوقها وحل محلها خبث الافتراس الذى جعله يرتعد ونظر الى يده المسكة بقطعة الحطب ولاحظ رقة أصابعه فى امساك قطعة الحطب وهى تلائم بين نفسها وبين خشونة سطح تلك القطعة فهى تنثنى فوق الخشب الخشن وتحت وحوله ومنها اصبعه الخنصر القريب كل القرب من الجزء المحترق من قطعة الحطب وهى غاية فى الحساسية فاذا اشتدت الحرارة تراجعت الاصابع الى مكان أكثر أمنا . وفى نفس الوقت تصور هذه الاصابع الدقيقة وهى تتحطم وتمزق بين أنياب الذئبة البيضاء . ولم يسبق له قط أن أحب جسمه كما أحبه الآن حين أصبح احتفاظه به محفوقا بالخطر .

وظل طول الليل يصد عنه الذئاب الجائعة بقطع الحطب المشتعلة وعندما غفا رغما عنه أثاره عواء الكلبين . وجاء الصباح ولكنه لاحظ لأول مرة أن ضوء النهار لم يفرق الذئاب . وانتظر الرجل عبثا أن تتفرق الذئاب التى بقيت تحيط به وبناره من كل جانب ومظهرها ينطق بفرور السيطرة عليه مما هز شجاعته التى كان ضوء الصباح قد أوجدها فيه .

وقام بمحاولة يائسة لبدء الرحيل . ولكن ما أن خرج من نطاق حماية النار حتى وثب عليه أكثر الذئاب جراءة ولكنه لم يصل اليه اذ انقض الرجل نفسه بالقفز الى الوراء وانطبق أحد فكي الذئب على الفك الآخر على بعد ست بوصات من فخذيه ونهضت بقية الذئاب وتدافعت

نحوه واصبح من الضروري له أن يلقي الحطب المتقد يمينا وشمالا لدفعها عنه الى بعد يكون معه آمنا على نفسه .

وبالرغم من وضوح النهار فإنه لم يجزؤ على مفادرة مكان النار للاحتطاب وكانت اشجار التنوب الغضى الميتة على بعد عشرين قدما منه . وقضى نصف النهار وهو يمد نيرانه نحو الشجرة وقد وضع بعض القطع الملتهبة بالقرب منه ليلقى بها على أعدائه فلما بلغ الشجرة فحص الغابة المحيطة به ليكشف أقرب شجرة يمكن أن يحتطب منها وقودا . وجاءت الليلة صورة مكررة من الليلة السابقة فيما عدا سيطرة احساسه بالحاجة الشديدة الى النوم سيطرة لا قبل له باحتمالها أو مقاومتها . وفقد عواء كلبيه قاعليته . وقضلا عن ذلك فان عوامها ظل مستمرا كما أن احساسه الذى خدره النعاس لم يعد يحدد مدى ما يعتور هذا العداء من عمق أو قوة . واستيقظ فزعا . ووجد الذئبة على بعد ياردة واحدة منه فاندفع اليها بدون حاجة الى تفكير أو تدبير ودس قطعة حطب مشتعلة فى فمها المفتوح . وقفزت الى الوراء تعوى من فرط الألم وابتهج وهو يشم رائحة لحمها وشعرها المحترقين وأخذ يرقبها وهى تهز رأسها غضبا على بعد عشرة أقدام .

ولكنه فى هذه المرة وقبل أن يغلبه النعاس مرة أخرى ربط كتلة محترقة من خشب الصنوبر بيده اليمنى ولم يفض عينيه أكثر من بضع دقائق حتى ايقظه وهج النار . واتبع هذا البرنامج عدة ساعات . وفى كل مرة ايقظه فيها الوهج أبعد عنه الذئاب بقذف الحطب المتقد عليها وجدد وقود النار وأعاد ترتيب كتلة الصنوبر المحترقة بيده . وسارت الامور سيرا حسنا ولكن جاء وقت لم يحكم فيه ربط كتلة الصنوبر فلما أغمض عينيه سقطت من يده .

ورأى فيما يرى النائم أنه بلغ قلعة ماجيورى والمكان دافئ ومريح وهو يلعب الورق مع الوكيل . وبنت له القلعة تحاصرها الذئاب وهى تعوى عند أبواب القلعة نفسها . وكان يقف أحيانا هو والوكيل عند الابواب لينصتا ويضحكا من الجهود العابثة التى تبذلها الذئاب لاقتحام الابواب . وعندئذ حدث شيء غريب غرابة الحلم نفسه اذ افتتح الباب عنوة واندفعت الذئاب مقتحمة غرفة الجلوس الكبيرة بالقلعة واخذت تثب عليه هو والوكيل مباشرة . وزادت قوة عواء الذئاب مع فتح الباب عنوة وازعجه هذا العواء . وتحول حلمه الى شيء آخر لم يعرفه ولكن العواء ظل طول الحلم مستمرا ومتصلا

وعندئذ استيقظ فوجد العواء حقيقيا . وكانت الذئاب مندفعة نحوه مكشرة عن انيابها . بل انها احاطت به وهجمت عليه واطبقت اسنان احدها على ذراعه . فقفز الى داخل النار بدافع غريزي وفيما هو يقفز أحس نابا آخر يقطع لحم ساقه . وعندئذ بدأ القتال بالنار وحمى القفاز المتين يديه مؤقتا والقي الفحم المتقدم في الهواء في كل ناحية حتى بدت نيران المخيم كفوهة بركان .

ولكن لم يكن من الممكن أن يستمر ذلك طويلا وآله وجهه تحت وطأة الحرارة الشديدة واحترق شعر حاجبيه وأهدابه واصبحت قدماء عاجزتين عن احتمال النار وأمسك بكلتا يديه قطعة حطب مشتعلة وقفز الى حافة النار . وكانت الذئاب قد ابتعدت . وأخذ الثلج يغلي في كل ناحية سقط فيها الفحم . ومن لحظة لآخرى كان ذئب يقفز عاليا وهو يعوى ألما مما يدل على أن قطعة فحم مشتعلة قد احترقت قدمه .

والقي الرجل الحطب المشتعل بيديه على أقرب أعدائه ودس قفازه المحترق في الجليد وأخذ يدق بقدميه على الجليد ليخفف حدة احتراقهما ولم يعد لكلبيه أثر وعرف جيدا أن الذئاب قد أكلتهما أثناء انتظار أكله هو كوجبة غذائية رئيسية من المتوقع أن تحدث خلال الايام المقبلة .

وصاح في الوحوش الجائعة وهو يهز قبضتيه في وحشية :

« لم تحصلوا على بعد »

وحرك صوته حلقة الذئاب المحيطة به واشتركت في العواء واقتربت الذئبة منه وأخذت ترقبه في لهفة الجوع .

وبدأ تنفيذ فكرة جديدة خطرت له . بدأ توسيع حلقة النار وجلس داخل هذه الحلقة وقد وضع تحته الاغطية لتحمية من برودة الثلج الذائب ولما اختفى على هذا النحو وراء اللهب عن أعين الذئاب اقتربت هذه في فضول من حافة الدائرة لترى ماذا حل به . ولم تستطع الذئاب حتى هذه اللحظة الدنو من النار فاستقرت في حلقة قريبة جدا منه وهي ترمش بعيونها وكأنما هي مجموعة من الكلاب العديدة وتتنابذ وتمطلي في الدفء غير المألوف . وعندئذ جلست الذئبة ومدت أنفها نحو النجوم وأخذت تعوى . وحلت الذئاب حلوها واحدا بعد الآخر حتى أصبح القطيع كله مقعيا على خلفيته وأنوفه نحو النجوم مطلقا نداء الجوع .

وجاء الفجر ثم طلع النهار . وخدمت النار قليلا . ونفذ الوقود واصبحت هناك حاجة الى احضار وقود جديد . وحاول الرجل أن يخرج من الحلقة الملتهبة ولكن الذئب تدافعت للقائه وطردها عنه بحزم اللهب فقفزت جانبا ولكنها لم تعد تقفز الى الوراء . وعبنا حاول أن يدفعها الى الوراء . وكف عن المحاولة وعاد داخلا الحلقة ووثب عليه ذئب ولكنه أخطأ وهوى بسيقانه الاربع فوق الفحم الملتهب وعوى في فزع وزمجر مكشرا عن أنيابه وقفز عائدا الى الوراء ليبرد أقدامه في الجليد .

وجلس الرجل على أغطيته منحنيًا وقد امتد جسمه الى الامام واسترخت كتفاه ومالتا ووضع رأسه على ركبتيه مستسلما لقدره ومن حين لآخر كان يرفع رأسه ليرى احتضار النار . وبدأت حلقة اللهب والفحم تتكسر أجزاء تفصل بينها فتحات واتسع حجم الفتحات وتضائل حجم الاجزاء .

وتتمم قائلا :

« الآن تستطيعون القدوم والحصول على وعلى كل حال فسانلم وليكن ما يكون » .

واحس الضعف ورأى عند احدى الفتحات في الحلقة في مواجهته الذئبة وهي تحقق النظر فيه .

وازداد احساسه بالضعف . وبعد قليل وان بدا هذا القليل عنده ساعات حدث تغيير غامض . وكان هذا التغيير من الغموض بحيث ايقظه تماما ، لقد حدث شيء لم يستطع فهمه في أول الأمر ، ولم يبق سوى الجليد يحمل اثار أقدام تدله على مدى قرب تلك الذئب حين كانت تحيط به . وعاد النوم يفرض سلطانه عليه من جديد وغاصت رأسه بين ركبتيه ثم نهض مستيقظا منتبها فجأة .

وكانت هناك صيحات رجال وضوضاء زحافات وصليل لجسم وعواء كلاب الزحافات ، ووقفت أربع زحافات عند حوض النهر بالقرب من المخيم المجاور للاشجار . ووقف ستة رجال حول الرجل الجالس القرفصاء وسط حلقة النار الخاملة . وأخذوا يهزونه وينخسونه حتى يفيق ونظر اليهم نظرة مخمور وهو يقول بصوت غريب ناعس .

« ذئبة حمراء .. تأتي مع الكلاب وقت تناولها الطعام .. بدأت بأكل طعام الكلاب ثم أكلت الكلاب .. وبعد ذلك أكلت بيل .. »

وصاح أحد الرجال في أذنه وهو يهزه بخسونة :

« أين اللورد الفريد ؟ »

وهز رأسه ببطء وقال
« كلاً لم تأكله .. بل هو مقيم على شجرة عند آخر مخيم » .
وصاح الرجل :
« هل هو ميت ؟ »
« نعم ميت » .
وهز هنري كتفه يخلصها من قبضة سائله وقال
« دعني وشأني .. فأنا متعب .. طاب مساؤكم جميعاً » .
واغمض عينيه . وهوت ذقنه على صدره .. وعندما مددوه على
الاعطية ارتفع صوت شخيره في الهواء البارد .
ولكن كان هناك صوت آخر . وكان الصوت نائياً وضعيفاً في
الفضاء البعيد . كان صوت عواء قطيع الذئاب الجائعة وهي تتبع أثر
لحم آخر غير الرجل الذي فقدته لتوها .

الجزء الثانى

الفصل الأول معركة الأنيا ب

كانت الذئبة أول من التقط صدى أصوات الرجال وعواء كلاب الزحافات فقفزت مبتعدة عن الرجل وهو فى مركزه الحرج وسط حلقة اللهب المحتضر ولم يكن القطيع راغبا فى التخلي عن الصيد بعد أن طاردوه طويلا وتلكأ عدة دقائق يستوثق من حقيقة وجود هذه الاصوات وأخيرا ركض القطيع فى أثر الذئبة .

وبدا فى مقدمة القطيع ذئب ضخم ، هو واحد من عدة زعماء ، لكنه هو الذى يوجه سير القطيع فى أعقاب الذئبة فيكشر عن أنيا بة محذرا صغار الذئاب ويهم بها بأنيا بة عندما يدفعها الطموح الى محاولة تجاوزه ، وهو الذى يزيد السرعة عندما يرى الذئبة تخطو فوق الجليد .

وتمهلت الذئبة حتى أصبح محاذيا لها كما لو كان هذا هو موقفها المقرر ومضت بالسرعة التى يمضى بها القطيع ولم يكن يكشر لها عن أنيا بة عندما تدفعها احدى وثباتها الى وضع تتقدمه فيه بل يبدو عليه انه شديد الرفق بها والرضا بأن يتبعها لانه يميل الى العدو بالقرب منها ولكنه اذا ازداد قربا منها كشرت له عن أنيا بة وأحيانا تلمس كتفه بأنيا بة فى حدة ولا يغضب بل يشب جانباً عدة وثبات وهو يشبه فى سلوكه عاشقا ريفيا خجولا .

هذه هى مشكلته الوحيدة فى قيادة القطيع أما هى فلها مشاكل أخرى اذ يجرى بجانبها من الناحية الأخرى ذئب هزيل عجوز أشيب بغرائه عدة آثار التحام جروح أصابته فى معارك عديدة فى الماضى . وهو يجرى دائما الى يمينها وربما يرجع ذلك الى أنه ذو عين واحدة هى العين اليسرى . وهو بدوره مدمن مزاحمتها والميل نحوها حتى يلمس أنفه جسدها أو كتفها أو فتصد هى هذا التقرب بأسنانها كما تفعل مع رفيقها الذى يجرى الى يسارها فإذا غازلها الذئبان فى وقت واحد وجدت فى هذه المزاحمة الخشنة ما يكرهها على الهجوم

هجمات سريعة يمتدة ويسرة لابعاد العاشقين عنها والابقاء في نفس الوقت على معدل ركضها مع القطيع ورؤية الطريق أمامها . وفي مثل هذه الاوقات يكشر صاحبها عن أنيابها ويضرب كلاً من في الاخر وقد يشتبكان في قتال ولكن حتى المفاصلة وما تثيره من مزاحمة يجب أن تنتظر حتى يتم اشباع الحاجة الملحة الى الطعام .

وبعد أن يتلقى الذئب العجوز مثل هذا الصدم يتعده فجأة عن الذئبة المحبوبة وأنيابها الحادة فتصطدم كتفه بكتف الذئب الشاب الذي يبلغ من العمر ثلاثة أعوام ويجرى بجواره الى يمينه الذي فيه عينه العمياء . وهذا الذئب الشاب مكتمل الحجم وإذا هو قورن ببقية أعضاء القطيع الذين يغلب عليهم الضعف والجوع لاتضح انه يتصف بالقدرة والحيوية وبالرغم من ذلك فإنه يجري ورأسه في محاذة كتف رفيقه الاكبر سناً . وإذا هو غامر فسبق الذئب العجوز وهو أمر نادر الحدوث كان كافياً أن يكشر له هذا عن أنيابه ليرتد الى مكانه في محاذة كتف الذئب العجوز . وهو أحياناً يتراجع في حذر الى الورا متخذاً مكانه بين الذئبة والذئب العجوز فيجد لهذا العمل استنكاراً مزدوجاً بل قد يشترك في الاستنكار الذئب الزعيم . وعندما تكشر الذئبة عن أنيابها معبرة بذلك عن عدم رضاها يدور الذئب العجوز على الذئب الذي يبلغ من العمر ثلاثة أعوام وأحياناً تدور هي معه وأحياناً يشاركهما الزعيم الشاب الذي الى اليسار هذا الدوران .

وفي مواجهة هذه المجموعات الثلاث من الانياب المتوحشة يتوقف الذئب الصغير على الفور ويلقى بثقله على مؤخرته بعد أن يثبت قائمته الاماميتين ويبرز فمه مهدداً وقد انتصب شعر مؤخرة عنقه . ويحدث هذا الارتباك في مقدمة القطيع المتحرك دائماً ارتباكاً في المؤخرة اذ تصطدم الذئب التي وراء الذئب الشاب وتعبر عن استيائها بعضه في ساقيه الخلفيتين وفي جنبه بأنيابها الحادة وبهذا يسبب المتاعب لنفسه لانه من شأن نقص الطعام أن يجعل بالضيق والتبرم ولكنه يدافع من ايمانه بشبابه ذلك الايمان غير المحلود بالضيق يظل يكره هذه المناورة من حين لآخر بالرغم من انه لم ينجح أبداً في كسب شيء له سوى القهر والغم .

ولو توافر الغذاء لكان المجال كبيراً للعشق والقتال في مكان فسيح كهذا ولا نفرط عقد القطيع . ولكن موقف القطيع كان موقف القنوط فالذئب نحيف جائع منذ وقت طويل ولهذا فهو يجري بسرعة دون سرعته العادية . وفي المؤخرة يعرج الضعاف من أعضاء القطيع الصغار

المعنين في الصغر والكبار المعنين في الكبر تاركين المقدمة للقوياء ومع ذلك فالكل أقرب الى الهياكل العظمية منهم الى الذئاب المتلثة الاجسام وبالرغم من كل ذلك فباستثناء من يرجون كانوا جميعا يمشون دون بذل جهد أو معاناة تعب . ويدت عضلات الذئاب المعتدلة حافلة بالطاقة التي لا تنضب فورا كل تقلص عضلة هي أشبه شيء بالحديد الصلب تقلص عضلة أخرى لا تقل عنها متانة فعضلة ثالثة فرابعة الى مالا نهاية له .

وقطعت الذئاب عدة أميال يوميا وهي تعود ليلا حتى اذا طلع النهار التالى وجدها مستمرة في عدوها . وكانت تعدو فوق سطح عالم ميت متجمد لا حركة فيه ولا حياة ، فكانت وحدها هي التي تتحرك في ذلك الخمول الفسيح الارجاء . وكانت وحدها التي تطفر حيوية في بحثها عن أشياء حية أخرى لكي تقتربها وتستمر في الحياة .

وعبرت الذئاب المنحدرات المنخفضة والغدران الصغيرة ثم صادفت آيلا ضخما فيه لحم وفيه حياة ولم يكن في حراسة نيران غامضة أو قذائف نارية . وكانت الذئاب تعرف الحوافر المفرطة والغزلان الصغيرة فتخلت عن صبرها المعتاد وحذرها المهود . وكان قتالا قصيرا ووحشيا اذ احاطت الذئاب بالآيل من كل جانب ونطحها بقرنيه وفتح بطون بعضها وهشم جماجم بعضها الآخر وهو يركلها بحوافره القوية حتى غرسها في الجليد أثناء القتال الذي سادته التمرغ على الارض ولكن مصير الآيل كان محتوما من قبل اذ هوى على الارض بعد أن نهشت الذئبة حلقه وغرست في جسمه أنياب ذئاب أخرى تلتهمه حيا قبل أن يكف عن النضال أو ينتهي أمره .

وكان فيه غذاء وفير . اذ كان يزن أكثر من ثمانمائة رطل نال منها كل فم عشرين رطلا كاملا من اللحم وكان عدد أفراد القطيع عشرين ذئبا . وكما تستطيع الذئاب الصيام طويلا فهي كذلك تستطيع الالتهام كثيرا ، ولم تمض لحظات حتى لم يعد متبقيا من الآيل سوى بضعة عظام متناثرة .

وتوافر الآن كثير من الراحة والنوم وبعد أن امتلأت البطون بدأ النزاع والمشاغبة بين صفار الذكور من الذئاب واستمر هذا طول الايام القليلة التالية قبل انقراط عقد القطيع . وانتهت المجاعة الى أن حلت الذئاب بأرض فيها صيد وفير ، وبالرغم من اشتراكها جميعا في الصيد

معا فانها اخذت تصيد بحذر أكبر تتخير اناث الايائل البدينة او ذكورها الكسيحة التي تقدمت بها السن .

وجاء يوم انقسم فيه قطيع الذئاب في ارض الصيد الوفير هذه ومضى كل فريق في اتجاه مخالف للاتجاه الذي مضى فيه الفريق الاخر وقادت الذئبة والذئب الزعيم الشاب عن يسارها والذئب العجوز ذو العين الواحدة عن يمينها أحد الفريقين نحو نهر ماكنزى وعبروا مجراه الى اقليم البحيرات شرقا وتناقص هذا الفريق كل يوم اثنين اثنين ذكر وانثى يتخلفان عن الفريق والانفراط منه . واحيانا يتخلف ذئب ذكر بلا أنثى بعد أن تطرده أنياب مزاحميه ، وفي اخر الامر لم يبق سوى أربعة ذئاب هي الذئبة والزعيم الشاب وذو العين الواحدة والذئب الصغير الطموح الذي بلغ العام الثالث من عمره .

وازدادت الذئبة وحشية وتركت أنيابها أثارها في جلود خاطبيها الثلاثة جميعهم ومع ذلك فلم يقتص واحد من هذه الذكور منها ولم يدفع عن نفسه هجماتها . بل كانوا جميعا يديرون لها اكتافهم لتغرس فيها أنيابها بوحشية ويعملون على تهدئتها واسترضائها بهز ذيولهم وتخطرهم في مشييتهم ، وبالرغم من اعتدال مزاجهم ازاءها فانهم الوحشية المجسمة ازاء بعضهم مع البعض الآخر . وزاد طموح الذئب الصغير ذى الاعوام الثلاثة في وحشيته وأمسك اذن الذئب الكبير ذى العين الواحدة بأنيابه وقطعها شرائح . وبالرغم من أن الذئب الصغير وهو يقضم اذنه التي في ناحية عينه المفقودة وبالرغم من شباب ذلك الذئب الصغير وقوته فإنه استخدم حكمة تجارب الاعوام الطويلة ، وكان ضياع عينه والجروح التي في أنفه برهان طبيعة تجاربه . لقد اجتاز عدة معارك فلم يضيع أية لحظة شك فيما يجب عليه أن يعمل .

وبدأت المعركة بداية عادلة ولكنها لم تنته نهاية عادلة ، ولم يكن هناك ما يدل على النتيجة لولا أن انضم الزعيم الشاب الى الزعيم العجوز في مهاجمة الذئب الصغير الطموح وعملا معا على القضاء عليه وهاجماه كلاهما من ناحية بأنياب لا تعرف الرحمة ونسى الزعيمان الايام التي ذهبوا فيها جميعا للصيد معا واشتركوا فيها جميعا في ايقاع الفريسة معا والمجاعة التي عانوها معا واصبح هذا أثرا من آثار الماضي . أما المسألة الان فهي مسألة الحب وهي مسألة أكثر جدية وقسوة من مسألة الحصول على الغذاء .

وفي أثناء ذلك جلست الذئبة التي هي سبب كل ذلك على مؤخرتها ترقب ما يحدث في سرور فهذا اليوم يومها - ولم يحدث كثيرا أن

نفش ذئب شعره أو أن قرع نايه يناب آخر أو غرس نايه فى لحم ذئب آخر ومزقه فى سبيل الحصول عليها .

وفى معركة الحب هذه التى خاضها الذئب الصغير ذو الاعوام الثلاثة من عمره لأول مرة خسر حياته ووقف المتزاحمان بجانبى جثته وكلاهما يحدق النظر فى الذئبة وهى جالسة على الجليد تبسم . ولكن الذئب العجوز كان حكيما وحكيما جدا سواء فى الحب أم فى القتال . وأدار الزعيم الشاب رأسه ليلقى جرحا بكتفه فانكشف عنقه لمزاحمه الذى رأى بعينه الواحدة هذه الفرصة فاندفع بأنيايه وغرسها فى عنق مزاحمه وانتزع منه اللحم وقطعه قطعا عميقا وقد استغرق فى ذلك وقتا طويلا . وقطعت أنيايه الوريد فى عنق غريمه . ثم قفز الى الوراء مبتعدا عنه .

وعوى الزعيم الشاب عواء رهيبا ولكن عواءه قطعه السعال . وظل عنقه ينزف دما وفمه يسعل وقفز على غريمه بيتما الحياة تتمسك منه شيئا فشينا وضعفت سيقانه عن حمله وأظلم ضوء النهار فى عينيه وقصرت ضرباته وقفزاته شيئا فشينا .

وفى أثناء ذلك ظلت الذئبة جالسة على مؤخرتها وهى تبسم . لقد سرتها المعركة من عدة نواح غامضة لان هكذا يكون العشيق فى البرارى وهكذا تكون مأساة الجنس فى عالم الطبيعة انها مأساة للذى يموت فحسب أما بالنسبة لمن يبقى فهى ليست مأساة بل تحقيق وانتصار .

وعندما رقد الزعيم الشاب على الجليد وتوقف عن الحركة مضى ذو العين الواحدة نحو الذئبة وكان سلوكه سلوك المنتصر الحذر يتوقع الصد ولكم كانت دهشته اذ لم تبرز له أنياؤها غضبا بل لقد استقبلته لأول مرة فى رفق وتشممت أنفه كما تشمم أنفها وأخذت تلعب معه وتقفز معه وكأنهما جروان صغيران . وكان سلوكه رغم شسيخوخته وحكمته وتجاربه سلوك جرو صغير بل اكثر حماقة .

ونسى الاثنان المزاحمين المهزومين وكتبت قصة الحب بالدماء على الجليد ، نسيا كل هذا الا فى لحظة توقف فيها ذو العين الواحدة ليلقى جراحه المتجمدة . وفى تلك اللحظة زمجر ذو العين الواحدة وانتصب شعر عنقه وكتفيه عن غير قصد وعندما قبع ليقفز تشمجت مخالبه فوق الجليد وهى تحاول تثبيت وقفتها . ولكنه نسى كل شيء عندما ركض وراء الذئبة التى كانت تسبقه فى اغراء نحو مطاردة فى الغابات .

وبعد ذلك اخذا يعدوان جنباً الى جنب كصديقين حميمين تفاهيا
معا وممرت الايام وحافظا على المعاشرة يصيدان معا ويقتلان معا وياكلان
معا . وبعد أن انقضى وقت أحست الذئبة بالقلق وبدا عليها انها تبحث
عن شيء لا تستطيع العثور عليه وبدأت التجاوبف تحت الاشجار
الساقطة تجذبها وأخذت تقضى وقتاً طويلاً فى التشمم عند شقوق
الصخور الكبيرة التى يتكوى الثلج فوقها وعند الكهف فى الشواطىء
العالية . ولم يكن ذو العين الواحدة مهتما بشيء من ذلك ولكنه كان
يتبعها راضياً فى بحثها ، وعندما يطول بحثها فى أماكن معينة بصورة
غير عادية يرقد وينتظر حتى تستعد للذهاب .

ولم يمكنها فى مكان واحد بل استمرا ينتقلان عبر البلاد حتى عادا
الى نهر ماكنزى وعبراه فى بطن ومضيا يصيدان طعامهما عند الفدران
الصغيرة التى تصب ماءها فى النهر ثم يعودان الى النهر . وكأنا
يلتقيان أحياناً بذئاب أخرى كانت أزواجا أزواجا ولكن لم يكن هناك
أى مظهر من مظاهر الود أو الرضا عن مثل هذا اللقاء كما لم تكن هناك
رغبة فى العودة الى حياة القطيع . والتقىا عدة مرات بذئاب منفردة هى
دائماً من الذكور التى تصر على الانضمام الى ذى العين الواحدة وانشاء .
ولكنه كان يشمئز من هذا وينفر منه . وعندما تقف الذئبة معه كتفا
الى كتف وتكشف له عن أنيابها يتراجع الذكر المؤمل ويدير ذيله
ويمضى فى طريق عزلته .

وفى ذات ليلة مقمرة كانا يجريان فى غابة هادئة اذ توقف ذو العين
الواحدة فجأة ورفع أنفه فى الهواء وتصلب ذنبه واهتزت خياشيمه
وهو يتشمم الهواء محاولاً فهم الرسالة التى حملها اليه الهواء . أما
الذئبة فقد اكتفت بتشمم الهواء مرة واحدة وأخذت تعدو مطمئنة
وبالرغم من أنه تبعها فإنه ظل متشككا ولم يستطع الامتناع عن التوقف
من وقت لآخر لبحث هذا النذير بعناية أكبر .

وزحفت الذئبة فى حذر على حافة مكان مكشوف فسيح بين
الاشجار وقضت بعض الوقت واقفة وحدها وعندئذ لحق بها ذو العين
الواحدة وهو يزحف فى اصرار وقد تنبعت حواسه كلها وانتصب
شعره وتذبذبت كل شعرة منه تذبذب الشك الذى لا ينتهى . ووقفا
جنباً الى جنب يرقبان وينصتان ويتشممان .

واستثيرت الذئبة بصورة غريبة وتشممت الهواء وزادت التشمم
بايتهاج متزايد ولكن ذا العين الواحدة ساوره الشك وكشف عن خوفه
واخذ يستعد للذهاب . واستدارت هى ولمست عنقه بفمها بصورة

مطمئنة ثم نظرت ثانية الى المخيم . وبدأت الرغبة مرتسمة على وجهها ولكنها لم تكن رغبة الجوع بل كانت رغبة أخرى حفزتها على المضى قدما لتكون على كتب من النار ولتتشاجر مع الكلاب متحاشية تشر أقدام الرجال بها .

ومضى ذو العين الواحدة بجوارها فى قلق وسرى قلقه منه اليها . وعرفت ثانية حاجتها الماسة الى العثور على الشيء الذى تبحث عنه واستدارت وعادت تركض الى داخل الغابة مما دفع ذا العين الواحدة الى شعور كبير بالراحة وسبق رفيقته بركضه حتى أصبحا فى مأمن تحت الاشجار .

وبينما كانا ينزلقان بلا صوت وكأنهما ظلان يتحركان فى ضوء القمر عثرا على اثار شيء هارب ومال أنفاهما على الاثار التى كانت حديثة وسبق ذو العين الواحدة فى حذر رفيقته وهى فى أعقابها . وبسطا مخالبهما . وشاهد ذو العين الواحدة حركة غامضة لشكل أبيض ظاهر وسط بياض الثلج وأسرع بالجري .

وأخذا يجريان فى الدرب الضيق الذى احاطت به من الجسائين شجيرات التنوب الفضى الصغيرة . وكان من الممكن رؤية اخر الدرب من خلال الاشجار وضوء القمر يغمره . وضافت المسافة بين ذى العين الواحدة والشكل الابيض الهارب أمامه . ها هو الان على كتب منه ووثبة أخرى ويغرس اسنانه فيه . ولكنه لم يقم بهذه الوثبة فقد ارتفع ذلك الشكل الابيض عاليا جدا فى الهواء وكان أرنبا أبيض وهبط على الارض ثم قفز عاليا فى الهواء مرة أخرى .

وتراجع ذو العين الواحدة بقفزة الى الوراء فى خوف مفاجيء ثم انكمش على الارض وقبح مكشرا عن أنيابه وزمجر مهددا ذلك الارنب الذى اثار فيه خوفا لا يفهمه ولكن الذئبة تجاوزته ومضت تنم الصيد وتوقفت لحظة ثم قفزت فى الهواء تلحق بالارنب الراقص وهو فى الهواء ولكنها لم تبلغ فى ارتفاعها ما بلغه الارنب وأطبقت فكيتها فى فرقة معدنية وقفزت قفزة أخرى فثالثة .

واسترخى رفيقها فى جلسته وأخذ يرقبها . وأعرب عن عدم رضاه عن فشلها المتكرر بأن قام هو بالتجربة وقام بقفزة كبيرة وأطبق فكيه على الارنب المتكور وعاد به الى الارض ولكن كانت هناك حركة فرقة مثيرة للشك ورأى فى دهشة غصنا رطبا من أغصان شجرة التنوب الفضى وقد مال فوقه ليضربه فأخلى فكيه عن الارنب وكشر عن

أنيابه ونفث شعره في هياج الخائف وفي تلك اللحظة اعتدل غصن
 الشجرة الرطب وعاد الارنب يرقص في الهواء ثانية .
 وغضبت الذئبة وغرست أنيابها في كتف رفيقها مؤنبة وخاف
 ولم يدر سبب هذا الهجوم الجديد فهجم على الذئبة هائجا وانتزع
 بأنياجه جزءا من أنفها وهو في خوف أكبر . ولم تكن تنتظر منه أن
 يستأنه من مثل تأنيبها هذا ولهذا هاجمته غاضبة مزمجرة مكشرة عن
 أنيابها . وعندئذ أدرك غلظته وحاول تهدئتها ولكنها استمرت في
 تأديبه حتى كف عن جميع محاولات التهدة وأخذ يدور في دائرة وهو
 يبعد عنها وجهه معرضا كتفيه ليتلقى عقابها بأسنانها .
 وفي نفس الوقت ظل الارنب يرقص فوقهما . وجلست الذئبة
 على الجليد وعاد ذو العين الواحدة الى الوئب نحو الارنب وهو الآن أشد
 خوفا من رفيقته من غصن الشجرة الغامض . واذ عاد بالارنب بين
 أسنانه ظل موجها نظراته الى غصن الشجرة الذي تبعه كما فعل في
 المرة السابقة وظل قابعا على الارض مترقبا ضربة الغصن القادمة له
 وقد وقف شعره الا أن أنيابه ظلت مطبقة على الارنب . ولم يصل
 الغصن المهتز اليه وان بقي منحنيا فوقه . وعندما تحرك الذئب تحرك
 الغصن معه وزمجر بين فكيه المطبقين على الارنب وبقي ساكنا وظل
 الغصن ساكنا لا يتحرك وخرج الذئب من هذا بأن الاسلام له أن يظل
 ساكنا . ومع ذلك فقد كان لدم الارنب الدافئ مذاق ممتع في فمه .
 وخلصته انثاء من الورطة التي كان فيها بأن أخذت الارنب منه .
 وظل الغصن يتأرجح فوقها مهددا بينما انتزعت هي بأنيابها رأس
 الارنب من جسده بهدوء . وارتفع الغصن الى فوق على الفور ولم يعد
 مصدر ازعاج لهما اذ احتفظ بالوضع الذي أرادته الطبيعة له وعندئذ
 أقبل الذئبان على التهام الارنب الذي صاداه ذلك الغصن لهما .
 وكانت هناك ممرات ودروب أخرى تتراقص فيها الارانب على
 الاغصان المتحركة المرنة والذئبان يتصيدانها الذئبة تقود صاحبها
 وهذا يمضي في أعقابها مراقبا متعلما طريقة السلب والنهب ، وصارت
 هذه المعرفة سندا له في الايام المقبلة .

الفصل الثانى العشرين

وظلت الذئبة والذئب ذو العين الواحدة قريبين من المخيم الهندى . وكان المخيم مزعجا ومخيفا للذئب ولكنه ظل مغريا لرفيقتته قسم تعد راغبة فى الرحيل . ولكن عندما ملأت أصوات طلقات البنادق الهواء عن قرب ذات صباح واصطدمت رصاصة بجذع شجرة على بعد بضعة بوصات من رأس ذى العين الواحدة لم يترددا فى وجوب الرحيل ، مضيا بعيدا وهما يتخطران فقطعا عدة أميال أبعدتهما عن مصدر الخطر ولم يبتعدا كثيرا - اذ لم يقطعا أكثر من مسيرة يومين . وأصبحت حاجة الذئبة الى العنصور على الشئ الذى تبحث عنه الآن ماسة جدا . واصبحت ثقيلة جدا ولم تعد قادرة على العدو السريع . وفى ذات مرة طاردت أرنا وكان من الممكن فى الظروف العادية أن تمسكه بسهولة ولكنها كفت عن الاستمرار فى المطاردة ورقدت لتستريح وجاء إليها ذو العين الواحدة ولكن عندما لمس عنقها بأنفه فى رفق كشرت له عن أنيابها بوحشية سريعة جعلته يتعثر فى تراجعته الى الوراء بصورة مضحكة هربا من أنيابها . وأصبحت الآن سريعة الغضب على نحو لم تكن عليه من قبل ولكنه أصبح أكثر صبرا وقلقا .

ثم وجدت الشئ الذى تبحث عنه وكان على بعد بضعة أميال بالقرب من غدير صغير يصب ماءه خلال اشهر الصيف فى نهر ماكنزى . ولكن الغدير كان وقتئذ متجمدا ابتداء من مصبه فى النهر حتى منبعه فى الجبل . كان غديرا ميتا جامدا أبيض . وركضت الذئبة وهى متعبة ورفيقها يسبقها حتى وصلا الى شاطئ مغلق من الطمي والتفتت جانبا ومضت نحوه وكانت عواصف الربيع وذوبان الثلوج قد غسلت ما تحت الشاطئ وجعلت فى مكان منه كهفا صغيرا ضيق المدخل .

ووقفت عند فوهة الكهف ونظرت الى جوانبه بعناية ثم سارت بجوار جانب الكهف وجرت بجوار الجانب الآخر على طول قاعدة الكهف . واخيرا عادت الى الفوهة الضيقة ودخلت منها وقد أحنت رأسها وثنت قائمتيها الاماميتين اذ لم يزد ارتفاع الفوهة عن ثلاثة اقدام . وبعد أن

اجتازتها وجدت داخل الكهف أكثر اتساعا واستدارة حتى بلغ قدرها ستة أقدام . وكان الكهف جافا ومريحا . وفشتته بعناية بينما وقف ذو العين الواحدة عند المدخل يرقبها في صبر . ومالت برأسها على الأرض ومضت نحو نقطة قريبة من ساقبها الخلفيتين المتلاصقتين وأخذت تدور حول هذه النقطة عدة مرات ثم تنهدت من أثر التعب ورقدت على الأرض موجهة رأسها نحو مدخل الكهف . وضحك ذو العين الواحدة ورفع أذنيه في اهتمام ورأت هي ذيله يهتز في طيبة . ومالت أذناها هي إلى الوراء في راحة ودعة وفتحت فمها وتدل لسانها في راحة وبهذه الطريقة أعربت عن رضاها .

وكان ذو العين الواحدة جائعا . وبالرغم من أنه رقد عند المدخل ونام فإن نومه كان متقطعا . وظل متيقظا وقد نصب أذنيه ناحية العالم المتألق في الخارج حيث كانت شمس إبريل متألقة على الجليد حتى إذا غلبه النعاس ظلت أذناه منتبهتين تلتقطان صوت رقرقة الماء الجارى في النهر فنهض وأنصت بانتباه . وعادت الشمس . وكان عالم الشمال كله يناديها ودبت الحياة في تلك المنطقة . وكانت روح الربيع مهمنة على الجو والاحساس بالحياة النامية تحت الجليد ورحيق النباتات يصعد من الأرض في جذوعها والبراعم تنفخ الثلج عن أكمامها .

ونظر الى رفيقته نظرات قلق . ولكنها لم تظهر أية رغبة في النهوض ونظر الى الخارج وحلقت بعض طيور الجليد . وبدأ النهوض ثم عاد ينظر الى رفيقته وقبع ثانية وراح في نعاس . وعندئذ سمع طينا دقيقا . ومسح أنفه بكفه مرة فثانية فثالثة وهو ناعس ثم استيقظ فوجد بعوضة تطن في الهواء أمام أنفه . وكانت بعوضة كاملة النمو . بعوضة ظلت راقدة متجمدة طول فصل الشتاء فوق كتلة خشبية جافة واذابت الشمس منها جمودها . ولم يعد مستطيعا مقاومة نداء العالم . وفضلا عن ذلك كان جائعا .

وزحف داخلا الكهف نحو رفيقته وحاول اقناعها بالنهوض ولكنها لم تفعل أكثر من أن كشرت له عن أنيابها فخرج وحيدا الى اشعة الشمس المشرقة ووجد السطح الجليدى قد لان تحت أقدامه والسير فوقه صعبا . وغاب ثماني ساعات وعاد في الظلام وهو اشد جوعا منه عندما بدأ رحلته . وجد صيدا ولكنه لم يمسكه اذ أنه كسر بثقله قشرة الجليد التى تغطي الماء فغاص في الماء بينما استطاعت الارانب بخفتها المضى فوق تلك القشرة كشأنها دائما .

ووقف عند فوهة الكهف وقد ساوره شك مفاجيء . سمع من داخل الكهف اصواتا غريبة خافتة . ولم تكن هذه الاصوات صادرة من رفيقته ومع ذلك فهي اصوات مألوفة من بعيد . وزحف على بطنه داخل الكهف على حذر وقابلته زمجرة محذرة من الذئبة وازعجه هذا لانه وان كان قد اطاع امرها بالبقاء حيث هو على بعد منها الا أنه ظل مهتما بالاصوات الاخرى الخافتة المكتومة .

وابعدته الذئبة الى خارج الكهف فطوى جسمه ونام عند المدخل وعندما جاء الصباح وتسلسل الضوء الخافت الى داخل العرين حاول معرفة مصدر تلك الاصوات المألوفة من بعيد . وكانت في زمجرة الذئبة نفمة جديدة . انها نفمة الغيرة فراعى في دقة أن يكون بعيدا . وبالرغم من ذلك فانه ميز خمسة اكياس صغيرة من الحياة غاية في الضعف قد اتخذت مأوى لها بين سيقان الذئبة وهي تصدر نهنهة خافتة ولها عين مغمضة لا ترى الضياء دهش . لم تكن هذه هي المرة الاولى في حياته الطويلة الناجحة التي يحدث فيها مثل هذا الشيء بل حدث عدة مرات من قبل ومع ذلك كانت له في كل مرة جدته وفي كل مرة آثار دهشته .

ونظرت رفيقته اليه في قلق وأخذت تزمر زمجرة خافتة من لحظة لآخرى . وبدأ لها أحيانا أنه اقترب منها أكثر مما يجب فارتفع صوت زمجرتها وازداد حدة . وهي لا تذكر حدوث شيء من هذا في ماضيها فتجربتها خالية تماما من مثل هذا الشيء ولكنها في ضوء غريزتها التي هي ثمرة تجارب كل امهات الذئاب تذكر آباء عديدين أكلوا صغارهم الضعاف ولقد اثارت الغريزة في أعماقها خوفا شديدا دفعها الى منع ذي العين الواحدة من الاقتراب منها ورؤية صغاره .

ولكن لم يكن هناك خطر فان ذا العين الواحدة كان مدفوعا الى رؤية صغاره بغريزة ورثها عن آباءه الذئاب ، وهو لم يناقش هذه الغريزة ولم يشغل نفسه بها اذ هي موجودة في السجبة ومن الطبيعي جدا أن يطعمها وأن يدير ظهره لاسرته الحديثة وأن يعدو بعيدا في طريق الصيد الذي يمشي عليه .

وعلى بعد خمسة أميال أو ستة من العرين تفرع الغدير عدة فروع بين الجبال بزوايا قائمة ومضى على الفرع الايسر حتى رأى أثرا جديدا وتشممه ووجد أنه حديث جدا فقبع على الجليد بسرعة ونظر في الناحية التي اختفى فيها ثم استدار وسار متتبعا الفرع الايمن . وكانت آثار

الاقدام اكبر من آثار اقدمه فعرف أن لا أمل له في الحصول على أى صيد فى أعقاب مثل هذا الاثر .

وبعد أن قطع نصف ميل على طول الفرع الايمن التقطت اذناه صوت اسنان تقضم الخشب فمضى فى أثر الصيد ووجد هذا الصيد فاذا هو قنفذ كبير الحجم واقف على ساقيه الخلفيتين مستند الى شجرة يقضم لحاءها بأسنانه . واقترب الذئب ذو العين الواحدة بحذر ولكن بلا أمل . ذلك أنه كان يعرف هذا النوع من الصيد وان لم يسبق أن التقى به من قبل فى هذا الاقليم الشمالى كما أنه لم يسبق له أن اتخذ منه طعاما له . ولكنه كان يعرف على ضوء خبرته الطويلة أن هناك شيئا اسمه الحظ . واستمر فى الدنو من الفريسة ولم يكن هناك أى دليل على ما عساه قد يحدث لان ما يقع من الاحداث يختلف دائما عما يتوقع له .

وتكرر القنفذ حول نفسه ونشر اشواكه الحادة فى كل اتجاه متحديا بذلك أى هجوم من أية ناحية . وكان ذو العين الواحدة فى شبابه قد اقترب ذات مرة من كرة ساكنه كهذه ذات اشواك واندفع من تلك الكرة ذيل شائك فى وجهه وغرست احدى اشواك ذلك الذيل فى أنفه ومضى بها وهي فى أنفه وظلت عدة اسابيع وهي تؤله ألما شديدا حتى سقطت وحدها . ولهذا ظل راقدا فى وضع مريح وأنفه على بعد قدم واحدة من القنفذ ولكنه بعيد عن خط الذيل وظل هكذا منتظرا محتفظا بهدوئه التام . من يدري فقد يحدث شيء ما . كان ينبسط القنفذ فتكون هناك فرصة لان يغرس مخلبه بمهارة فى بطن القنفذ الناعمة الرقيقة .

وبعد انقضاء نصف ساعة نهض وزمجر غاضبا على الكرة الساكنة ومضى . وقد حدث كثيرا من قبل أن انتظر طويلا بلا جدوى . وعلى ضوء هذه التجارب عرف أنه لا جدوى فى الانتظار ومضى على الطريق الايمن . وطال به النهار ولم يأت صيده بنتيجة .

وكان دافع غريزة الابوة فيه قويا ولا بد أن يجد لحما . وحدث بعد الظهر أن وقع على طائر القطا بعد أن خرج من أكمة كثيفة . وكان الطائر البطيء الفهم واقفا على كتلة من الخشب على بعد قدم واحدة من أنف الذئب . ورأى كلاهما الآخر . وحاول الطائر أن يطير ولكن الذئب ضربه بمخلبه وأوقعه على الارض ثم قفز عليه وأمسكه بأسنانه حين تحرك محاولا النهوض ثانية . ولما غاصت أنيابه فى لحم الطائر وعظمه

الرقيقى بدا يأكله طبعاً ولكنه تذكر فاستدار عائدا ادراجة نحو عرينه حاملا طائر القطا بين اسنانه .

وبعد أن قطع مسافة ميل وهو يمضي بأقدامه بخفة كعادته كظل ينزلق على الجليد مترقبا أى أثر جديد تقع عينه عليه ورأى آثار الاقدام الكبيرة التى كان قد رآها فى الصباح المبكر تعقب الاثر مستعدا لمواجهة صاحبها عند كل نية من نيات الغدير .

وتسلل برأسه حول ركن صخرة حيث ينحدر الغدير انحناءة كبيرة بصورة غير عادية والتقطت عيناه السريعتان شيئا جعله يقبح بسرعة كان ذلك الشيء هو صاحب الاثر . ذلك الشيء هو أنثى الفهد . كانت قابضة أمام الكرة الشائكة فى نفس الوضع الذى كان هو فيه صباح ذلك اليوم . وان كان ظله ينزلق على الجليد من قبل فإنه أصبح الآن شبحا لهذا الظل فى زحفه ودورانه مع الريح حول الصخرة وأصبح فى موقف يرى منه الحيوانات الساكنتين الصيد والصائدة .

رقد على الجليد واضعا طائر القطا بجواره مطلا بعينه من خلال اشواك نبات التنبوب الفضى الصغير على أحد مظاهر الحياة أمامه فأنثى الفهد المنتظرة والقنفذ المنتظر كلاهما حريص على حياته وهذا هو موضع العجب فى تلك اللعبة . تقوم حياة أحد الحيوانات على أكل الآخر وتقوم حياة الآخر على النجاة بحياته من أن يأكله الاول . وبينما كان الذئب ذو العين الواحدة قابعا فى مخبئه يؤدى دوره هو الآخر ينتظر فرصة فريدة غريبة قد تساعده فى الحصول على صيد وهذه هى طريقته فى الحياة . وممر نصف ساعة ثم ساعة دون أن يحدث شيء . ولم تتحرك كرة الاشواك وكأنها حجر اصم وبدأت أنثى الفهد وكأنما قد تجمدت كتمثال من رخام وبدأ الذئب المعجوز ذو العين الواحدة كأنه ميت . ومع ذلك فقد ظلت الحيوانات الثلاثة شديدة الانتباه واليقظة وقد اشتد فيها توتر الحياة الذى بلغ حد الايلام . ولم يخطر لاحدها أن يكون أكثر حيوية فى أى وقت ما منه فى موقفه ذلك الذى يبدو فيه متحجرا .

وتحرك الذئب ذو العين الواحدة قليلا وأطل وحدد بصره فقد حدث شيء وقتئذ ذلك أن القنفذ الكبير قرر أخيرا أن عدوته قد ذهبت بعيدا عنه وأخذ يبسط كرة درعه الحصين فى بطنه وحذر ولم تختلج فيه أية جارحة من أثر ترقب . وانبسطلت كرة الشوك وطالت وأخذ الذئب ذو العين الواحدة يرقب ما يحدث بدقة ويقظة . وسال لعابه فجأة عن غير قصد وقد أثاره منظر اللحم الحى وهو ينتشر أمامه كوجبة غذائية تعد نفسها لكى يلتهمها .

ولم يتم القنفذ انبساطه تماما اذ اكتشف وجود عدوته • وفي تلك اللحظة وجهت أنثى الفهد ضربتها في سرعة البرق • وكانت مخالبيها الصلبة مثنية كأنها كلابيات قد انطلقت تحت البطن الرقيقة وعادت في حركة انتزاع سريعة • ولو أتم القنفذ بسط جسده أو لو أنه لم يكتشف عدوته قبيل الضربة في لحظة من ثانية قبل أن توجه إليه ضربتها لما أصاب قدم أنثى الفهد ضرر ولكن القنفذ وجه ذيله المدبب فجأة وبقوة الى داخل تلك القدم أثناء انسحابها •

وقد حدث كل هذا في وقت واحد - الضربة والضربة المضادة وصيحة الالم الصادرة من القنفذ وصيحة الالم الصادرة من أنثى الفهد التي ادهشها هجوم القنفذ • ونهض الذئب ذو العين الواحدة من أثر الانفعال ونصب أذنيه وانتصب ذيله وارتعش • وضافت أنثى الفهد بما حدث لها فقفزت في وحشية على ذلك الذي سبب لها كل هذا الالم • ولكن القنفذ ظل يصرخ ويزمجر وقد مزق بعض جسده وحاول أن يكور نفسه ثانية ليكفل حمايته وهو في خلال ذلك يضرب بذنبه أنثى الفهد مرة بعد أخرى فاخذت تعوى ألما ودهشة • وعندئذ أخذت تراجع وهي تعطس اذ امتلأ أنفها بأشواك القنفذ حتى أصبح كوسادة دبائيس وحكت أنفها بساقها محاولة اخراج الاشواك من جلد أنفها ووجهها ولما لم يجدها هذا نفعا حكّت أنفها في الجليد وفي النباتات القصيرة الصغيرة وفروع الاشجار وهي في خلال ذلك تثب علوا وسفلا ويمينا وشمالا في جنون الالم والخوف •

واستمرت تعطس بصفة متصلة وذيلها القصير يبذل قصارى جهده في التحرك العنيف القصير • وكفت عن حركاتها الجنونية وهدأت مدة طويلة • وأخذ الذئب ذو العين الواحدة يرقب ما يحدث ولم يستطع كبت فزعه بل ان شعر قفاه وظهره كله وقف منتصبا في الهواء بالرغم منه حين قفزت أنثى الفهد في الهواء وهي تعوى فجأة عواء طويلا رهيبا ثم مضت تعدو وهي تعوى مع كل وثبة تثبها •

ولم يتحرك الذئب ذو العين الواحدة من مكانه الا بعد أن ابتعد عواؤها واختفى تماما • ومشى برقة وحذر كما لو كان الجليد كله يغطى بالاشواك المنتصبة المستعدة لان تنفذ في كفه الناعمة • واستقبله القنفذ بصراخ هائج وصرير اسنان • وكان القنفذ قد استطاع أن يكون من نفسه كرة اشواك من جديد ولكن هذه الكرة لم تكن كاملة على النحو الذي كانت عليه من قبل اذ كانت عضلاته اضعف من أن تستطيع ذلك بعد أن انشطرت شطرين وأخذ الدم ينزف منها بغزارة •

وملا الذئب ذو العين الواحدة فمه بالجليد المخضب بالدم ومضغه وتذوقه وابتلعه وفتح هذا شهيته وزاد احساسه بالجوع زيادة كبيرة ولكنه كان قد تعلم خلال عمره الطويل من الحكمة ما يجعله لا يتخلى عن الحذر . وانتظر ورقد وانتظر والقنفذ يقرض أسنانه ويضمجر ويتأوه ويصرخ صرخات جادة بين آونة وأخرى . ولاحظ الذئب ذو العين الواحدة أن الاشواك تتساقط من جلد القنفذ الذى أخذ يرتعد ارتعادا شديدا وانتهت الرعدة فجأة وومضت اسنانه الطويلة فى تحد نهائى . وتجرد جلده من كل اشواكه واسترخى الجسد وخمدت حركته .

وبسط الذئب ذو العين الواحدة مخليه العصبى نحو القنفذ ومده على طول امتداده ثم قلبه على ظهره ولم يحدث شيء . كان ميتا من غير شك وفحصه بعناية مدة لحظة ثم قبض عليه بفكيه ومضى على طول الغدير وهو بين حامل للقنفذ وجار له مائلا برأسه جانبا معاذرا أن يدوس بأقدامه تلك الكتلة الشائكة ، وتذكر شيئا واسقط حملة على الارض ورجع عائدا الى حيث ترك طائر القطا ، ولم يتردد لحظة اذ كان يعرف كل المعرفة ما يجب عليه عمله فعمل ما يجب وذلك بأن التهم طائر القطا ثم عاد يحمل حملة .

وعندما جر ثمرة صيد يومه الى داخل الكهف فحصت الذئبة هذا الصيد ورفعت وجهها نحوه ولعقت عنقه بخفة . ولكنها فى اللحظة التالية ابعده عن صغارها بتكشيرها عن أنيابها ولكنه تكشير أقل عنفا منه فى المرات السابقة ويحمل من معنى الاعتذار أكثر مما يحمل من معنى التهديد . وكان خوفها الغريزى من والد جرائها قد خفت درجته اذ كان سلوكه هو السلوك الواجب من ذئب أب ولم يظهر أية رغبة خبيثة فى التهام الجراء الصغيرة التى جاءت بها الى الحياة .

الفصل الثالث

الجرو الأغبر

كان يخالف أخويه وأختيه فهؤلاء ورثوا عن أمهم أنثى الذئب ذلك اللون الاحمر فى أديمهم أما هو وحده فقد ورث عن أبيه اللون الاغبر كان وحده الجرو الاغبر فى ذلك المهده ، وكان صادقا مع تراث السلالة الذئبية وكان فى الواقع أصيلا صادقا فى انتسابه الى الذئب ذى العين الواحدة نفسه من الناحية البدنية باستثناء شيء واحد فحسب وهو أن له عينين بينما لأبيه عين واحدة .

ولم تكن عينا الجرو الاغبر مستطيلتين فى فتحتيهما ومع ذلك كان مستطيعا أن يرى بوضوح بل انه قبل أن يفتح عينيه كان يحس ويتذوق ويشم وعرف أخويه وأختيه معرفة تامة وبدأ يمرح معهم على نحو ضعيف غير متقن بل وبدأ يتشاجر معهم ويهتز حلقه مصدرا صوتا مجلجلا عميقا - هو مقدمة الزمجرة - عندما ينفعل وقبل أن يفتح عينيه بوقت طويل عرف عن طريق اللمس والتذوق والشم أن أمه ينبوع الدفء والطعام السائل والحنان وأن لها لسانا رقيقا وديعا مهدئا وهو يمر على جسده الصغير الناعم مما كان يدفعه الى الاقتراب منها حتى يلاصقها ويروح فى النعاس .

وقضى الشهر الأول من حياته على هذا النحو فى النوم . ولكنه الآن يستطيع أن يرى جيدا ويقضى مستيقظا فترات من الزمن اطول مما كان يقضيه مستيقظا من قبل وبدأ يتعلم عالمه جيدا . كان عالمه مكفهرًا ولكنه لم يعرف ذلك لانه لم يعرف عوالم أخرى حتى يقارنه بها . وكان عالمه معتم الضوء ولكن عينيه لم تلائما من قبل بين نفسيهما وأية اضاءة أخرى وكان عالمه صغيرا جدا حدوده هي جدران العرين ولكن لانه ليس لديه أية معرفة بالعالم الفسيح خارج العرين فإنه لم يشعر بأى ضيق ازاء ما يحد وجوده .

ولكنه كان قد تبين فعلا أن أحد جدران عالمه يختلف عن بقية الجدران ذلك الجدار هو مدخل الكهف ومصدر الضوء . وقد تبين هذا الاختلاف قبل أن تتكون لديه آراء خاصة به أو ارادة واعية . وقد أثار مدخل الكهف انتباهه بصورة قوية لا تقاوم قبل أن يفتح عينيه وينظر

اليه اذ كان الضوء الآتى منه يلمس جفنيه المغمضتين فكانت عيناه وأعصابه البصرية تنبض بتأثير ومضات صغيرة كأنها الشرر بلونها الدافئ وما تبعته من رضا غريب ، وإلى هذا الضوء هفت حياة جسده وكل ألياف هذا الجسد ، الحياة التي كانت مادة جسده وجزءا من حياته الشخصية كما كان هذا الضوء يجذب جسده نحوه على نفس النحو الذى تقوم به الكيمياء الباردة فى النبات لتدفع به نحو الشمس وكان يزحف دائما نحو مدخل الكهف فى البداية وقبل أن يطلع فجر حياته الواعية . وكان اخواه وأخته تحذو حذوه . ولم يحدث قط فى تلك الفترة أن زحف واحد من تلك الجراء نحو الأركان المظلمة فى الجزء الخلفى من الكهف . اذ كان الضوء يجذبها كما لو كانت نباتات . كانت كيمياء الحياة التى تدخل فى تكوينها تتطلب الضوء كاحدى ضروريات الكيان . وكانت اجسامها الصغيرة تزحف كيماثيا وبلا حاجة الى بصيرة وكأنها هى أطراف شجيرة العنب وبعد أن أخذ كل من هذه الجراء فى النمو منفصلا عن أخوته وأصبح يدرك شخصا الدوافع والرغبات زاد اجتذاب الضوء لها وأخذت تزحف وتمتد بصفة دائمة نحو الضوء حتى تصدها أمها عن مدخل الكهف .

وعلى هذا النحو تعلم الجرو الصغير الأغبر عن أمه اشياء أخرى غير لسانها الناعم المهدى وتبين أثناء اصراره على الزحف نحو الضوء أنفها الذى كانت تدفعه به مؤنبة اياه ثم اكتشف فيما بعد قدمها التى توقعه أرضا وتجعله يتدحرج عدة مرات وبهذا تعلم الألم وتعلم ضرورة تحاشي الألم وذلك بعدم الاقبال على المخاطرة بما يسببه أما اذا هو أقبل على المخاطرة فان عليه أن يتعد وأن يتفقه وهذه أعمال واعية جاءت نتيجة لاصداره أحكاما عامة على العالم . أما قبل ذلك فإنه كان ينكمش تلقائيا من الاذى كما كان يزحف تلقائيا نحو الضوء وبعد ذلك أخذ ينكمش من الاذى لأنه أصبح يعرف أنه أذى .

وكان جروا صغيرا عنيقا وهكذا شأن أخويه وأخته وهو أمر يجب توقعه ، وكان الى ذلك حيوانا من أكلة اللحوم اذ هو من سلالة أكلة اللحوم المفترسة وأبوه وأمه يعيشان على أكل اللحوم بل ان اللبن الذى ارتضعه صغيرا لبن محول مباشرة من اللحوم والآن وقد أتم شهرا من حياته وفتح عينيه منذ أسبوع تقريبا بدأ هو نفسه أكل اللحوم التى هضمها أمه نصف هضم ثم ردت الى الجراء الخمسة النامية بعد أن أجهدت أئدها بأرضاعها .

ولكنه كان فضلا عن ذلك اشد الجراء وحشية وزمجرته أعلى صوتا

من زمجرة أى جرو آخر من أخوته كما كان اسبقها الى تعلم دحرجة جرو آخر بضربه بكفه ضربة بارعة، وأسبقها الى امساك اذن جرو آخر وإيقاعه على الارض وجره وهو يزمر من خلال فكيه المطبقين بأحكام وهو الذى يسبب لأمه أكبر نصيب من الازعاج بمحاولتها إبقاءه بعيدا عن مدخل الكهف .

وزاد سحر الضوء للجرو الأغبر يوما بعد آخر . وكان دائم التقدم نحو مدخل الكهف مسافة ياردة فى مغامراته اليومية والتعرض للردع . ولم يكن يعرف أنه المدخل لأنه لا يعرف شيئا عن المداخل أو الممرات التى يمضى فيها الواحد من مكان الى آخر ولم يكن يعرف أى مكان آخر حتى يعرف طريقا يؤدى الى مكان آخر . وهكذا كان مدخل الكهف عنده جدارا - جدارا من ضوء . وكما كانت الشمس عند من يقيم خارج الكهف كان هذا الجدار عنده شمس عالمه فهو يجتذبه اجتذاب الشمعة للفراسة يحاول دائما أن يبلغه والحياة التى تتسع بين جوانحه بسرعة تدفعه باستمرار نحو الضوء والحياة بين جوانحه تعرف أن هذا هو المنفذ والطريق المحتوم اجتيازه ولكنه هو نفسه لم يعرف شيئا عن ذلك ولم يعرف أن فى الخارج شيئا قط .

وفى جدار الضوء هذا شئ غريب فابوه « فقد عرف أباه على أنه الشريك الآخر فى عالمه وهو مخلوق كأمه ينام قريبا من الضوء وهو الذى يأتى باللحم » يمشى قدما داخل جدار الضوء ويختفى فيه . ولم يستطيع الجرو الأغبر أن يفهم سر هذا ، وبالرغم من أن أمه لم تسمح له أبدا بالاقتراب من ذلك الجدار فإنه اقترب من الجدران الأخرى واصطدم أنفه بالحائل الجامد وسبب هذا له إيلاما وبعد أن قام بعدة مغامرات من هذا اللون ترك الجدران وشأنها ودون تفكير فى الأمر تقبل هذا الاختفاء فى جدار الضوء على أنه إحدى خصائص أبيه كما أن اللبن والطعام نصف المهضوم خاصتان من خصائص أمه .

ولم يكن الجرو الأغبر فى الحقيقة محبا للتفكير - على الأقل التفكير الذى من ذلك النوع المألوف عند البشر - إذ أن ذهنه يعمل على نحو غامض ومع ذلك فإن النتائج التى يصل إليها حادة واضحة كالنتائج التى يصل إليها البشر ، وكانت له طريقته فى تقبل الأشياء دون مناقشة سببها ومنشئها لأن هذا فى الحقيقة عمل من أعمال التصنيف . لم يشغل نفسه أبدا بسبب حدوث شئ ما بل كان يكفيه أن يعرف كيف حدث هذا الشئ . وهكذا عندما اصطدم أنفه بالجدار الخلفى بضغمرات تقبل حقيقة أنه لن يستطيع الاختفاء فى الجدران ولكن هذه

الحقيقة لم تزعبه اطلاقا كما لم يحس اية رغبة فى اكتشاف سبب الخلاف بينه وبين ابيه اذ لم يكن المنطق أو الطبيعيات جزءا من تكوينه العقلى .

وشعر بالجوع مبكرا كأغلب المخلوقات البرية وجاء وقت لم يعد يصل اليه فيه اللحم وفضلا عن ذلك كفت أمه عن ارضاعه . وعوت الجراء فى أول الامر ولكنها قضت معظم أوقاتها نائمة ولم يمض وقت طويل حتى راحت فى غيبوبة الجوع ولم تعد هناك منازعات بينها ولم تعد تثور أو تحاول النهيئة بل انها كفت عن القيام بمغامرة الوصول الى الجدار الابيض . ونامت الجراء بينما الحياة تتسرب منها حتى نضب معينها .

وخيم القنوط على الذئب ذى العين الواحدة وضرب بعيدا فى صيده ولم يعد ينام الا قليلا فى العرين الذى فقد بهجته وأصبح حافلا بالشقاء . وغادرت الذئبة مهدها هى الأخرى بحثا عن الطعام . وفى خلال الايام الأولى التى تلت وضع الجراء كان الذئب ذو العين الواحدة يمضى نحو المخيم الهندى ويسرق الارانب فلما ذاب الجليد وجرى الماء فى الغدران انتقل المخيم الهندى بعيدا فأغلق فى وجه الذئب هذا المصدر الغذائى .

وعندما عادت الحياة الى الجرو الأغبر عاد يهتم بالجدار الابيض البعيد ورأى أبعاد عالمه تتناقص . ولم يبق له سوى أخت واحدة أما بقية اخوته فقد ذهبت . ولما ازداد قوة وجد نفسه مضطرا الى اللعب وحده اذ أن أخته لم تعد ترفع رأسها أو تتحرك فى الكهف . وامتلا جسده الصغير باللحم الذى أصبح يأكله الآن أما أخته فإن الطعام كان يصل اليها متأخرا وظلت نائمة بصفة مستمرة وأصبحت هيكلا عظمية يغطيه أديم تشرب منه الحياة شيئا فشيئا حتى انتهت هى الأخرى .

ثم جاء وقت لم يعد فيه الجرو الأغبر يرى أباه يظهر فى الجدار الابيض ثم يختفى أو راقدا عند المدخل . حدث هذا فى آخر مجاعة أخرى حلت بأسرته ولكنها كانت أقل قسوة . عرفت الذئبة سبب عودة الذئب ذى العين الواحدة وكان عليها أن تعنى بالجرو الأغبر . فأخذت تذهب للصيد على طول الفرع الايسر من الغدير حيث كانت أنشئ الفهد تقيم . وقضت يوما كاملا فى تعقب أثر الذئب ذى العين الواحدة ووجدته أو وجدت ما تبقى منه فى آخر الطريق حيث كانت عدة دلالات على المعركة التى نشبت بين الذئب ذى العين الواحدة وأنشئ الفهد وعلى

انسحاب أنثى الفهد الى عرينها بعد انتصارها . وقبل أن تعود الذئبة وجدت عرين أنثى الفهد ولكن هذه الدلالات دلتهـا على أن أنثى الفهد داخل عرينها فلم تجرؤ على دخوله .

وبعد ذلك عمدت الذئبة أثناء صيدها الى تحاشي الفرع الايسر لأنها كانت تعرف أن لـأنثى الفهد جراء فى عرينها وتعرف مبلغ وحشية أنثى الفهد وسرعة غضبها وعنف قتالها الرهيب . اذ لابد من تجمع ستة ذئاب للتغلب عليها أما أن تواجهها وحدها فهذا أمر رهيب وخاصة عندما يكون لـأنثى الفهد جراء جائعة .

ولكن الوحوش وحوش والامومة أمومة فهي شديدة الحماية لصغارها فى كل الاوقات سواء كان ذلك فى البرية أم خارجها وسيسجىء وقت تستطيع فيه الذئبة من أجل جروها الاغبر أن تجرؤ على اقتحام الفرع الايسر والعرين المختبىء فى الصخور وغضبة أنثى الفهد .

الفصل الرابع جدار العالم

كان الجرو قد تعلم قبل الوقت الذي بدأت أمه فيه مبارحة الكهف في رحلات صيدها ، القانون الذي يحرم عليه الاقتراب من مدخل الكهف ولم يفرض هذا القانون عليه بالقوة التي استخدمت عدة مرات عن طريق أنف أمه وكفها فحسب بل لقد نمت فيه غريزة الخوف . ولم يحدث له أثناء الفترة التي قضاها في الكهف أن صادف شيئا يخافه ومع ذلك فقد كان الخوف فيه اذ توارثه عن أسلاف سابقين هم الاف الالاف من الذئاب ، وهو تراث ورثه عن الذئب ذى العين الواحدة ومن الذئبة مباشرة وهما بدورهما تلقيا من أجيال الذئاب السابقة الخوف ! تراث الحياة البرية الذي لا يخلو منه حيوان قط أو يرتضى به بديلا . وهكذا عرف الجرو الأغبر الخوف ، وأن لم يعرف مادة الخوف . ومن المحتمل أن يكون قد تقبله على أنه أحد قيود الحياة لانه تعلم وجود مثل هذه القيود . وعرف الجوع . وعندما يعجز عن تهدئة الجوع يحس ذلك القيد . وصلابة جدار الكهف والضربة العنيفة من أنف أمه وكفها كل هذه قيود تعلمها . وادرك من وطأة الجوع عدة مرات أنه ليست في العالم حرية وأن قيودا وحدودا ضربت حول الحياة والاذعان لهذه القيود والحدود انما هو للنجاة من الاذى والعمل على تحقيق السعادة .

ولم يناقش المسألة على هذا النحو الانساني بل اكتفى بتصنيف الاشياء ، فهناك اشياء تؤذى واشياء لا تؤذى . وبعد أن تم له هذا التصنيف تحاشى الاشياء التي تؤذى ليستمتع بما في الحياة مما يبعث على الرضا وما فيها من تعويض . وأبعدته عن مدخل الكهف طاعته للقانون الذي وضعته أمه وطاعته للقانون الذي فرضه ذلك الشيء المجهول والذي لا اسم له وهو الخوف . وظل مدخل الكهف بالنسبة له جدارا أبيض من الضوء فكان ينام معظم الوقت الذي تقضيه أمه غائبة عن الكهف وفيما يتخلل فترات النوم يظل هادئا جدا ، يكبت في حلقه حشرة الصياح والزمجرة التي تريد أن تبرحه مثيره ضجة .

وفيما هو راقد مستيقظ ذات مرة سمع صوتا غريبا في الجدار الابيض ، ولم يعرف أن صاحبة هذا الصوت ذئبة كانت ترتعد من جراتها على الاقتراب من هذا العرين وتتشمم فوهة الكهف وكل ما عرفه الجرو هو أن الصوت الصادر من هذا التششم غريب . شيء لا يدخل في التصنيف الذي كان قد صنفه ولهذا فهو مجهول ومخيف لأن المجهول من بين العناصر الرئيسية التي يتكون منها الخوف .

ووقف شعر ظهر الجرو الأغبر ، ولكنه وقف في صمت ولم تصبحه زمجرة . فكيف عرف أن هذا الشيء الذي يتشمم في الخارج يجب أن يثير شعر الظهر ؟ انه لم يولد ولديه هذه المعرفة ، ومع ذلك فقد كان هذا هو التعبير عن الخوف الكامن فيه ، والذي لم يكن في حياته مسبب له بل هو الخوف المصحوب بفريزة أخرى هي غريزة الاخفاء . واصيب الجرو بجنون الرعب ومع ذلك ظل راقدا بلا حركة أو صوت . ظل متجمدا متحجرا وكأنه ميت تماما . وعادت أمه وزمجرت حين شممت أثر الذئبة الاخرى واندفعت داخل الكهف ولعلقت الجرو بلسانها ، ولمسته بأنفها بحماس عاطفي مبالغ فيه . وأحس الجرو أنه نجا من أذى كبير على نحو ما .

ولكن ، كانت في الجرو عوامل أخرى تحركه أكبرها نموه . ان الغريزة والقانون يفرضان عليه الطاعة أما النمو فيفرض عليه العصيان . فرضت أمه لخوفها عليه الابتعاد عن الجدار الابيض والنمو هو الحياة والحياة تتطلب النور . ولهذا فلا يجوز إقامة سد على تيار الحياة المتزايد في قوته وارتفاعه مع كل وجبة لحم يلتهمها ومع كل نفس يتنفسه . وفي آخر المطاف اكتسحت دفعة الحياة الخوف والطاعة ذات يوم فتمطى ، ومشى قدما نحو مدخل الكهف ،

وعلى خلاف الجدران الاخرى التي جربها من قبل بدا له هذا الجدار يتراجع الى الوراء بمقدار ما يزداد منه قربا . ولم يصطدم أنفه الرقيق الصغير بسطح جبل . وبدت مادة الجدار مطاوعة سهلة الاختراق كالضوء ودخل ما كان يعتبره من قبل جدارا وغاص في المادة المكونة له .

وبعث فيه الشعور بالحيرة أنه يتمدد عبر الصلابة . وازداد الضوء لمعانا وحفره الخوف على العودة داخل الكهف ولكن النمو ساقه الى الخارج . وعلى حين فجأة وجد نفسه عند مدخل الكهف من الخارج ، وإذا الجدار الذي ظن نفسه يجتازه يقفز فجأة الى الوراء أمامه ويصبح على بعد هائل لا يمكن قياسه . واصبح الضوء متوهجا بصورة مؤلمة

مبهرا لبصره . كما بهره هذا الاتساع الهائل المفاجيء فى الفضاء . وتلاصمت عيناه تلقائيا مع البريق ، وحددتا نظريتهما لمواجهة بعد الاشياء عنهما وفى أول الامر قفز الجدار الى ما وراء حدود رؤيته ثم عاد يراه ثانية ولكنه تنأى تنأيا ملحوظا كما تغير مظهره وتعددت ألوانه وأصبح يضم الاشجار على شاطئ الغدير والجبل المواجه له والذي يظهر من فوق الاشجار ، والسماء وهى تبدو فوق الجبل .

وسيطر عليه خوف كبير ، فقد كان هذا مزيدا من المجهول الرهيب وقبع عند مدخل الكهف وحقق النظر فى العالم المترامى الاطراف . وكان خائفا خوفا شديدا . ولما كان مجهولا فانه عدو له ولهذا وقف شعر ظاهر عنقه ، وتقلصت شفثاه بصورة هزيلة فى محاولة تكشيرة وحشية تثير الخوف ، ويدافع من ضالته وخوفه تحدى وهدد العالم كله .

ولم يحدث شيء ، واستمر يحقق النظر ، ونسى فى اهتمامه هذا أن يكشف عن انيابه كما نسي الخوف أيضا . وفى تلك اللحظة اقتلع النمو جذور الخوف عندما اتخذ النمو قناع الفضول . وبدأ يلاحظ الاشياء القريبة . رأى جزءا مفتوحا من الغدير وهو يبرق تحت أشعة الشمس ، وشجرة الصنوبر الواقعة عند قاعدة المنحدر ، ثم المنحدر نفسه الذى يأتى نحوه قدما ثم يقف على بعد قدمين من فوهة الكهف حيث جلس قابعا .

ظل الجرو الأغبر يقضى حياته كلها على ارض مستوية ولم يمان ألم السقوط بل انه لم يعرف ما هو السقوط . وهكذا تقدم بجرأة فى الهواء وكانت ساقاه الخلفيتان على طرف فوهة الكهف ولهذا سقط على رأسه على الارض . وصدمته الارض صدمة شديدة فصرخ ثم أخذ يتدحرج على المنحدر ، وظل يتدحرج وأصابه دعر الرعب . اخيرا لحق به المجهول وأمسكه بوحشية وهو على وشك أن يلحق به الاذى الرهيب . وها هو الخوف يقتلع الاحساس بالنمو من جذوره وأخذ يعوى عواء أى جرو صغير فى المهده حين يخاف .

وحمله المجهول نحو الاذى المخيف ولم يكف عن السواء وكان هذا أمرا مختلفا عن الجلوس فى خوف متجمد ، والمجهول يترصص به دائما . الآن تمكن منه المجهول وسيطر عليه ، فلا يجدى الصمت فضلا عن ذلك فان الرعب لا الخوف هو الذى يهزه الآن . ولكن المنحدر أصبح أكثر تدريجا وأصبح قاعدة مغطاة بالعشب

وهنا توقف الجرو عن الاندفاع فاطلق عواء طويلا بنه كل امله وكانه نحيب وولولة ومضى يلحق العظمى الجاف الذى لصق بأديمه وينظف هذا الاديم وكأنما قام بهذا العمل من قبل ألف مرة .
وجلس بعد ذلك ، وأخذ يحدق النظر فيما حوله كما يفعل الانسان من أهل الارض عند هبوطه على كوكب المريخ لأول مرة . لقد اقتحم الجرو جدار العالم وأطلق المجهول سبيله وها هو الآن دون أذى ، ولكن الانسان حين يهبط على كوكب المريخ لن يجد فيما حوله شيئا أكثر غرابة مما وجد هذا الجرو فيما أحاط به ، دون أن تكون لديه أية معرفة سابقة أو أى تحذير بوجود مثل هذه الاشياء التى يراها وجد نفسه مستكشفا فى عالم جديد عليه كل الجدة .

والآن ، وقد أخلى المجهول الرهيب سبيله ، فقد نسى المجهول وأى أهوال أخرى . لم يعد يدرك غير شئ واحد هو الفضول والرغبة فى معرفة جميع الاشياء المحيطة به . فتش العشب تحته ونبات الثوت البرى وراءه وجذع شجرة الصنوبر المقطوع والقائم على حافة فضاء مكشوف بين الاشجار . وجرى سنجاب على طول قاعدة جذع الشجرة حتى وقعت فى مواجهته فأصابه بخوف شديد . وانكمش وكشر عن أنيابه . ولكن السنجاب لم يقل خوفا عنه فجرى صاعدا جذع الشجرة حتى اذا بلغ مأمنا أخذ يثرثر بوحشية .

وقوى هذا من شجاعة الجرو . وان كان « الحفار » الذى صادفه بعد ذلك قد أفزعه الا أنه مضى فى طريقه قدما وهو واثق بنفسه وبلغت ثقته بنفسه الى أنه حين تقدم منه طائر ملون بكل قحة مد كفه اليه معايبا . وكانت النتيجة أن نقره الطائر فى طرف أنفه بحدة بمنقاره فجعله ينكمش وينهه . وكانت الضوضاء الصادرة عن الجرو الاغبر أشد مما يحتمل الطائر فلجأ الى الطيران .

ولكن الجرو كان يتعلم ، وأخذ عقله الصغير الضبايى يقوم بتصنيف الاشياء بلا وعى . . هناك اشياء حية وأشياء غير حية وعليه كذلك أن يأخذ حذره من الاشياء الحية ، أما الاشياء غير الحية فهى تبقى دائما فى مكان واحد لا تبرحه بينما الاشياء الحية تتحرك . وليس هناك ما يدل على ما عساها تفعله ، وما يتوقع منها حدوثه ولهذا يجب أن يكون مستعدا .

ومضى وهو يسلك فى سيره طريقا أخرق فكان يصطدم بالاعواد الجافة وغيرها من اشياء . وقد يبدو له غصن شجرة بعيدا فإذا به

فى اللحظة التالية يصدمه فى أنفه أو فى ضلوعه • ولم يكن سطح الارض مستويا • وكثيرا ما تعثر فى سيره ، ووقع على أنفه أو اصطدمت قدمه بشيء ما ، ثم هناك الحصى والاحجار التى تنقلب به اذا مشى عليها وعرف من ذلك أن الاشياء غير الحية ليست جميعها فى حالة توازن مستقر ككهفه ، وأن الاشياء الصغيرة غير الحية أكثر احتمالا للسقوط أو الانقلاب من الاشياء الكبيرة غير الحية ولكنه تعلم مع كل حدث سىء • وكلما زاد مشيه أيقن المشى ، وأخذ يلائم بين نفسه وظروفه الجديدة • تعلم تدبير حركات عضلاته فعرف قيوده البدنية وقياس المسافات بينه وبين الاشياء •

وكان حظه حظ المبتدئ • انه ولد ليكون صائدا للحم • وان لم يعرف هو ذلك ، وصادف اللحم خارج باب كهفه فى أول غزو له للعالم • وهى مجرد مصادفة ، تعثر فى عش لطائر القطا مخبوء بعناية كبيرة ذلك عندما حاول المشى على طول جذع شجرة صنوبر واقع على الارض وهوى لحاء الشجرة المتآكل تحت أقدامه وصاح صيحة يأس واقدماه تنزلق حول الجذع المستدير وتفوص فى أوراق شجرة وأعوادها حتى بلغت سطح الارض « وسط عش به سبعة من افراخ القطا واصدرت الصفار ضوضاء » وأحس الخوف اول ما أحس ، ثم أدرك انها صغيرة جدا ، فأصبح أكثر جراءة ، وتحرك ووضع كفه على واحد منها فزادت سرعة حركته ، ووجد لذلك متعة • وشمه والتقطه بقمه فكافح الطائر ، ودغدغ لسان الجرو الأغبر • وفى نفس الوقت أحس وطأة الجوع ، وأطبق فكيه فكسر عظاما هشه وجرى فى فمه دم دافئ كان له طعم طيب ووجده لحما كاللحم الذى تقدمه أمه له ، نعم انه لحم حى بين استنانه ولهذا فهو أفضل • وهكذا أكل طائر القطا • ولم يكف عن الأكل حتى أتى على الأفراخ كلها ثم انخفض بأضله على نفس النحو الذى تفعله أمه تماما وأخذ يزحف خارجا من تحت الشجرة •

وصادف دوامة من الريش ، وكان اندفاع الدوامة ، وضرب الجناحين شديدين الى حد أربكه ، وأعماه فأخفى رأسه بين كفيه وأخذ يعوى • وزادت الضربات ، فقد كانت أم افراخ القطا نائرة هائجة • وعندئذ غضب ونهض وكشر عن انيابه وزمجر ، ورد الضربات بكفيه • وغرس أنيابه الدقيقة فى أحد جناحي الأم ، وأخذ يجذب الجناح بقوة وكافحته أم افراخ القطا وامطرته بضربات من جناحها الطليق • كانت هذه أولى معاركه • وأحس بالزهو ، ونسى كل شيء عن المجهول ، ولم يعد يخاف شيئا بل هو يقاتل ويمزق شيئا حيا يوجه اليه الضربات ،

وهذا الشيء الحي لحم وفيه شهوة القتل ، ومنذ قليل قضى على أشياء حية صغيرة وسيقضى الآن على شيء حى كبير . وانهمك فى عمله وسعد به لدرجة لم تسمح له بأن يعرف أنه سعيد . وكان فى غمرة انفعال ونشوة بما يحدث منه الآن وهو أمر جديد عليه وأكبر عنده من أى شيء عرفه من قبل .

وظل ممسكا بالجناح ومزمجرا بين اسنانه المتشابكة . وجرته اننى القطا خارج الشجيرة . وعندما استدارت وحاولت جره الى داخل الشجيرة من جديد ، جذبها بعيدا عن عشها حتى اخرجها فى العراء . وظلت طول الوقت تصيح صياحا عاليا ، وتضرب بجناحها الخالى بينما الريش يتطاير منها كالبرد المتساقط ، وكانت ثورة هائلة اذ ثار فيه دم المقاتل الذى ورثه عن سلالته ، وتدفق فى عروقه حارا ملتها . كانت هذه هى الحياة ، وان لم يعرف ذلك . وتبين معناه واهميته فى العالم وكان يقبل ما خلق لفعله وهو قتل الصيد والمقاتلة فى سبيل قتل الصيد ، وأخذ يبرر وجوده على نحو لا تستطيع الحياة أن تؤديه لان الحياة تبلغ ذروتها عندما تبلغ أقصى ما جهزت به من طاقات .

وكفت أننى القطا عن نضالها بعد وقت ، ومع ذلك ظل ممسكا بجناحها ، ووقدا على الارض وكلاهما ينظر الى الآخر . وحاول أن يزجر بوحشية تهديدا لها فنقرته هى فى أنفه الذى يؤلمه من أثر المغامرات السابقة ، وجفل منها ، ولكنه ظل مستمسكا بها ونقرته مرة ثانية فثالثة . وبعد أن جفل منها ، عوى وحاول أن يتراجع عنها ناسيا أنه باستمسكه بها يجرحها وراءه . وانهاالت نقراتها على أنفه الذى ألمه ايلاما شديدا . وتضاءلت فيه روح القتال وأفرج عن فريسته وأدار لها ذيله ، وولى الادبار عبر الارض الفضاء فى تقهقر مشين .

ورقد ليستريح عند الطرف الآخر من الارض الفضاء بالقرب من حافة الغابة وقد تدلى لسانه ، وأخذ صدره فى الارتفاع والانخفاض وظل أنفه يؤلمه ، ويدفعه الى الاستمرار فى النهضة . وفيما هو راقد هكذا أحس فجأة أن شيئا رهيبا يوشك أن يحدث . وخيم عليه المجهول بكل ما فيه من أهوال وانكمش بدافع غريزى ينشد ماوى تحت الشجيرات . وفى اللحظة التى فعل فيها ذلك لفحه تيار شديد من الهواء اذ مر وقتئذ فوقه طائر كبير فى صمت وبصورة تنذر بالويل . كان ذلك الطائر صقرا انقض فجأة ، وكاد يلتقطه ولكنه أخطأ . وبينما هو راقد فى الغابة يستعيد رباطة جأشه ، ويطل فى خوف

نحو الجانب الآخر من المكان الفسيح ، حيث كانت القطاة الأم قد خرجت من عشها المخرب وقد انستها الخسارة التي منيت بها وجوب الانتباه الى الانقضااض المجنح من السماء . ولكن الجرو رأى ما حدث وفيه درس ونذير له . انقض الصقر السريع وحلق على ارتفاع منخفض من سطح الارض وانشب مخالفه في جسد القطاة الأم وصرخت الفريسة صرخة ألم وخوف ثم حلق الصقر عاليا في السماء حاملا اياها بين مخالبه .

وانقضى وقت طويل قبل أن يبرح الجرو الاغبر مخبأه وقد تعلم الكثير . الاشياء الحية لحم وهى طيبة المذاق وكذلك اذا كانت هذه الاشياء الحية كبيرة بقدر كاف ففى استطاعتها أن تؤذى . ومن الافضل أكل الاشياء الحية الصغيرة مثل أفراخ القطا ، وترك الاشياء الحية الكبيرة مثل القطاة الأم الكبيرة ، وبالرغم من ذلك فقد أحس دافع الطموح وديبب رغبته فى معركة أخرى مع القطاة الأم لولا أن الصقر قد اختطفها وحملها بعيدا . ربما كان هناك طيور قطا أخرى ولهذا فعليه أن يذهب الآن ويرى بنفسه .

ووصل الى شاطئ مرتفع على النهر . ولم يكن قد رأى ماء من قبل وبدا سطح الماء له مستويا يحسن السير عليه وتقدم على ذلك السطح فى جراءة وغاص وهو يعوى خوفا من مضيه نحو المجهول . وكان الماء باردا ولهث بسرعة واندفع الماء فى رثتيه بدلا من الهسواء الذى يصحب التنفس . وكان الاختناق الذى عاناه يشبه حشرجة الموت ، ومعناه عنده هو الموت ، ولم يكن يدرك ما هو الموت ادراكا واعيا ، ولكن كانت عنده غريزة الموت شأنه فى ذلك شأن بقية الحيوانات البرية . كما أنه لديه يمثل أكبر الاذى بل هو جوهر المجهول ، وخلاصة أهواله انه الكارثة اذ تبلغ ذروتها ويصعب التفكير فيها ، وقد تقع له ولا يعرف عنها شيئا ولكنه يخاف كل ما يتصل بها .

وطفا على السطح ودخل الهواء فمه المفتوح ، ولم يسقط داخل الماء ثانية ، وأخذ يضرب الماء بسيقانه الاربع كما لو كانت هذه عادة ألفها طول حياته وأخذ يسبح وكان الشاطئ القريب على بعد ياردة واحدة منه ولكنه حين طفا على سطح الماء طفا وظهره الى هذا الشاطئ القريب وكان أول ما استقرت عليه عيناه هو الشاطئ المقابل فاخذ يسبح نحوه مباشرة وكان القدير صغيرا ولكنه عند بلوغه البركة يتسع حتى يبلغ اتساعه عشرة أقدام .

حتى اذا توسط مجرى الغدير حمله التيار مع المجرى الى أن بلغ
شلالا صغيرا جدا هوى به الى قاع البركة حيث لا فرصة للسباحة .
وظل في حركة عنيفة دائمة يتقلب على ظهره مرة ويدور حول نفسه
مرة أخرى ويصطدم بصخر مرة ثالثة . وكلما اصطدم بصخر عوى .
وظل تقدمه في مجرى الغدير سلسلة متلاحقة من العواء ، حتى أصبح
من الممكن عد مرات اصطدامه بالصخور على ضوء مرات عوائه .
وكانت عند اسفل الشلال بركة أخرى ، وهنا تلقتة دوامة حملته
برقة الى الشاطئ ووضعته يرفق على حوض من الحصى فزحف بسرعة
مجنونة مبتعدا عن الماء ، ورقد يلتقط أنفاسه وقد زادت معرفته
بالعالم . الماء ليس شيئا حيا ومع ذلك فهو يتحرك وهو كذلك يبدو
جامدا ، كالارض ولكن لا جمود فيه على الإطلاق والنتائج التي استخلصها
من هذا كله هي أن الاشياء ليست دائما كما تبدو ، ودعم خبرته
هذه خوفه من المجهول وما ورثه من علم ثقة بالاشياء ، ومن هنا
فصاعدا لن يثق في مظاهر الاشياء بل سيقف على حقيقتها قبل أن يثق
فيها .

وقدر له في ذلك اليوم أن يقوم بمغامرة أخرى ، فقد تذكر أن له
في هذا العالم ، وأحس أنه يريدنا أكثر مما يريد أي شيء آخر في
العالم ، اذ كان جسده متعبا من أثر المغامرات التي وقعت له ، كما أن
عقله الصغير لم يقل عن جسده تعباً . ولم يسبق له في جميع الايام
التي عاشها أن أجهد نفسه كل هذا الاجهاد في يوم واحد وفضلا عن
ذلك كله فان النعاس كان يقالبه وهكذا مضى يبحث عن الكهف وعن
أمه وهو يحس في نفس الوقت احساسا غارما بالوحدة والضعف .
وكان متمددا بين بعض الشجيرات عندما سمع صيحة حادة
مخيفة ، ورأى أمام عينيه ومضة صفراء . ورأى بنت عرس وهي تقفز
مسرعة مبتعدة عنه . كانت شيئا حيا صغيرا فلم يخف . وعندئذ رأى
أمامه عند أقدامه شيئا حيا صغيرا جدا لا يزيد طوله عن بضعة بوصات .
انها بنت عرس صغيرة خرجت من وكرها مغامرة وهي بذلك عصت أمها
كما فعل هو قبلها . وحاولت التقهقر أمامه ، فقلبها بكفه وصدر عنها
صراخ حاد عجيب . وفي اللحظة التالية عاد الوميض الاصفر الى
الظهور أمام عينيه وفي نفس الوقت نالت ضربة في جنب عنقه وأحس
أسنان بنت عرس الأم الحادة تفرسها في لحمه .

وعندما عوى وتقهقر الى الوراء متعثرا ، رأى بنت عرس الأم وهي
تقفز على ابنتها وتختفي بها في الاجمة المجاورة . وظلت عضتها تؤلمه

فى عنقه ولكن العضة آلمت احساسه أكثر ممسا آلمت جسده . وظل ينهنه فقد كانت بنت عرس الأم صغيرة جدا ولكنها شديدة الوحشية . فكان عليه أن يتعلم أن بنت عرس رغم صغر حجمها وخفة وزنها أشد القتلة فى البرية وحشية وانتقاما وهولا . أضاف الى معرفته بعض هذه الحقائق .

واستمر فى عوائه الخافت ونهنهته ، ولما عادت بنت عرس الأم الى الظهور لم تندفع نحوه بعد أن أصبحت صغيرتها فى امان ، بل اقتربت منه فى حذر . وكانت لدى الجرو فرصة كاملة لمراقبة جسدها النحيل الذى يشبه جسد الحية ورأسها المنتصب المتحمس ، والذى يشبه رأس الحية . وصرخت صرختها الحادة المهددة المتوعدة ، فجعلت شعر ظاهر عنقه ينتصب ، وكشر لها عن أنيابه منذرا اياها ولكنها ازدادت قربا منه ، وقفزت قفزة أسرع من أن يلحقها بصره غير المتمرس واختفى الجسد النحيل الاصفر لحظة من مجال رؤيته . وفى اللحظة التالية وثبت على عنقه ، وغرست اسنانها فى شعره ولحمه .

وزمجر فى أول الامر وحاول القتال . ولكنه صغير جدا وهذا أول أيام حياته فى العالم فجاءت زمجرته نهضة خافتة ، وقتاله محاولة للهرب ولم تتخل عنه بنت عرس بل ظلت قابضة على عنقه متعلقة به وهى تحاول الوصول بانيابها الى جيل الوريد الذى يتدفق فيه ماء حياته ، وبنت عرس مصاصة دماء ، تفضل دائما مص الدماء على قتله بقطع عنقه .

كان من المحتمل أن يموت الجرو الصغير الأغبر وما عادت لتبقى هناك قصة تكتب عنه لولا مجيء الذئبة راکضة بين الاشجار . فتخلت بنت عرس عن الجرو ووثبت على عنق الذئبة واخطأت العنق وقبضت على فك الذئبة التى رفعت رأسها فى الهواء كطارقة سقوط فى الهواء فأفلت فكها من قبضة بنت عرس ، ورفعتها عاليا فى الهواء . وبينما هى فى وضعها هذا أطبقت الذئبة فكها على الجسد الاصفر النحيل ، وعرفت بنت عرس الموت بين الاسنان التى طحنتها .

وشهد الجرو الأغبر تعبيرا آخر عن العطف من جانب أمه وكان ابتهاجها بالعثور عليه أكبر من ابتهاجه هو بعثوره عليها وداعبته بانفها ولعلقت جروحها الناجمة عن اسنان بنت عرس . واكلت الذئبة والجرو فيما بينهما مصاصة الدماء . وبعد ذلك عادا الى الكهف حيث ناما .

الفصل الخامس قانون اللحم

ونما الجرو الأغبر نموا سريعا . وركن الى الراحة يومين ثم غامر بالخروج ثانية من الكهف . وفي هذه المغامرة وجد بنت عرس الصغيرة التي اشترك مع أمه في أكل أمها . وعمل على أن تذهب الصغيرة الى حيث ذهبت أمها ولكنه لم يفعل أثناء هذه الرحلة شيئا كثيرا وكان قد عرف الطريق الى الكهف فلم يضل أثناء عودته ونام . وأخذ بعد ذلك يخرج كل يوم ويتوغل في منطقة أكثر اتساعا .

وبدأ يقيس قوته وضعفه قياسا أكثر دقة ، فعرف متى يجب أن يكون جسورا ، ومتى يجب أن يكون حذرا . ووجد أنه من الضروري أن يكون حذرا دائما ، الا في اللحظات النادرة التي يكون فيها واثقا من شجاعته ، وفي هذه اللحظات يسمح لنفسه بالغضب والشهوة .

وهو دائما شيطان الغضب الصغير عندما يصادف طائر قطا شاردا ولم يفته قط أن يستجيب في وحشية لثروة السنجاب الذي قابله لأول مرة عند شجرة الصنوبر الواقعة على الارض ، وان رؤيته طائر القطا لتثيره ابلغ اثارا لأنه لم ينس قط النقرة التي تلقاها أنفه أول ما قابل من نوع هذا الطائر .

ولكن هناك أوقات لا تؤثر فيه رؤية أمثال هذا الطائر وذلك عندما يحس أنه في خطر من جانب أحد صائدي اللحم الآخرين فهو لم ينس أبدا ذلك الصقر ، وظله المتحرك الذي ألجأه الى أقرب أجمة يقبع تحتها ولم يعد يتجول أو يمشى على مهل بل أخذ يقلد أمه في مشيتها المتسللة المختلسة التي بدت له لا تتطلب جهدا ومع ذلك فهي تتميز بالسرعة والمخادعة والمفاجأة .

أما حظه فيما يتعلق بالصيد فهو حظ المبتدئ اذ لم يصد أكثر من سبعة أفراخ القطا وبنت عرس الصغيرة ، وقويت رغبته في القتل بمرور الايام وأصبح يطمع في السنجاب الذي يثرثر كثيرا ليعلم للوحوش جميعا أن جرو الذئب يقترب . ولكن الطيور تحلق في السماء والسنجاب يتسلق الاشجار ولم يكن مستطيعا أكثر من الزحف خفية نحو السنجاب وهو على الارض قبل أن يتمكن من تسلق الشجرة .

وكان الجرو الأغبر يكن احتراماً كبيراً لأمه ، فهي تستطيع الحصول على اللحم ، وتأتيه بنصيبه دائماً ، وفضلاً عن ذلك فإنها لا تخاف شيئاً ولم يخطر بباله أن عدم خوفها يستند الى اساس الخبرة والمعرفة بل السبب عنده هو قوتها . فأمه تمثل عنده القوة . ولما نما أحس هذه القوة في ازدياد قوة كفها وهي تحذره ولم تعد تدفعه بأنفها بل عمدت الى تحذيره بالزمجرة والتكشير عن الانياب . وزاد هذا احترامه لأمه التي تكرهه على طاعتها . وكلما كبر زاد ضيقها وتبرمها به وعادت المجاعة من جديد وعرف الجرو عضمة الجوع مرة أخرى ولكن بوعي أكبر ، وأجهدت الذئبة نفسها في البحث عن اللحم وأصبح من النادر أن تنام في الكهف ، اذ كانت تقضى معظم وقتها في تعقب الصيد عبتاً . ولم يطل وقت هذه المجاعة كثيراً ، ولكنها كانت شديدة القسوة . ولم يعد الجرو يجهد لبناء في ضرع أمه ولم يحصل على أية قسمة من لحم .

وكان صيده في أول الامر لهوا وتسلية ولمجرد المتعة ، أما الآن فهو جاد في صيده كل الجدد ، ومع ذلك فهو لا يجد شيئاً وزاد فشله في الحصول على الصيد من نضجه . درس عادات السنجاب بعناية أكبر وعمل بدهاء أكبر في التسلل للانقضاض عليه ومفاجأته ، ودرس الفئران ، وحاول اخراجها من جحورها وتعلم الكثير من عادات طير القطا والحفار . ثم جاء يوم لم يلجئه فيه ظل الصقر الى الاختباء في الاجمة اذ كبر وزاد قوة وحكمة وثقة كما أصبح متهوراً فهو يجلس على ساقيه الخلفيتين في العراء بصورة واضحة ويتحدى الصقر أن يهبط من سمانه اليه لأنه عرف أن ما يحوم في السماء الزرقاء فوقه لحم – اللحم الذي تهفو اليه معدته بإصرار ولكن الصقر رفض الهبوط والاشتراك معه في معركة . وزحف الجرو مبتعداً نحو أجمة وهناك أخذ ينهذه نادباً الاحباط والجوع .

وانتهت المجاعة ، وجاءت الذئبة باللحم الى الكهف ، وهو لحم غريب يختلف عن أى لحم جاءت به من قبل . أنه لحم جرو فهو يشبه الجرو الأغبر ولكن حجمه يختلف عن حجم الجرو الأغبر وتركته أمه كله له لانها كانت قد أكلت حتى شبعت في مكان اخر ولم يعرف أن هذا هو كل ما بقي من جراء في مهد القهد بعد أن شبعت ولم يعرف ماذا انطوى عليه عملها هذا من تهديد ، بل كل ما عرفه هو أن الجرو الذي بين يديه لحم فحسب وأكل مستمتعا بكل قسمة منه .

والمعدة الممتلئة تدفع الى الخمول ، ورقد الجرو فى الكهف نائما مستندا الى جنب أمه ولم يوقظه غير زمجرتها ، ولم يسمعها من قبل تزمجر على هذا النحو الشديد ، وربما كانت هذه أقوى زمجرة لها فى حياتها كلها . ولذلك سبب لا يعرفه أحد سواها . فان عرين أنثى الفهد لا ينتهك بدون عقاب ورأى الجرو أنثى الفهد فى وضوح النهار قابضة عند مدخل الكهف . وانتصب شعره على طول ظهره اذ رآها . ها هو سبب واضح للخوف ولم يتطلب الامر أن يستدل عليه بغريزته واذا لم يكف النظر دلالة لكفت زمجرة أنثى الفهد المهاجمة . تدرجت هذه الزمجرة فى الارتفاع حتى أصبحت دليلا مقنعا جدا .

وأحس الجرو دافع الحياة فيه ووقف وزمجر بقوة وهو واقف بجوار أمه ولكن هذه دفعته بقسوة وراءها . ولما كان مدخل الكهف ضيقا منخفضا فان أنثى الفهد لم تستطع الدخول فيه واثبة ولما حاولت الاندفاع داخله - فى زحف قفزت عليها الذئبة واوقفتها مكانها . ولم ير الجرو شيئا من المعركة . كانت هناك زمجرة هائلة وعض وخدش . كانت أنثى الفهد تستخدم مخالبتها وأسنانها فى تمزيق جسد الذئبة بينما لم تستخدم الذئبة سوى أسنانها .

ووثب الجرو وعض ساق أنثى الفهد الخلفية وظل ممسكا إياها بأسنانه وهو يزمجر بوحشية ، ولم يدر أنه بهذا العمل عطل حركة هذه الساق ووفر على أمه الكثير من العطب . وحدث تغيير فى المعركة أسفر عن وقوعه تحت جسد المتعاركتين وأخل الساق من قبضة فكيه ، وفى اللحظة التالية انفصلت المتعاركتان كلتاهما عن الأخرى . وقبل أن تعودا الى الالتحام ضربت أنثى الفهد كتف الجرو الأغبر بمخالبها الضخم فشقتها حتى العظم واندفع يتدحرج نحو الجدار ، وزاد عواء الجرو من أثر الألم والخوف وضجيج المعركة ، وطال القتال الى حد أن الجرو وجد الوقت الكافى لاشباع حاجته الى العواء والنهنية واستعادة شجاعته . وانتهت المعركة واسنان الجرو غائصة فى ساق أنثى الفهد الخلفية وهو يزمجر بوحشية من بين أسنانه .

وماتت أنثى الفهد ولكن الذئبة كانت قد خارت قواها تماما وانتابها ضعف شديد وسقم بالغ . وفى أول الامر لعقت الجرو وكتفه الجريحة ولكنها كانت قد فقدت الكثير من الدم فذهبت قوتها بذهاب الدم وورقت بقية نهارها وليلتها كلها بجوار عدوتها الميتة دون حركة وهى تتنفس بصعوبة شديدة . وظلت اسبوعا لا تبرح الكهف الا للذهاب الى

الغدير لتشرب وهي في هذا الذهاب والعودة بطيئة الحركة شديدة
الآلم . وفي آخر الاسبوع كانت الذئبة وجروها قد أتما النهام انثى
الفهد وبرئت جراح الذئبة بدرجة تسمح لها بالخروج للصيد من
جديده .

أما كتف الجرو فقد ظلت تؤلمه من أثر الجرح الفائر وظل يعرج
بعض الوقت ولكن العالم الآن بدا غيره بالامس . ومضى فيه بثقة اكبر
وباحساس بالقوة لم يكن له قبل اشتراكه في المعركة ضد أنثى الفهد .
ونظر الى الحياة نظرة أكثر وحشية . لقد قاتل وغرس أسنانه في لحم
عدو له . وعاش . وبسبب هذا كله مشى مشية أكثر جرأة وفيها تحد
جديد عليه . ولم يعد يخاف الاشياء الصغيرة بل انتهى منه الخوف
وان لم يكف المجهول عن الضغط عليه بغموضه وأهواله وتعقيد
وتهديده الدائم .

وبدا يصحب أمه في صيدها وشهد كثيرا من صيد اللحم وأخذ
يشارك فيه . وتعلم على طريقته الغامضة قانون اللحم . هناك نوعان
من الحياة ، حياته وحياة النوع الآخر والاول نوعه هو وأمه ويشمل
النوع الآخر كل الاشياء الحية التي تتحرك . ولكن النوع الآخر
نوعان ، نوع يقتله نوعه ويأكله وهو الحيوانات التي لا تقتل والحيوانات
الصغيرة التي تقتل . ونوع آخر يقتل نوعه هو ويأكله أو يقتله نوعه
هو ويأكله . ومن هذا التصنيف يتكون القانون . هدف الحياة هو
اللحم والحياة نفسها لحم . والحياة تعيش على الحياة . هناك الأكل
وهناك المأكول والقانون هو عليك أن تأكل غيرك والا أكلك غيرك . ولم
يشكل القانون بعبارات واضحة مقررة ، ولم يفكر فيه بل عاش
القانون دون تفكير فيه على الإطلاق .

رأى القانون وهو يعمل حوله من كل جانب . فقد أكل افراخ القطا
وأكل الصقر أم تلك الافراخ . وكان من الممكن أن يأكله الصقر هو
الآخر . وعندما زاد حجمه فيما بعد أراد أن يأكل الصقر وأكل جرو
الفهد وكان من الممكن أن تأكله انثى الفهد لو لم يقتلها ويأكلها هو وأمه .
وهكذا القانون . فهو قاتل وغذاؤه الوحيد اللحم . اللحم الحي الذي
يجرى أمامه مسرعا أو يطير في الهواء أو يتسلق الاشجار أو يختبئ في
الارض أو يواجهه ويقاومه أو يقلب المواثد ويجري وراءه .

ولو فكر الجرو الأغبر بالنحو الذي يفكر الانسان به للخص الحياة
بأنها شهوة شرهة والعالم مكان تجتمع فيه الشخصيات العديدة فيه

الشهوة الصائدة والشهوة التي تطارد والصائد ورائها . الشهوة الصائدة آكلة ، والشهوة المطاردة مأكولة وكل الشهوات عمياء مضطرب أمرها والعنف يسودها والاضطراب طابعهما وفوضى النهم ، والقتل غالبا عليها . وتسيطر عليها المصادفة والقسوة بلا خطة أو غاية . ولكن الجرو الأغبر لا يفكر كما يفكر الانسان ، ولا ينظر الى الاشياء رؤية شاملة فهو محدد الهدف ، ولا يشغل نفسه بأكثر من فكرة واحدة أو رغبة واحدة في وقت واحد . واذا هو خالف قانون اللحم واجهته عدة قوانين أخرى أقل شأنا من قانون اللحم وكان عليه أن يتعلمها ويطيعها . ومن هذه القوانين : أن العالم مليء بالمفاجآت وأن حافظ الحياة فيه ، وعضلاته ، وحركاتها مصدر سعادة لا حد لها ، كما يبهجه التغلب على الصيد وممارسة النشوة والزهو وغضباته ومعاركه بل ان الرعب نفسه وغموض المجهول تؤدي الى كسب قوته . وهناك التيسير والاشباع وامتلاء البطن والنعاس في تكاسل في ضوء الشمس . ان هذه الاشياء تعويض كامل عن جهده وما يتكلفه من مشقة بينما جهده ومشقته في حد ذاتيهما تعويض ذاتي . انهما تعبير عن الحياة والحياة سعيدة دائما عندما تعبر عن نفسها . وهكذا لم يتنازع الجرو الأغبر مع بيئته المعادية لأنه شديد الحيوية غاية في السعادة شديد الفخر بنفسه .

الجزء الثالث

الفصل الأول

صانعو النار

فوجيء الجرو الاغبر بالامر ، وكانت الغلطة غلطته واهماله لانه خرج من الكهف وجرى نحو الغدير ليشرب ، وربما يرجع السبب في عدم ملاحظته الى أن النعاس كان غالبا عليه ، اذ قضى الليل كله في أتر اللحم ولم يستيقظ الا الآن وربما يرجع اهماله الى تعوده الطريق الى بركة الماء اذ سبق أن قطعه من قبل ولم يحدث له شيء من قبل في هذا الطريق .

ومضى مارا بشجرة الصنوبر الواقعة على الارض وعبر المكان العراء ورخص بين الاشجار ورأى بعينيه ، وشم بأنفه في وقت واحد خمسة أشياء حية جالسة على مؤخرتها في صمت أمامه ، ولم يسبق أن رأى من قبل شيئا مثل هذه الاشياء وهذه هي أول مرة يرى فيها البشر . ولكن الرجال الخمسة عندما رأوه لم يقفـزوا واقفين على أقدامهم ولم يكشروا عن أنيابهم ولم يزمجروا ولم يتحركوا بل ظلوا جالسين في صمت ينذر بالشر .

وكذلك لم يتحرك الجرو الاغبر ، ان كل غريزة في طبيعته تدفعه الى الاندفاع بعيدا بسرعة لو لم تثر فيه فجأة ولأول مرة غريزة مضادة أخرى فقد هبطت عليه رهبة كبيرة وأسكت حركته احساسا غالب بضعفه وضآلته . هنا سيادة وقوة - وهذا أمر أكثر جددا من أن يدركه .

ولم يسبق للجرو الاغبر أن رأى الانسان من قبل ومع ذلك كانت فيه الغريزة الخاصة بالانسان على نحو غامض ، الانسان ذلك الحيوان الذى ساد جميع الحيوانات الاخرى البرية بالقتال . ولم ينظر الجرو الاغبر الى الانسان بعينيه الآن بل بعين جميع أسلافه - بالعيون التى أحاطت في الظلام بتيار المخيمات العديدة في فصول الشتاء وأطلت من الاماكن الآمنة ومن أعماق الأجسام على الحيوان الغريب الذى يمشى على قائمتين والذى ساد الاشياء الحية . وسيطر سر تراث الجرو الاغبر عليه وكذلك سيطر عليه الخوف والاحترام اللذان ولدا عبر قرون من النضال والخبرة التى جمعتها الاجيال . وكان التراث

شديد الضغط على ذئب لا يعدو أن يكون جروا . ولو كان ذئبا كامل النمو لجرى هاريا . أما هو فقد انكمش وأصابه الخوف بالشلل وهو أقرب الى تقديم خضوعه على النحو الذى فعل الذئب لأول مرة حين جاء يجلس بجوار نار الانسان لينعم بالدفء .

ونهض أحد الهنود ، وجاء اليه وانحنى فوقه . وازداد الجرو انحناء على الارض . هذا هو المجهول الذى تجسد أخيرا فى صورة من لحم ودم وانحنى فوقه ومد يده ليمسكه ، وانتصب شعره رغما عنه وتقلصت شفتاه وكشفتا عن أنيابه الصغيرة ، ووقفت اليد فوقه كأنها المصير وترددت اليد فيما تفعله وتكلم الرجل وقال ضاحكا :
« انظر ! الناب الأبيض ! » .

وضحك الهنود الآخرون بصوت عال وحثوا الرجل على امساك الجرو . ومع ازدياد قرب اليد من الجرو اكثر فاكثرت نارت بين جوانحه معركة بين غرائزه . واحتدم بينها دافعان كبيران هما الاستسلام والقتال . وجاء تصرفه بعد ذلك بين بين اذ فعل الامرين معا . استسلم حتى كادت اليد تلمسه ثم قاتل اذ ومضت انيابه وغرست فجأة فى اليد الممتدة اليه . وفى اللحظة التالية تلقى لطمة على رأسه أوقعته على جنبه وهنا ذهبت عنه كل رغبة فى القتال . وسيطرت عليه روح الخضوع والطفولة . وجلس على مؤخرته وأخذ يعوى وينهه ولكن الرجل الذى عضه الجرو فى يده كان غاضبا وتلقى الجرو لطمة أخرى على الجانب الآخر من رأسه وعاد الى الجلوس والعواء بصوت أعلى . وزاد ارتفاع صوت ضحك الهنود الاربعة ، بينما أخذ الرجل الذى عضه الجرو نفسه فى الضحك . وأحاطوا بالجرو وأخذوا يضحكون منه وهو ينهه رعبا وألما . وسمع خلال ذلك شيئا سمعه الهنود أيضا ولكن الجرو كان يعرف ما هو هذا الشيء ، وعندئذ أطلق عواء طويلا أخيرا فيه رنة أقرب الى الانتصار منها الى الحزن . وكف عن ضوضائه وانتظر حضور أمه . الام المتوحشة التى لا تقهر ، والتى قابلت وقتلت كل الاشياء دون أن تعرف الخوف وأخذت تزمرج وهي تجرى اذ سمعت عواء وليدها فجاءت مندفة لانتقاذه .

ووثبت فاذا هي بينهم ، وقد جعلت منها أمومتها المتحمسة المتلهفة منظرا جميلا . ولكن هياجها الذى فيه الحماية كان عند الجرو مبعث سرور له . وأطلق صيحة ابتهاج ، ووثب نحوها يستقبلها بينما تراجع الرجال الى الوراء عدة خطوات على عجل ، ووقفت الذئبة بين الجرو والرجال وهي تواجههم وقد انتصب شعرها وزمجرة عميقة تبلجلج فى

حلقة . وشوعت ملامح وجهها تكشيرة تنم عن الشر والتهديد حتى
قصبة أنفها كانت تهتز من أولها الى اخرها بصورة مدهشة كزمجرتها
وعندئذ صاح أحد الرجال قائلا :

« كيش ! »

ونطقها الرجل في تعجب وأحس الجرو أن أمه تنكمش عند سماع
النداء وصاح الرجل ثانية ولكن بجدة وسيطرة :

« كيش ! » .

وعندئذ رأى الجرو أمه الذئبة التي لا تعرف الخوف وهي تقترب
من الأرض حتى تلامس بطنها الأرض باكية تهز ذيلها ، وتأتي بحركات
مسالة ولم يستطع الجرو أن يفهم بل خاف . وعاد الخوف من
الانسان يسيطر عليه من جديد . وصدقت غريزته وحققته أمه فهي
الأخرى قدمت خضوعها للانسان

وجاء الرجل اليها ووضع يده على رأسها فزادت انكماشاً ولم تفتح
فمها ولم تهدد بفتح فمها . وجاء الرجال الآخرون وأحاطوا بها
وتحسسوها وربتوا عليها بأيديهم ولم تحاول قط أن تعرب عن
استيائها لهذا . وكانوا غاية في الابتهاج والرضا وخرجت من أفواههم
أصوات لم ير الجرو فيها ما يدل على خطر . واقترب من أمه وقبـح
بجوارها وهو ينفـش شعره من وقت لآخر ، ولكنه يبذل قصارى جهده
في الخضوع .

وقال أحد الهنود :

« ليس هذا غريبا فأبوها ذئب ، صحيح أن أمها كلبة ولكن ألم
يربطها أخى فى الغابة ثلاث ليال كاملة فى موسم التزاوج ؟ لهذا كان
والد كيش ذئبا . »

وقال هندي آخر :

« لقد انقضى على حربها عام أيها السمر الاغبر . »

ورد عليه السمر الاغبر قائلا :

« ليس غريبا يا لسان السلمون ، فقد حدث ذلك وقت مجاعة

ولم يكن هناك لحم تأكله الكلاب . »

وقال هندي ثالث :

« عاشت مع الذئاب . »

ورد السمر الاغبر قائلا :

« يبدو الامر هكذا . »

ووضع يده على الجرو واستطرد يقول :

« وهذا هو برهان ذلك . »

وزمجر الجرو عند لمسه اليد ، فارتفعت اليد تلمطه وغطى الجرو أنيابه بشفتيه وغاص على الارض في خضوع بينما عادت اليد تلمس ما وراء أذنيه وتمر على ظهره رائحة غادية .
واستطرد السمور الاغبر يقول :

« هذا هو البرهان وواضح منه أن أمه هي كيش ، ولكن أباه ذئب ومن هنا تغلب عليه الذئبية . وأنياه بيضاء وسيكون اسمه الناب الابيض . وقد قتلتهما . انه كلبى لان كيش هي كلبة أخى . وأخى مات » .

ورقد الجرو وقد أصبح له اسم في العالم وأخذ يرقب ما يجرى واستمرت الضوضاء تخرج من أفواه هذه الحيوانات الآدمية وعندئذ أخرج السمور الاغبر سكيناً من غمدها المعلق حول عنقه ودخل الاجمة وعاد ويده عصا . وراقبه الناب الابيض ، ثم ثقب العصا فى كل من طرفها ، وأنفذ من الثقبتين سيرا من الجلد وأحاط عنق كيش بسير جلدى ثم قادها الى شجرة صنوبر صغيرة وأحاط الشجرة بالسير الجلدى الآخر .

وتبعها الناب الابيض ، ورقد بجوارها . وامتدت اليه يد لسان السلمون ودحرجته على ظهره . ونظرت كيش اليه فى قلق . وأحس الناب الابيض الخوف يزداد فيه من جديد وعجز عن أن يكبت زمجرة ولكنه لم يكشر عن انياه وثنت اليد أصابعها وفرقت ما بينها وحكت بطن الناب الابيض فى مداعبة ودحرجته من جانب لآخر . وكان شكله وهو راقد على ظهره مضحكا وغير لائق به وقد ارتفعت سسيقانه فى الهواء ، وفضلا عن ذلك فإنه فى هذا الوضع بلا حول أو قوة أمر تنفر منه طبيعته ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا يدافع به عن نفسه ، ولو شاء هذا الحيوان الانسان أن يقصد به اذى فلا مفر منه ، اذ كيف يستطيع أن يقفز بعيدا وسيقانه فى الهواء كهذا ؟ ومع ذلك فقد جعله الاستسلام يسيطر على خوفه واكتفى بالزمجرة الخافتة التى لم يستطيع كبتها وخاصة وان الحيوان الانسان لم تغضبه تلك الزمجرة ولم يعاقبه عليها بضربة على رأسه وفضلا عن ذلك فقد كان غاية فى الغرابة أن يجد « الناب الابيض » متعة فى مرور يد ذلك الحيوان الانسان على ظهره رائحة غادية وعندما تدحرج على جنبه كف عن الزمجرة وزاد احساسه بالمتعة عندما ضغطت أصابع تلك اليد على قاعدة اذنه . وبعد ذلك تركه الرجل لشأنه وإبتعد عنه وذهب الروع عن « الناب

الابيض » وقدر له أن يعرف الخوف عدة مرات في معاملاته مع الانسان ومع ذلك فقد كان هذا اللقاء عربون مصاحبة للانسان خالية من الخوف قدر له أن ينعم بها .

وبعد انقضاء بعض الوقت سمع الناب الابيض أصواتا غريبة تقترب . وكان سريعا في تصنيفه فعرف أن هذه الاصوات آسية . وبعد بضعة دقائق جاءت بقية القبيلة . كانوا رجالا ونساء وأطفالا وعدتهم أربعون فردا يحملون معدات وأدوات المخيم وكلابا عديدة ، الكبيرة منها تحمل على ظهورها بعض المعدات في أكياس تثبت بأشرطة تدور حول أجسامها وكل كلب منها يحمل ما تتراوح زنته بين عشرين وثلاثين رطلا .

ولم يكن الناب الابيض قد رأى كلابا من قبل ولكن حالما رآها أحس أنها من نوعه وإن اختلفت عنه بعض الاختلاف إلا أنها أظهرت اختلافًا يسيرا عن الذئب عندما اكتشفت الجرو وأمه . واندفعت نحوهما . وانتصب شعر الناب الابيض وكثر عن أنيابه وزمجر في وجه الكلاب القادمة فاتحة أفواهها ودخل تحتها ، وأحس أنيابهها تفرس في جسده من فوقه بينما هو يعض سيقانها وبطنونها وهو تحتها . وساد ضجيج كبير وسمع زمجرة كيش وهي تقائل من أجله وسمع صياح الناس وصوت العصي وهي تنهال على الكلاب ، وصياح هذه الكلاب من الألم تحت تأثير الضرب .

ولم تنقض سوى لحظات حتى عاد واقفا على أقدامه واستطاع رؤية الناس يدفعون الكلاب بعيدا بالعصي والحجارة مدافعين عنه ينفذونه من الاتياب الوحشية وقد أدرك أن هذا النوع ليس نوعه وإن لم يكن مدركا لشيء مجرد مثل العدالة ، إلا أنه أحس على طريقته عدالة البشر وعرف فيهم صانعي القوانين ومنفذيها ، وقدر القوة التي ينفذون القانون بها . انهم لا يعضون ولا ينشبون مخالفهم على خلاف جميع الحيوانات التي قابلها من قبل بل هم يفرضون قوتهم الحية بقوة أشياء ميتة والأشياء الميتة تنفذ أمرهم . وكانت العصي والحجارة بتوجيه هذه المخلوقات الغريبة تقفز في الهواء شأنها في ذلك شأن الأشياء الحية وتلحق بالكلاب اذى شديدا .

ورأى أن هذه قوة غير عادية . قوة لا يمكن ادراكها وتفوق ما هو طبيعي ، انها قوة الهية ، وما كان « للناب الابيض » بطبيعته أن يعرف شيئا عن الالهة بل ان معرفته على أحسن تقدير تقتصر على الأشياء التي يلمسها ، ولكن ما أحسه من عجب ورهبة من هذه

الحيوانات الانسانية يشبه ما يحسه الانسان حين يرى مخلوقا سماويا على قمة جبل يلتقي بيديه قدائف الرعد على عالم مدهول مما يرى ويسمع .

وابعد آخر كلب عنه وهذات الضجة واخذ « الناب الابيض » يلحق جراحه ويتأمل أول ما تذوقه من قسوة قطع الكلاب ودخوله في هذا القطيع ولم يحلم قط بأن نوعه يضم غيره هو ، وذا العين الواحدة واهه كان ثلاثتهم يشكلون نوعا منفصلا ، فاذا به هنا وعلى حين فجأة يتبين عدة مخلوقات أخرى تبدو في ظاهرها أنها من نوعه . وأحس احساسا باطنيا بالاستياء من أن يهجم هؤلاء عليه وهم من نوعه ويحاولون القضاء عليه . وبالمثل كان استياؤه من تقييد أمه بمصا وان كان الذين قاموا بهذا التقييد هم الحيوانات الانسانية السامية . وأحس في هذا أنه فسخ واستعباد . ومع ذلك فلم يكن له علم بما هو الفسخ وما هو الاستعباد . فهو قد ورث عن سلالة حرة التجول والجرى والرقود بإرادته وها هي ذى الحرية تنتهك وحركات أمه تقييد بما لا يزيد عن طول العصا ، كما وان حريته هو أيضا محدودة بما لا يزيد عن تلك العصا ذلك لأنه لم يبرح جانب أمه حتى الآن .

ولم يعجبه هذا كما لم يعجبه ما حدث بعد ذلك عندما نهضت هذه الحيوانات الانسانية للسير وأمسك حيوان انساني ضئيل الطرف الآخر من العصا وقاد كيش اسيرة وراه ومن وراء كيش سار « الناب الابيض » وهو أشد ما يكون قلقا وحيرة من هذه المفارقة الجديدة التي بدأها .

ومضوا في وادى الغدير مسافة تزيد عما كان « الناب الابيض » يقطعه عادة حتى وصلوا الى آخر الوادى حيث يصب الغدير مائه في نهر ماكنزى وهنا كانت القوارب معلقة في الهواء فوق اطارات أعمدة كما مدت أواني تجفيف السمك . ونصب المخيم وأخذ الناب الابيض يتطلع بعينين متعجبتين . وزاد احساسه بتفوق هذه الحيوانات الانسانية في كل لحظة اذ رأى سيطرتها على جميع الكلاب ذات الانياب الحادة وفي هذه السيطرة قوة . ولكن أعظم من ذلك في نظر جرو الذئب سيطرة هذه الحيوانات الانسانية على الاشياء غير الحية وقدرتها على تحريك مالا يقبل الحركة بطبيعته وكذلك قدرتها على تغيير وجه العالم .

وهذه القدرة الاخيرة هي التي أثرت فيه بوجه خاص اذ استلقت نظره رفع اطارات الاعمدة ومع ذلك فهذا في حد ذاته لم يكن أمرا ملحوظا

جدا اذ تقوم به نفس المخلوقات التي تلوح بالعصى وتقاذف الحجارة مسافات بعيدة حتى اذا غطيت الاطارات بالقماش والجلد واصبحت خياما ذهل الناب الابيض وتأثر أبلغ التأثير بضخامة أحجامها . وانتشرت حوله من كل جانب أشكال حية هائلة سريعة النمو . وشغلت قرابة محيط رؤيته ، وأصابه الخوف منها وبدأت فوقه منذرة بشر مستطير ولما حركها النسيم حركات قوية انكمش في خوف وترك عينيه ترقبائها في يقظة وانتباه شديدين . وأعد نفسه للقفز بعيدا ان هي حاولت أن تقع عليه .

ولكن سرعان ما ذهب عنه الخوف من الخيام ، ورأى النساء والاطفال يدخلونها ويخرجون منها ، ورأى الكلاب تحاول دخولها فتصددها الصيحات الشديدة والاحجار المتطايرة ، وبعد قليل ترك جانب كيش وزحف في حذر نحو جدار أقرب خيمة ، وكان فضول النمو هو الذى يدفعه قدما . وذلك فضلا عن ضرورة المعرفة والعيش والعمل بما يعود بالخبرة . وزحف مسافة البوصات الاخيرة نحو الجدار ببطء مؤلم وحذر شديد ، فقد أعدته أحداث اليوم لان يتوقع ظهور المجهول بطرق هائلة لا يصل اليها التفكير ، وأخيرا لمس أنفه القماش وانتظر ولم يحدث شيء ثم شم النسيج الغريب المشبع برائحة الانسان وأطبق على القماش اسنانه وجذبه فى رقة . ولم يحدث شيء الا أن الاجزاء المجاورة من الخيمة تحركت وزاد جذبا وزادت الحركة ، وكان هذا أمرا مبهجا ثم عاد يجذب بقوة أكبر . وكرر ذلك حتى اهتزت الخيمة كلها وعندئذ سمع صيحة حادة صادرة من انسان فى الداخل فجرى نحو كيش وهو يتعثر فى جريه . ولكنه لم يعد بعد ذلك يخاف المخيمات .

وبعد دقيقة أخرى ابتعد عن أمه ثانية وكانت عصاتها مقيدة بوقد فى الارض ولم تستطع أن تبتعد ، وجاء نحوه جرو أكبر منه سنا وحجما واقترب منه فى بطة مزهوا بنفسه معتدا بأهميته عداثيا فى سلوكه واسم هذا الجرو كما سمع « الناب الابيض » الناس ينادونه به فيما بعد هو « لبلب » وله خبرة بقتال الجراء وفيه قوة .

و « لبلب » من نوع « الناب الابيض » نفسه ولما لم يزد عن أن يكون جروا فانه لم يبد خطرا ولهذا استعد « الناب الابيض » للقاءه بروح ودية ، حتى اذا شدد الغريب سيقانه وكشر عن أنيابه شدد « الناب الابيض » هو الآخر جسمه ورد عليه بالتكشير عن أنيابه .

ودار كلاهما حول الآخر نصف دورة يسبر غوره وهو يزمرجر وينفش شعره . واستمر هذا عدة دقائق وبدأ « الناب الابيض » يستمتع بهذا كلون من اللعب . ولكن « لبلب » قفز فجأة بسرعة ملحوظة وعضه وتراجع الى الوراء بسرعة واثرت العضة في الكتف التي كانت أنشئ الفهد قد اعطبتها ولا تزال تؤله حتى العظم فعوى « الناب الابيض » من أثر المفاجأة والالم ولكنه فى اللحظة التالية اندفع غاضبا على « لبلب » وعضه بقسوة .

ولكن « لبلب » قضى حياته فى المخيمات واشترك فى عدة معارك مع الجراء الاخرى وعض « الناب الابيض » عدة مرات بأنيابه الصغيرة الحادة حتى هرب « الناب الابيض » بصورة مخزية ينشد حماية أمه . كانت هذه أولى معاركه العديدة المتصلة مع « لبلب » لانهما كانا عدوين منذ البداية ، هكذا ولدا ذوى طبيعتين تميلان الى الصدام . ولعقت كيش جراح جروها بلسانها مواسية . وحاولت التغلب عليه لابقائه بجوارها ولكن فضوله كان شديدا وبعد عدة دقائق مضى فى بحث جديد وجاء الى حيوان انسانى هو السمور الاغبر الذى كان متربعا فى جلسته يصنع شيئا بالعصا والعشب الجاف الملقى أمامه على الارض . واقترب « الناب الابيض » منه وأخذ يرقبه وصدرت من السمور الاغبر أصوات فسرها « الناب الابيض » بأنها غير عدائية وهكذا ازداد قربا منه .

وحملت النساء والاطفال مزيدا من الاعواد وفروع الاشجار الى السمور الاغبر وكان واضحا أن العمل مهم ، واستمر « الناب الابيض » يقترب حتى لمس ركية السمور الاغبر اذ اشتد فضوله الى درجة نسى معها أن هذا حيوان انسانى رهيب . رأى على حين فجأة شيئا غريبا كالضباب يتصاعد من الاعواد والعشب بين يدي السمور الاغبر ، وعندئذ ظهر بين الاعواد نفسها شيء حى يتلوى ويدور ويشبه لونه لون الشمس فى السماء . ولم يكن « الناب الابيض » يعرف شيئا عن النار . واجتذبه هذا الشيء كما اجتذبه الضوء عند فوهة الكهف فى أوائل حياته . وزحف نحو اللهب عدة خطوات وسمع السمور الاغبر يقهقه من فوقه ، وعرف أن الصوت غير عدائى ثم لمس أنفه اللهب وفى نفس اللحظة مد لسانه الصغير نحوه وأصابه الشلل لحظة . كان المجهول كامنا وسط الاعواد والعشب وقد أمسك هذا المجهول أنفه بوحشية وتعثر وهو يتراجع الى الوراء

وانفجر في عواء المذهول . وعندما سمعت كيش هذا العواء وثبتت
مزمنة الى آخر ما سمحت لها به العصا وعندئذ هاجت هياجا شديدا
لأنها لم تستطع نجاته . ولكن السور الاخير ضحك مقنعا ومزج
فخذه بكفيه وحكى قصة ما حدث على بقية من في المخيم واشهر
الجميع في موجة من الضحك العالي ، ولكن الثاب الابيض جنس على
ساقه الخلفيتين واستمر يعوى عواء حيوان صغير قانط يثير الشفقة
وسط الحيوانات الانسانية .

وكان هذا أشد ما أصابه من أذى اذ احترق أنفه ولسانه بفعل
ذلك الشيء الذي هو بلون الشمس والذي نما تحت يدي السور الاخير
وبكى ونهه وظل يبكي وينهه دون توقف ومع كل صيحة ألم
تنطلق ضحكات الحيوانات الانسانية . وحاول أن يهدئ أنفه بلسانه
ولكن اللسان هو الآخر محترق ولما اجتمع اللسان المحترق بالأنف
زاد الألم فزاد البكاء والقنوط .

وعندئذ شعر بالخزي بعد أن عرف الضحك وما يعنيه . ولم
يصل اليها ما يدلنا على كيفية ادراك بعض الحيوانات الضحك وادراك
هذه الحيوانات أنها موضع الضحك الساخر ولكن الثاب الابيض أدرك
ذلك وشعر بالخزي لسخرية الحيوانات الانسانية منه واستدار وهرب
لا من ألم النار ، بل من السخرية التي أشد إيلاها له وأكثر عمقا في
نفسه ، وهرب الى كيش المخلوقة الوحيدة في العالم التي لا تسخر
منه .

وجاء الفسق وحل الليل ورقد « الثاب الابيض » بجوار أمه
ولسانه وانفه يؤلمانه ولكن اثار حيرته أمر آخر أشد من هذا الألم وهو
الحنين الى موطنه اذ أحس بين جنبه فراغا وحاجة الى سكن الفدير
والكهف ورأى ان الحياة قد أصبحت شديدة الزحام ففيها الكثير
من الحيوانات الانسانية من رجال ونساء وأطفال وجميعهم يصرون
ضوضاء ، ويسببون مضايقات ، ثم فيها الكلاب المشاغبة المشاكسة التي
تثير ضجة عارمة واضطرابا صاخبا وافتقد العزلة المريحة التي تتصف
بها الحياة الوحيدة التي عرفها . هنا ينبض الهواء نفسه بالحياة وفيه
طين وودى لا ينتهيان وتتغير كثافة هذا الطين وذاك الدوى باستمرار
وتتغير حدته فجأة فيؤلم اعصابه وحواسه ويزعجه باستمرار توقع
الاحداث .

وراقب « الثاب الابيض » الحيوانات الانسانية وهي تدخل المخيم

وتخرج منه وتتحرك حوله ونظر الى الحيوانات الانسانية امامه على نحو
يشبه من بعيد حال البشر وهم ينظرون الى الهة من صنمهم . وهذه
الحيوانات الانسانية عنده مخلوقات سامية وآلهة حقيقية وهى فى
ادراك البشر هى مخلوقات ذات تسلط ولها كل امكانيات المجهول
والمستحيل وهى تسيطر على كل ما هو حى وكل ما هو غير حى وتلزم كل
شئ يتحرك بالطاعة لها وتنب الحركة لكل مالا يتحرك وتصنع
الحياة .. الحياة اللاسعة التى فى لون الشمس من العشب الميت
والخشب انها صانعة النار ، انها الالهة !

الفصل الثانى

الأسر

وعاش « الناب الابيض » أياما حافلة بالتجارب وظل طوال الايام التى قضتها كيش مقيدة بالمصا يجرى فى جميع أنحاء المخيم يفحص ويفتش ويتعلم وعرف الكثير من أساليب الحيوانات الانسانية بسرعة، ولكن هذه اللفة لم تبعث فيه الشعور بازدياد تلك الحيوانات الانسانية بل انه كلما ازداد معرفة لها زاد لديه تأكيد تفوقها وزادت فى نظره مظاهر قواها الغامضة وزادت مشابقتها للالهة .

وكثيرا ما حزن الانسان وهو يرى آلهته يسقط من عروشها ومذابحه وهى تنهدم أما الذئب والكلبة البرية اللذان جاءا يقبعان عند قدمى الانسان فانهما لم يعانيا هذا الحزن . وتتميز آلهة الانسان بأنها غير منظورة وانها وليدة التكهن المبالغ فيه وانها أبخرة وضباب صنعها خياله فهى تروغ من ثوب الحقيقة وانها أطيايف الطبيعة والقوة المرجوة والهائلة وانها نتاج ذاتى متشاك فى دنيا الروح . أما الهة الذئب والكلبة البرية اللذين جاءا الى النار فهى الهة من لحم حى متين عند لمسه تشغل حيزا من الارض وتستغرق وقتا فى تحقيق أغراضها ووجودها . وليس ضروريا بذل جهد من الايمان بمثل هذه الالهة ولا يجدى بذل أى جهد من ارادة للاغراء بعدم الايمان بمثل هذه الالهة ولا مهرب منها . ان واحد هذه الالهة يقف على قدميه والعصا بيده له قوة هائلة وهو متحمس وغاضب ومحب . انه الغموض والقوة وقد اجتمعا فى لحم يدمى اذا جرح ومذاقه طيب كائى لحم آخر .

وهكذا كان الامر مع الناب الابيض فهو يرى فى الحيوانات الانسانية الهة لا يمكن اخطاؤها ولا مهرب منها . وقد قدمت أمه كيش ولدها لتلك الالهة عندما صاحت تلك الالهة اسمها لأول مرة وهكذا بدأ يقدم ولده هو الآخر . فاقرب بأن الطريق والمرور فيه امتياز لهذه الالهة من غير شك واذا رآها تمشى فى الطريق أفسحه لها ، واذا نادته لى النداء ، واذا هددته انكمش وانطوى على نفسه ، واذا أمرته بالابتعاد اسرع على عجل بالابتعاد عنها ، لان وراء أية رغبة من رغباتها قوة تستطيع فرض تنفيذها بالقوة ، وهى قدرة تؤذى قدرة تظهر

صورتها فى الركل والعصى والحجارة المتطايرة ولسعات السياط .
كان تابعا لتلك الالهة شأنه فى ذلك شأن كل الكلاب وهى التى
تتحكم فى أعماله ، كما أن جسده ملك لها تنهشه وتدوسه وتحمله
هذا هو الدرس الذى تلقنه بسرعة ، وكان درسا قاسيا لانه مضاد لكل
ما هو قوى ومسيطر فى طبيعته ، واذا كان يكرهه أثناء تعلمه الا انه
بدأ يتعلم كيف يحبه دون علم منه بذلك . وكان بهذا يضع مصيره فى
أيدى غيره ، وينقل مسئوليته عن وجوده الى عاتق غيره وهذا فى حد
ذاته تعويض لان الاستناد الى اخر اسهل دائما من الوقوف الذاتى .
ولكن تسليمه نفسه جسدا وروحا للحيوانات الانسانية لم
يحدث كله فى يوم واحد . فما كان مستطيما أن يتخلى مباشرة عن
ترائه الوحشى وذكرىات حياته البرية وجاءت أيام زحف فيها الى حافة
الغابة ، ووقف وانصت الى شيء يناديه من بعيد جدا ، ولكنه عاد دائما
قلقا لا يشعر بالراحة لينهذه فى حزن بجوار كيش ، ويلمق وجهها
بلسان متحمس متسائل .

وتعلم « الناب الابيض » بسرعة طرق الحياة فى المخيم وعرف ظلم
وجشع الكلاب الاكبر سنا عندما يلقي اللحم والسمك لها لتأكله .
وعرف أن الناس اكثر عدلا وأن الاطفال أشد قسوة ، وان النساء
أكثر رحمة وقابلية لأن يلقين اليه بقطعة من لحم أو عظم . وبعد
مغامرتين أو ثلاث مغامرات مؤلمة مع أمهات الجراء النامية بعض النمو
عرف أنه من الحكمة دائما أن يدع مثل هذه الامهات وشأنها والابتعاد
عنها ما أمكنه ذلك وتحاشيها عند رؤيتها قادمة .

ولكن أكبر ما نفص عليه حياته الجرو لبلب ، فهو أكبر منه حجما
وسنا وأقوى منه . وقد اختاره لبلب ليخصه باضطهاده . وكان
« الناب الابيض » يقاتل عن طيب خاطر ولكن لبلب كان متفوقا عليه
اذ انه أكبر منه كثيرا ولقد أصبح كابوسا مخيفا له . وكلما ابتعد عن
أمه ظهر لبلب وجاء فى أعقابه يزمجر فيه ويكشر له عن أنيابه ويترقب
فرصة لا يكون فيها أحد الحيوانات الانسانية قريبا ليقفز عليه ويكرهه
على القتال وهو واثق من انتصاره عليه مما جعله يستمتع بذلك
استمتعا كبيرا . وأصبح هذا أكبر بهجة له فى الحياة كما أصبح أكبر
عذاب « للناب الابيض » .

ولكن هذا لم يؤد الى اخضاع « الناب الابيض » اذ بالرغم من أنه
كان يتحمل معظم المعطب وكان نصيبه الهزيمة دائما ، الا أن روحه

ظلت عالية ، ومع ذلك فقد أسفر هذا عن نتيجة سيئة ذلك أن « الناب الابيض » أصبح شريرا مشاكسا . كانت الوحشية طبعا فيه بحكم مولده ولكنه صار أكثر وحشية بفضل هذا الاضطهاد الذي لا نهاي له ولم يعد للجانب الطغوى العابت الالهى منه وجود . ولم يعد يلعب مع الجراء الاخرى فى المخيم لان لبلب لم يسمح له بذلك اذ حالما يظهر « الناب الابيض » بالقرب من تلك الجراء ياخذ لبلب فى مشاكسته ومعاندته ، أو مقاتلته حتى يبتعد عنها .

واسفر هذا عن سلب « الناب الابيض » طفولته ، وجعله أكبر سنا من حقيقته . ولما حرم من منفذ لطاقاته عن طريق اللعب انطوى على نفسه وانطلق فى عمليات عقلية . وأصبح مأكرا لما لديه من الفراغ الذى شغله فى ابتكار الحيل . ولما حرم من الحصول على نصيبه من اللحم والسمك وقت اطعام كلاب المخيم أصبح لصا ماهرا ، اذ كان عليه أن يكفل أمر طعامه بنفسه وأجاد تدبير ذلك وأصبح كارثة على المخيم اذ تعلم التسلل حول المخيم والمكر ومعرفة ماذا يجرى فى كل مكان ورؤية وسماع كل شئ وابتكار وسائل ناجحة ليتحاشى مضطهده الذى لا يلين .

وفى الايام الاولى من اضطهاده لعب اول لعبة مأكرة كبيرة حقيقية له وبهذا حقق اول انتقام له . فكما كانت كيش اثناء حياتها مع الذئاب تفرى الكلاب بالخروج من المخيمات لكى تلتهمها الذئاب كذلك فعل « الناب الابيض » على نحو يشبه هذا بعض الشئ عندما أغرى لبلب واتى به الى فكى كيش المنتقمتين . وذلك بأن اخذ يتقهقر أمام لبلب ويهرب منه بطريقة غير مباشرة داخل المخيمات العديدة وخارجها وهو يجيد العدو ، ويفوق فى السرعة أى جرو من حجمه كما يفوق لبلب نفسه الا أنه لم يجر اثناء هذه المطاردة بملء قوته بل احتفظ بوجود مسافة قصيرة بينه وبين لبلب .

وأثارت المطاردة لبلب ودفعه القرب المستمر بينه وبين « الناب الابيض » الى نسيان الحذر والمكان . وعندما تذكر المكان كان الاوان قد فات . اذ جاء مندفعاً بأقصى سرعته حول أحد المخيمات فاصطدم بكيش وهى راقدة عند أحد طرفى العصا ، وصاح صيحة رعب واحدة ثم أطبقت فكها عليه . كانت مقيدة ولكنه لم يستطع الافلات منها بسهولة . وقلبت على ظهره فلم يستطع الجرى وعضته بأنيابها عدة مرات .

وعندما تدحرج بعيدا عنها زحف واقفا على اقدامه وهو مشعث، وقد أصابه الاذى جسدا وروحا . وكان شعره منتصباً حول جسده وأطلق عواه الصغير الكسير . ولكنه لم يستمر طويلا في العواء اذ لم يسمح له « الناب الابيض » بذلك بل غرس اسنانه في أحد ساقيه الخلفيتين ولم تكن في لبلب أية طاقة للقتال فجرى بصورة مخزية وفريسته في أعقابه يزعجه طول طريق عودته الى مخيمه . وهنا جاء الهنود لنجدته وقد تحول الناب الابيض الى شيطان نائر واضطر الى الابتعاد تحت وابل الحجارة .

وجاء اليوم الذي رأى فيه السمرور الاغبر أنه لم يعد من المحتمل أن تهرب كيش فأطلق سراحها وابتهج الناب الابيض بحرية أمه وصحبها في تجوالها في أنحاء المخيم وهو مبتهج كل الابتهاج اذ انه ما دام قريبا منها فان لبلب يظل بعيدا عنه مسافة بعيدة . بل ان « الناب الابيض » كان ينفش شعره ويمشى متوتر السيقان ، ولكن لبلب أخذ يتجاهل التحدى لانه لم يكن أحق . ومهما اشتدت رغبته في الانتقام فإنه استطاع الانتظار حتى ينفرد بالناب الابيض وحده . وبعد ظهر ذلك اليوم شردت كيش و « الناب الابيض » حتى أطراف الغابة المجاورة للمخيم . وكان هو الذي قاد أمه الى هناك خطوة خطوة . حتى اذا توقفت حاول اغراءها بالتدخل في الغابة اذ كان الغدير والعرين والغابات الهادئة تناديه وأراد لأمه أن تضي معه ، وجرى بضع خطوات ثم توقف ونظر وراه ولكنها لم تتحرك وبكى لها متوسلا وأخذ يجرى هنا وهناك مداعبا تحت الشجيرات القصيرة . وجرى نحوها ولحق وجهها ثم عاد يجرى مبتعدا عنها ثانية ومع ذلك لم تتحرك ، وتوقف وأخذ ينظر اليها وكله اصرار وحساس ظهرا في تعبيرات جسده ولكن هذا كله ذاب واضمحل عندما أدارت رأسها ووجهت أبصارها الى المخيم .

كان في البراري شيء يناديه . سمعت أمه أيضا هذا النداء ولكنها سمعت أيضا النداء الآخر الاعلى صوتا - نداء النار والانسان . النداء الموجه الى الذئب والكلبة البرية وهما اخوان دون جميع الحيوانات . واستدارت كيش ، وأخذت تركض عائدة الى المخيم فقد كانت سيطرة المخيم عليها أقوى من قبضة العصا . ظلت الالهة غير المنظورة مسطرة عليها لا تسمح لها بالذهاب وجلس « الناب الابيض » في ظل شجرة التامول وأخذ يبكي بصوت خافت . كانت في الهواء رائحة

الصنوبر القوية وعبير الغابة الوديع يذكرانه بحياة الحرية القديمة قبل أيام أسره . ولكنه لم يعد أن يكون جروا ناميا بعض النمو وكان نداء أمه أقوى من نداء الإنسان أو نداء الغابة فهو يعتمد عليها كل ساعات حياته القصيرة ، ولم يأت بعد أوان الاستقلال وهكذا نهض . وأخذ فى قنوط عائدا الى المخيم وهو يتوقف بين لحظة وأخرى ويجلس ويبكي وينصت الى النداء وهو يرن فى أعماق الغابة .

والفترة التى يقضيها الصغير مع أمه فى البرارى فترة قصيرة ولكنها فى مملكة الإنسان أقصر أحيانا . وهكذا كان الامر مع « الناب الأبيض » . كان السمرور الأغبر مدينا لصديقه الذى أزمع الرحيل على طول نهر ماكنزى نحو بحيرة العبد الكبير فسدد السمرور الأغبر دينه هذا لصديقه شريطا من القماش القرمزى وجلد دب وعشرين خرطوشة وكيش . ورأى « الناب الأبيض » أمه وهى تنقل الى قارب الصديق ، وحاول أن يتبعها فضربه الصديق ضربة أوقعته على الأرض ، ومضى القارب ، وقفز فى الماء وسبح وراءه وهو لا ينصت لصيحات السمرور الأغبر اذ يأمره بالعودة وتجاهل « الناب الأبيض » الحيوان الإنسانى الذى يراه الها له تحت تأثير الهلع الذى انتابه لفقد أمه .

ولكن الالهة تعودت الطاعة ، وركب السمرور الأغبر الغاضب قاربا وراءه وعندما بلغ « الناب الأبيض » مد يده وأمسك قفاه ورفع من الماء ولم يضعه فى قاع القارب على الفور ، بل ظل ممسكا به بيده فى الهواء وأخذ يضربه باليد الأخرى ضربا مبرحا ، ويد السمرور الأغبر ثقيلة وكل ضربة تحمل « للناب الأبيض » ألما جديدا وتعددت الضربات

وانهالت الضربات على « الناب الأبيض » مرة فى جنب ومرة أخرى فى الجنب الآخر ، وحركته مع كل ضربة مرة يمينا ومرة أخرى شمالا كأنه بندول الساعة . واختلعت العواطف التى تارت بين جنبيه . سيطرت عليه المفاجأة فى أول الامر ثم سيطر عليه خوف مؤقت حين صاح عدة صيحات من أثر الضرب وقوة وقع اليد . ولكن جاء عقب ذلك الغضب وأكلت طبيعته الحرة ذاتها وكشف عن انيابه ، وزمجر فى غير خوف فى وجه الاله الغاضب . ولكن هذا لم يسفر الا عن زيادة الغضب وتلاحقت الضربات وزاد ايلامها .

واستمر السمرور الأغبر فى الضرب واستمر « الناب الأبيض » فى الزمجرة ولكن هذا لم يكن ليسستمر الى الأبد ، ولابد من أن يكف أحدهما عما هو فيه . وكان الذى كف عما هو فيه « الناب الأبيض » ،

اذ هيمن الخوف عليه من جديد . فلأول مرة في حياته يضربه انسان ضربا حقيقيا فعنده بالضربات بين حين واخر بالعصا والاحجار مما تعرض له من قبل وهي لمسات هينة اذ هي قورنت بما يلقاه الان . وانهار وبكى . وظل بعض الوقت يبكي لكل ضربة ، ولكن الخوف استحال رعبا واخيرا تعاقب بكاؤه واصبح متصلا ولم يعد يتقطع مع مرات الضرب .

واخيرا اوقف السمرور الاغبر يده وظل الباب الابيض معلقا في حذر وهو يبكي واحس سيده أن هذا يرضيه فالتقى به في خشونة في قاع القارب . وفي اثناء ذلك مضى القارب في الغدير . والتقط السمرور الاغبر المجذاف وكان « الباب الابيض » معترضا طريقه فازاحه بقدمه في قسوة وفي تلك اللحظة عادت طبيعة « الباب الابيض » الحرة اليه ثانية وغرس أسنانه في قدم سيده وهي بجذائها .

وكان الضرب الذي ناله لا يقاس بما انهال عليه بعد هذا . اذ اصبح غضب السمرور الاغبر رهيبا ، وبالمثل أصبح خوف « الباب الابيض » . ولم يكتف سيده بضربه بيده هذه المرة بل استخدم المجذاف الخشبي ايضا في ضربه واصيب جسده الصغير بعدة جراح وآلام حتى ألقي به ثانية في قاع القارب . ومرة أخرى ركله السمرور الاغبر بقدمه متعمدا ، ولم يكرر « الباب الابيض » هجومه على قدم سيده . فقد تلقى درسا اخر من دروس الاسر ولن يجرؤ أبدا فيما بعد مهما كانت الظروف على عض الاله الذي هو سيده ومولاه . واصبح جسد سيده ومولاه مقدسا لا يجب أن تدنسه أسنان كاسنانه . فهذه بداهة كبرى الجرائم والذنوب الذي لا يغتفر ، ولا يجوز تجاهله .

وعندما لمس القارب الشاطئ ظل « الباب الابيض » قابعا في قاعه يبكي وينهه ولا يأتي بحركة منتظرا ارادة السمرور الاغبر ، واراد السمرور الاغبر له أن يذهب الى الشاطئ فالتقى به على الشاطئ حيث وقع على جنبه فآلمته جراحه من جديد ، وزحف مرتعدا حتى وقف على أقدامه وهو ينهه ، واندفع لبلب الذي شهد العملية كلها من الشاطئ نحو الباب الابيض وأوقفه على الارض وغرس فيه أسنانه ، وكان الباب الابيض من الضعف بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه ولولا اندفاع قدم السمرور الاغبر نحو لبلب ورفعها اياه في الهواء بكل ما فيها من عنف الى حد دفعه على بعد عشرة أقدام لطال ايلام لبلب اياه ، هذه هي عدالة الحيوان الانساني وحتى ذلك الوقت وبالرغم

من المحنة المثيرة للشفقة التي كان « الناب الابيض » فيها فانه أحس هذا العرفان بالجميل . وهكذا تعلم « الناب الابيض » أن حق العقاب شيء تحتفظ به الالهة لنفسها وتنكره على المخلوقات التي هي دونها . وفي تلك الليلة ، والدنيا ستكون تذكر « الناب الابيض » أمه وحزن لها ، وحزن بصوت عال فأيقظ السمر الاغبر فقال ما استحقه من عقاب لهذا الايقاظ . وبعد ذلك أصبح وديعا في حزنه في حضرة الالهة . ولكنه أحيانا كان يشرد وحيدا حتى طرف الغابة ، وهناك يستسلم للحزن ويصرخ عاليا منتحبا منها .

وفي خلال هذه الفترة انصت لذكريات العرين والغدير وجرى يمدو عائدا الى البرارى . ولكن ذكرى أمه استوقفته . وكما تذهب الحيوانات الانسانية للصيد وتمود ، كذلك قد تمود أمه يوما ما وهكذا بقى في الأسر ينتظرها .

ولكن الأسر ليس شقاء كله ، فهناك شيء كثير يثير اهتمامه . شيء يحدث دائما ، ولم يكن هناك حد للأشياء الغريبة التي يفعلها هؤلاء الالهة وفضوله دائم للرؤية . وفضلا عن ذلك فقد بدأ يتعلم كيف يساير السمر الاغبر . وكان المنتظر منه أن يكون مطيعا طاعة عمياء لا انحراف فيها ، وفي مقابل ذلك لا يتاله ضرب وتصبح حياته محتملة وأحيانا يلقي السمر الاغبر اليه قطعة لحم ويدافع عنه ضد الكلاب الأخرى ، وهو يأكل قطعة اللحم ولها قيمتها ، ولم يكن السمر الاغبر يربت عليه أو يدله ، وربما كان ثقل يد السمر الاغبر أو عدالته أو مجرد قوته أو هذه كلها معا هي التي تؤثر في « الناب الابيض » لان رابطة معينة بدأت تتشكل بينه وبين مولاه الوائق من نفسه .

واغلل أسر « الناب الابيض » هي المكر والدهاء ، وقوة العصا والحجارة وضربة اليد وجعلت صفاته النوعية في البداية من الممكن أن يقترب من نيران البشر ، وهي صفات قابلة للنمو ، وقد نمت فيه ، وكانت نيران المخيم المشحونة بالشقاء تزداد قدرا عنده طول الوقت ، ولكنه لم يدرك ذلك . لم يعرف سوى الحزن لفقد كيش والامل في عودتها واللهفة المتعطشة للحياة الحرة التي كانت له من قبل .

الفصل الثالث المنبوذ

واستمر لبلب على سلوكه هذا مع « الناب الأبيض » يجعل أيامه كلها سوداء حتى أصبح « الناب الأبيض » شريرا ومتوحشا على نحو يزيد كثيرا عما تؤهله له طبيعته ، لقد كانت الوحشية جزءا من تكوينه ولكن الوحشية التي اكتسبها من معاملة لبلب له زادت كثيرا عن وحشيته الطبيعية بل لقد اشتهر بالشر حتى بين الحيوانات الانسانية نفسها . اذ كلما ثارت متاعب وضجة وقتال ونزاع أو صياح أحد الهنود بسبب سرقة قطعة من اللحم ، كان مؤكدا أن « للناب الأبيض » ضلعا في هذا الأمر ، بل انه اساسه عادة . ولم يشغلوا أنفسهم بالبحث عن اسباب سلوكه بل اكتفوا برؤية الآثار وهي آثار سيئة . كان لصا متسللا مؤذيا ومسببا للمتاعب . وكان الهنود يقولون رأيهم هذا فيه في وجهه بينما ينظر اليهم في يقظة واستعداد لتفادى أى حجر قد يلقي عليه كان ذلحا حقيرا مقدرا له أن ينتهي نهاية سيئة .

ووجد نفسه منبوذا وسط المخيم الأهل بالسكان . وحدث جميع الكلاب الصغيرة حذو لبلب . ربما أحسوا فيه أنه من اصل برى فشعروا نحوه شعورا غريزيا بالعداوة ، وهو الشعور الذي تكنه الكلاب المستأنسة للذئب . ولكن كائنا ما كان الامر فان هذه الكلاب الصغيرة انضمت الى لبلب في اضطهاده « الناب الأبيض » . واذا أعلنت هذه الكلاب عداوتها كثيرا ما نالها أذى من أنيابه فهو اذا انفرد بأحدها انهال عليه غضا والجهاء الى الفرار ولكن الكلاب لم تسمح له في الغالب بأن يلقاها فرادى . وكلما بدأ قتال ضد « الناب الأبيض » توافرت كل كلاب المخيم للاشتراك في مهاجمته .

وتعلم من هذا القتال الجماعي شيئين هامين هما كيف يأخذ حذره في قتاله ضد القطيع وكيف يحدث في الكلب الواحد أكبر عطب ممكن في أقل فترة ممكنة من الزمن . وكان الثبات في الموقف وسط كتلة معادية معناه الحياة وهذا أمر أجاد فهمه وتعلمه . واصبح كالقط ماهرة في الوقوف على أقدامه . حتى الكلاب الكبيرة كانت تقلبه الى الوراء أو

الى احد الجنين بدفعه باجسامها الثقيلة ولكنه فى كل حالة من هذه يحتفظ باقدامه ثابتة تحته .

وعندما تتقاتل الكلاب تقدم للقتال الفعلى بالزمجرة والتكشير عن الانياب ونفش الشعر وتوتر السيقان . ولكن « الناب الأبيض » تعلم كيف يخوف هذه المقدمات اذ أن فى التأخير احتمال لتعرضه لهجوم جميع الجراء بينما يجب عليه أن ينهى عمله بسرعة ويهرب ، وهكذا تعلم ألا يقدم نذيرا بما يعتزمه بل يندفع ويعض على الفور بدون انذار وقبل أن يستطيع عدوه الاستعداد له . هكذا تعلم كيف يلحق بعدوه عطبا شديدا سريعا كما تعلم قيمة المفاجأة . والكلب الذى يؤخذ على غرة وتنشق كتفه أو تمزق اذنه شرائح قبل أن يعرف ماذا يجرى له يذهب عنه نصف قوته .

وفضلا عن ذلك فقد أصبح سهلا عليه بدرجة ملحوظة أن يقلب كلبا بالمفاجأة ، فاذا انقلب انكشف باطن عنقه الفص مدى لحظة - وهذا هو المكان المعرض للهجوم ، والذى يمكن ضربه فيه والقضاء على حياته . وعرف « الناب الأبيض » هذه النقطة وهى معرفة ورنثا مباشرة عن جيل من الذئاب الصائدة . فطريقة « الناب الأبيض » فى الهجوم هى أن يجد جروا وحيدا أولا ، وأن يفاجئه ويوقعه على الأرض ثانياً وأن يقبض بفيه على عنقه ثالثا .

ولما كان ناقص النمو فإن فكه لم يكونا كبيرتين أو قريتين بدرجة كافية لجعل هجمته قاتلة وكثيرا ما حملت الجراء فى المخيم آثار « الناب الأبيض » فى أعناقها من تمزق وتهتك . واستطاع ذات يوم أن يتصيد أحد أعدائه وحده عند حافة الغابة ، وأن يقلبه عدة مرات ، وفى كل مرة يهاجم عنقه ، وفى احدى هذه المرات قطع وريده ففقى على حياته . وفى تلك الليلة ثارت ضجة كبرى اذ رآه القوم وهو يقوم بهذا العمل وبلغ الخبر صاحب الكلب الميت وتذكر الهنود حوادث سرقات اللحم وانزعج السموور الأغبر من الاصوات الغاضبة ولكنه أبقى باب خيمته عليه محكما واحتفظ داخلها بالمجرم ورفض السماح لاحد بالانتقام منه .

وأصبح الناس والكلاب كارهين « للناب الأبيض » . وفى أثناء هذه الفترة من نموه لم يعرف للامن طعاما . أصبح ناب كل كلب سلاحا مشهورا ضده وكذلك كانت يد كل انسان ضده . فالكلاب تبادره بالزمجرة والبشر يواجهونه باللعنات وقذف الاحجار وعاش فى توتر فكان دائما منتبها متوثبا للهجوم حذرا ضد أى هجوم قد يقع ضده

يفتح عينيه مخافة اية حجارة تلقى عليه مفاجأة ، وهو مستعد دائما للعمل فوراً وبهدوء وللوئب مهاجماً كاشفاً عن أنيابه أو اللوئب هارباً مكشراً عن أنيابه متهدداً متوعداً .

وهو من ناحية الزمجرة أشد رهبة من أى كلب آخر فى المخيم صغيراً كان أم كبيراً والمقصود بالزمجرة التحذير أو التخويف ، ولا بد من معرفة متى يجب استخدامها . ولقد عرف « الناب الأبيض » كيف يستخدمها ومتى يستخدمها . وهو يضمن زمجرته كل شر وخبت وهول . فأنفه المنفخن من اثر التقلصات المستمرة ، وشعره المنتشر فى موجات متعاقبة ولسانه المتدلى كأنه حية حمراء واذناه المفرطحان الى ادنى وعيناه البراقتان تنفتان كراهية وشفته المنكمشتان الى الوراء وأنياه المكشوفة ، كل هذا معا يكره أى مهاجم على التوقف . وهذا التوقف المؤقت من جانب المهاجم يتيح الفرصة الحيوية للناب الأبيض لكى يحدد العمل الذى يقوم به ولكن غالباً ما يطول هذا الموقف وينتهى بعدول المهاجم عن هجومه . وساعدت الزمجرة الناب الأبيض أكثر من مرة أمام الكلاب الكبيرة فى التفهقر بصورة كريمة .

ولما كان « الناب الأبيض » متبوزاً من القطيع فان وسائله الدموية وكفائته الملحوظة جعلت القطيع يدفع ثمن نبذه اياه ، ذلك أنه لم يستطع أحد أفراد القطيع الابتعاد عن القطيع لأن « الناب الأبيض » لم يكن يسمح بذلك بما كان يعتمد اليه من ترصد وترقب ، الامر الذى أصبح مبعث خوف الجراء فتعمد الى التجمع بقصد الحماية المتبادلة ضد عدوها الرهيب ، الا أن لبلب لم يكن يسلك هذا السلوك . وكان معنى وجود جرو منعزل عند شاطئ النهر أنه يعرض نفسه للموت أو ليعود الى المخيم ليثير ضجة هائلة بعوائه من أثر الالم الذى يناله من جرو الذئب .

ولكن اعمال « الناب الأبيض » الانتقامية لم تكف حتى بعد أن تعلمت الجراء تماماً وجوب تجمعها ، اذ كان يهاجمها فرادى وكانت هى تهاجمه جماعات ويكفى جداً أن تراه لتبدأ هجومها عليه ، وفى هذا الوقت تحمله سرعتة عادة الى مأمن . وويل عندئذ للكلب الذى يسبق رفاقه فى مطاردة « الناب الأبيض » فقد تعلم هذا أن يستدير فجأة ، وينقلب على مهاجمه الذى يكون قد سبق القطيع ويمرزه قبل وصول بقية القطيع وكثيراً ما حدث هذا اذ عندما تتجمع الكلاب وتتصايح وتندفع جماعة تنسى انفسها فى نشوة المطاردة بينما لا ينسى « الناب

الابيض » نفسه أبدا بل هو يختلس النظرات الى الوراء أثناء جريه وهو دائما على استعداد للاستدارة فجأة ومواجهة المطارد الذى يبالغ فى تحمسه ويسبق رفاقه .

ولابد للجراء من اللعب وقد وجدت فى عمليات الهجوم على « الناب الابيض » لعبة لها ، وهكذا أصبحت مطاردة « الناب الابيض » أكبر لعبة عند هذه الجراء وهى لعبة قاتلة وخطرة على كل المشتركين فيها . أما « الناب الابيض » من ناحية أخرى فإنه لما كان اسرع جريا فهو لا يخشى المغامرة بالذهاب الى أى مكان . وفى خلال الفترة التى انتظر فيها عودة أمه عبثا قاد القطيع عدة مرات وهو يطارده الى الغابات المجاورة . ولكن القطيع فى كل مطاردة كان يفقد أثره . وضوضاء القطيع وصيحاته تنذر « الناب الابيض » بوجوده بينما هو وحده يمضى فى سكون بأقدامه المخملية كالشبح بين الاشجار على نحو ما كان أبوه وأمه يفعلان من قبل . وفضلا عن ذلك فهو أكثر ارتباطا بالبرية من تلك الكلاب وأكثر منها علما بأسرارها واستراتيجيتها . ومن أحب حيله اليه هو محو أثره بالماء الجارى وعندئذ يرقد فى هدوه فى اجمة قريبة بينما تتعالى أصوات الكلاب من حوله .

وزادت فى نموه كراهية الكلاب وكراهية البشر له لما كانتا تسببانه من حرب دائمة عليه ، وحرب دائمة من جانبه عليها . ولم يكن المجال مجال حب أو عطف . ولم يكن يدرى شيئا قط عن مثل هذه الامور والقانون الذى تعلمه هو أن يطيع القوى وأن يضطهد الضعيف . وكان السموور الأغبر لها وقويا . ولهذا اطاعه « الناب الابيض » أما الكلب فأصغر منه سنا وحجما وهو ضعيف ولهذا لابد من القضاء عليه . وكان نموه فى اتجاه القوة . ولكى يواجه الخطر الدائم خطر الاذى بل والقضاء عليه نمت فيه صفات الافتراس والوقاية وأصبح اسرع حركة وجريا ، وأشد دهاء ووحشية ومرونة من الكلاب الاخرى . كما أصبح أكثر نحافة منها وأشد صلابة عضلات وأقوى احتمالا واعنف قسوة وأكبر ذكاء ، ولابد له من كل هذه الصفات والا لما استطاع البقاء فى هذه البيئة المعادية التى وجد نفسه فيها .

الفصل الرابع طريق الآلهة

واتيحت الفرصة للناب الأبيض لكي يتحرر في اواخر العام حين قصر النهار وبدا البرد في الهواء . وساد الهرج والمرج القرية عدة أيام كان القوم خلالها يفكون الخيام ، ويحزمون أمتعتهم استعدادا للرحيل لهيئد الشتاء وراقب « الناب الأبيض » كل ذلك بعينين متحمستين وعندما حزمت الخيام وشحنت القوارب فهم « الناب الأبيض » كل شيء . وبدأت القوارب الرحيل واختفى بعضها في أفق النهر .

وقرر ، في اصرار ، أن يتخلف عن السفر ، وانتظر فرصته للتسلل من المخيم الى الغابات وهنا وعلى صفحة الغدير حيث بدأ الثلج يتكون اخفى أثره وزحف الى قلب اجمة وانتظر . ومر الوقت ونام نوما متقطعا ساعات طويلة . وعندئذ أيقظه صوت السمور الأغبر ، وهو يناديه باسمه ثم سمع اصواتا أخرى . وسمع « الناب الأبيض » أهل السمور الأغبر يشتركون في البحث عنه وبينهم ابنه ميتساه .

وارتعد « الناب الأبيض » خوفا ، وأحس دافعا يدفعه للزحف خارجا من مخيمه وقاوم هذا الدافع . وبعد انقضاء بعض الوقت لم يعد يسمع صوتا وبعد ذلك بقليل خرج من مخيمه ليستمتع بنجاح تدبيره . وعندئذ ، وعلى حين فجأة ، شعر بالوحدة . وجلس يتدبر أمره وأنصت لصمت الغابة وأزعجه هذا الصمت . وبدأ له خمود الحركة والصمت أمرا منذرا بالشر . وأحس الخطر الكامن ، والذي لا تمكن رؤيته ولا يمكن التكهّن به . وتتابعت في بصيرته الباطنية صور متلاحقة من الذكريات . رأى المخيم ووهج النار ، وسمع أصوات النساء المججلة واصوات الرجال العريضة الخشنه وزمجرة الكلاب . وشعر بالجوع وتذكر قطع اللحم والسمك وهي تلقى اليه أما هنا فلا وجود للحم والسمك . لا شيء سوى الصمت المهدد .

ولقد رقق الأسر طباعه ، كما أضعفه عدم تحمله أية مسئولية ونسى كيف يكسب قوته . وتثأب الليل من حوله . وتعطلت حواسه بعد أن الفت طنين ودوى المخيم وتتابع المناظر والاصوات ، ولم يعد لديه

ما يعمله ولا يراه أو يسمعه • وارهف اذنيه لعله يسمع شيئا يقطع الصمت ، أو يرى مايفتك جمود الطبيعة وأفزح حواسه الخمول ، والاحساس بأن شيئا رهيبا يوشك أن يقع •

واجتاحته نوبة خوف اذ رأى شيئا هائلا بلا شكل محدد • وكان ذلك الشيء ظل شجرة القاه القمر بعد أن انزاحت عنه كتل الغمام • ولما اطمأن بكى بصوت خافت ، وعندئذ كفكف بكاءه مخافة أن يجذب اليه انتباه الاخطار الكامنة •

وانكشمت بعض فروع شجرة من أثر برد الليل ، فأصدرت صوتا عاليا وكانت فروع هذه الشجرة فوقه مباشرة وعوى خوفا ، وسيطر عليه الذعر وجرى في جنسونه نحو القرية ، وأحس رغبة عارمة في حماية الانسان وصحبته وملأت رائحة دخان المخيم خياشيمه ، وكانت اصوات المخيم وصيحاته ترن عالية في اذنيه ، وخرج من الاجمة الى المكان الفسيح الذي غمره ضوء القمر ولم تعد به ظلال أو ظلام • ولم ير أثرا للقرية وكان قد نسي • • لقد ذهبت القرية •

وكف خوفه البرى فجأة • لم يعد هناك مكان يلجأ اليه • وسار في قنوط في ارجاء المخيم المهجور يتشمم أكوام القمامة والخرق • واثار الآلهة ، ولكم كان يسعده وقتئذ أن لو تساقطت عليه الاحجار وقد القاها هندي غاضب ولكم كانت تسعده وقتئذ يد السمرور الأغبر لو أنها هوت عليه غاضبة بل انه كان يرحب في ابتهاج بلبلب والقطيع المزمجر من حوله •

وجاء الى حيث كان مخيم السمرور الأغبر وجلس وسط المكان الذي كان يشغله ورفع أنفه الى القمر ، وأحس حشجة زمجرة في حلقه ، وفتح فمه وعوى عواء كان صيحة القلب الكسير وهو يشكو وحدته وخوفه وحزنه على كيش وكل احزانه وشقائه السابق وكذلك خوفه مما ينتظره من عناء واخطار وكان عواؤه عواء الذئب الطويل ملء حنجرتة والذي ضمنه كل حزنه • وكان ذلك أول عواء له في حياته •

وبدد مجيء النهار مخاوفه ولكنه زاد حدثه • وفرضت عليه الأرض العارية التي كانت منذ قليل أهلة بالسكان حدة الشعور بالوحدة ولم يستغرق وقتا طويلا في اتخاذ قرار فمضى داخل الغابة ، وسار محاذيا شاطئ النهر • وجرى طول نهاره ولم يتوقف للراحة ، وبدا عليه أنه صمم على أن يجرى الى الابد • وتجاهل جسده الحديدي كل نصب •

وحتى بعد أن شعر بالتعب دفعه تراث الاحتمال الذى ورثه عن آبائه الى
المضى قدما الى مالا نهاية له وساعده على دفع جسده الشاكي الى الامام .
وكلما جاور مجرى النهر جرفا عاليا خطرا تسلق الجبال العالية
وراء هذا الجرف . وعند ملتقى الانهار ، تحاشى الانهار المتعارضة مع
مجرى النهر أو سببها . وغالبا ما أتخذ طريقه فوق حافة الماء المتجمدة
وقد حدث أكثر من مرة أن انهار الجليد تحت أقدامه وهوى فى الماء
الشديد البرودة وكافح التيار العنيف لينجو بحياته وهو لا ينفك متتبعا
طريق الآلهة ، وفى احتماله أن يكون هذا الطريق قد ترك النهر ومضى
داخل الارض .

وكان الناب الأبيض يفوق متوسط ذكاء نوعه . ومع ذلك فان
بصيرته لم تتسع بدرجة تكفى لأن تشمل الشاطئ الآخر لنهر ماكنزى
الا يحتمل أن يمضى طريق الآلهة الى ذلك الجانب ، لم يخطر هذا السؤال
بباله قط . وفيما بعد عندما يزد نصيبه من الرحلات ويصير أكبر
سنا وحكمة وتزيد معرفته للطرق والانهار ربما يستطيع وقتئذ أدراك
وتقدير مثل هذه الاحتمالات . ولكن مثل هذه الطاقة العقلية كانت
وقتئذ فى ضمير الغيب . أما الآن فانه ظل يجرى على غير هدى لا يدخل
فى حسابه سوى شاطئ نهر ماكنزى الذى يجرى عليه .

وظل يجرى طول الليل ويخطئ فى الظلام فيضطلم بالعوائق
والعقبات التى تعطله ولكنها لا تحول دون مضيه فى طريقه . وفى ظهر
اليوم التالى كان قد قطع ثلاثين ساعة وهو يجرى وبدأ الحديد فى لحمه
يلين ويتعب وظل احتماله العقل يبقى عليه القدرة على الجرى . وبلغ
ما قضاه أربعين ساعة لم يذق خلالها طعاما فأنهكه الجوع وزاده تكرار
وقوعه فى الماء الثلج هو الآخر تعباً وأفسد مظهر فرائه وألمته كغوف
أقدامه من أثر ما ألم بها من جراح وأخنت تنزف دما . وظل يمرج وزاد
هذا العرج مع مرور الساعات . ومما زاد الامر سوءا تلبد السماء
بالغيوم وتساقط الجليد باردا رطبا يذوب ويتعلق بالفراء ويجعل
الارض زلقة تحت أقدامه ويخفى عنه المناظر التى أمامه كما أخفى
ما بالارض من عدم استواء الامر الذى جعل السير أشق وأكثر ايلاما
لاقدامه .

وكان السمرور الأغبر قد اعتزم أن يخيم تلك الليلة على الشاطئ
الآخر لنهر ماكنزى حيث الطريق الى الصيد . ولكن حدث على هذا
الشاطئ حيث يجرى الناب الأبيض قبل هبوط الظلام أن كان ايل آتيا

الى النهر ليشرب ورائه كلوكوش وهى زوجة السمور الأغبر ولو لم يأت الأيل ليشرب ولو لم يبتعد ميتسياه ابن السمور الأغبر عن الركب بسبب الجليد ولو لم تر كلوكوش هذا الأيل ولو لم يصده السمور الأغبر بطلقة صائبة من بندقيته لتغير سير الاحداث التالية . ولما خيم السمور الأغبر على الجانب القريب من ماكنزى لتجاوزهم الناب الأبيض دون أن يراهم ولو تجاوزهم لظل يمضى فى طريقه اما ليموت واما ليجد طريقه الى أخوته فى البرية وليصبح واحدا منها - ذئبا حتى آخر أيامه وهبط الليل وزادت كثافة الجليد وأخذ الناب الأبيض يعوى بصوت خافت وهو يتعثر ويصرخ حين وقع على أثر جديد على الجليد . وكان الأثر جديدا فعرفه على الفور . ونهته بحماس وتتبع الأثر وهو يبتعد عن النهر ويمضى بين الاشجار والتقطت اذناه أصوات المخيم ورأى وهج النار وكانت كلوكوش تظهو طعاما والسمور الأغبر يعضغ قطعة من الدهن النقي ، وهو جالس . كان فى المخيم لحم طازج ! وتوقع الناب الأبيض الضرب . وألقى على مؤخرته ونفش شعره قليلا عندما فكر فى هذا الامر ثم تقدم مرة أخرى وخشى وكره الضرب الذى عرف أنه ينتظره ولكنه عرف الى جانب ذلك أنه سيشعر براحة الدفء وحماية الآلهة وصحبة الكلاب وان كانت صحبة اعداء الا أنها على كل حال صحبة تشبع حاجته الى الجماعة .

وتقدم زاحفا متذلا فى ضوء النهار وراه السمور الأغبر وكف عن المضغ وزحف الناب الأبيض فى بطء وتذلل زاحفا فى ضعة وخضوع وزحف قدما نحو السمور الأغبر وهو يزداد بطئا مع كل بوصة يقطعها وأخيرا رقد عند قدمي سيده وسلم نفسه لسيطرته راضيا مختارا جسدا وروحا . جاء بمحض اختياره ليجلس بجوار نار الانسان وليحكمه الانسان . وارتعد الناب الأبيض ينتظر العقاب . ولكن الضربة لم تنزل عليه واختلس نظرة الى أعلى . كان السمور الأغبر يقدم له قطعة من الدهن ! وتشمم قطعة الدهن فى أول الامر برقة شديدة وفي شك ثم مضى يأكلها . وأمر السمور الأغبر بأعطائه اللحم وحماء من الكلاب الاخرى أثناء تناوله الطعام . وبعد ذلك رقد الناب الأبيض عند قدمي السمور الأغبر راضيا شاكرا وأخذ يحدق النظر فى النار التى بعثت الدفء فى جسده وأخذ يرمش بعينه ويروح فى النعاس وهو مطمئن الى علمه بأن العز سيحل عليه وهو فى مخيم الحيوانات الانسانية مع الآلهة التى قدم لها نفسه وعليها أصبح معتمدا .

الفصل الخامس

العهد

وبعد أن انتصف شهر ديسمبر مضى السمر الأغر في رحلة على طول نهر ماكنزى ومضى ميتساه وكلوكوش معه . وقاد السمر الأغر زحافة تجرها الكلاب التي اشتراها أو استعارها وقاد ميتساه زحافة أخرى أصغر من زحافته تجرها بعض الجراء . وكانت هذه الزحافة الصغيرة أقرب الى اللعبة منها الى أى شئ آخر . ومع ذلك فقد كانت مصدر ابتهاج لميتساه الذى أحس أنه بدأ يعمل عمل الرجال فى هذا العالم . كما بدأ يتعلم قيادة الكلاب وتدريبها . وفضلا عن ذلك فإن الزحافة كانت تستخدم فى أغراض أخرى اذ كانت تحمل قرابة مائتى رطل من المعدات والغذاء .

ورأى الناب الأبيض كلاب المخيم وهي تجهد نفسها وهي مقيدة بالزحافة ولهذا لم يشعر باستياء كبير من وضع السير حول جسده وأحاطة عنقه يطوق محشو بالعشب شد بقطعتين من الجلد الى شريط أحاط ب صدره وظهره . وفى هذا الشريط ثبت حبل طويل يجذب به الزحافة .

ويضم فريق الناب الأبيض ستة جراء أخرى كانت قد سبقته فى المولد ذلك العام فأعمارها تتراوح بين تسعة وعشرة اشهر بينما الناب الأبيض لم يزد عمره عن ثمانية اشهر . وكان كل كلب مقيدا بالزحافة بحبل واحد . ولم يكن بين هذه الحبال حبلان يشتركان فى الطول ويبلغ الفارق فى الطول بين كل حبل والآخر طول جسد أحد تلك الكلاب . وينتهى كل حبل بحلقة فى مقدمة الزحافة المفرطة والتي نرى طرفها الامامى حتى لا تفرس فى الجليد وبهذا التكوين أصبح ثقلها موزعا على أكبر مساحة ممكنة من الجليد لان الجليد كالبللور المسحوق غاية فى النعومة . وراعت الكلاب نفسها مبدءا توزيع الثقل فانتشرت بحبالها المروحة حتى لا يدوس كلب منها على قدم كلب آخر ولشكل المروحة فضيلة أخرى فالحبال المختلفة الاطوال منعت

الكلاب التي تجرى في المؤخرة من مهاجمة تلك التي تتقدمها . اذ لكي يستطيع كلب مهاجمة كلب آخر لابد له من أن يستدير نحو كلب مقيد بحبل أقصر من الحبل الذي قيد هو به . وفي هذه الحالة يجد نفسه وجها لوجه أمام الكلب الذي يهاجمه كما يجد نفسه في هذه الحالة في مواجهة سوط قائد الزحافة ولكن أهم جميع الفضائل أن الكلب الذي يعمل على مهاجمة كلب آخر أمامه يجنب الزحافة فيزيد سرعتها وكلما زادت سرعة الزحافة زاد ابتعاد الكلب المتقدم عن الكلب الذي يتعمد مهاجمته وتزيد سرعة الزحافة . وكلما أسرع الكلب المهاجم أسرع الكلب المعرض للهجوم وأسرع كل الكلاب وبهذا تمضي الزحافة بسرعة وهكذا استطاع الانسان يدهاته السيطرة على الوحوش .

وكان متساه يشبه أباه وورث عنه الحكمة . كان في الماضي يرقب اضطهاد لبلب للناب الأبيض ولبلب وقتذاك كلب رجل آخر . وما كان ميتسياه يجرو وقتئذ على أكثر من أن يقذفه بحجر والان أصبح لبلب كلبه وكانت وسيلته في الانتقام منه أن يقيد باطول حبل ويجعله المقدم على فريقه وهذا أمر في ظاهره تكريما بينما هو في الواقع انتزع منه كل تكريم وبدلا من أن يكون قويا ومسيذا على القطيع وجد نفسه محل كراهية القطيع واضطهاده .

فانه لما كان مقيدا باطول حبل أصبحت بقية الكلاب تراه وهو يجرى أمامها وكل ما تراه منه هو ذيله الكثيف الشعر وساقاه الخلفيتان وهما تجريان - وهو منظر أقل وحشية واخافة من معرفته الثائرة وأنيابه البراقة . وطبقا للعمليات العقلية عند الكلاب فان منظر لبلب وهو يجرى أمام الكلاب خلق في نفوسها الرغبة في الجري وراه والاحساس بأنه يهرب منها .

ومنذ أن بدأت الزحافة السير والفريق يجرى وراء لبلب في مطاردة تستمر طول النهار . وأوشك في أول الامر أن يستدير على مطارديه غاضبا لكرامته ولكن ميتسياه في مثل هذه الظروف يضربه بسوطه الذي يبلغ طوله ثلاثين قدما فيصيب وجهه ويضطره الى الاستدارة والمضي قدما . ويستطيع لبلب أن يواجه القطيع مجتمعاً ولكنه لا يستطيع مواجهة ذلك السوط فلا مفر عندئذ من أن يجد في الجري حتى يبعد جنبه عن أنياب رفاقه .

ولكن ذهن الهندي يدخر دهاء أكبر من هذا . فان ميتسياه أبقى على المطاردة الى ما لا نهاية بأن فضله على الكلاب الاخرى فاخذ يخصه

دونها بالاعطيات وبهذا زادت غيرتها منه وكراهيتها له . فكان ميتساه يخصه بقطع اللحم على مرأى من الكلاب الأخرى مما كان يسبب لها الجنون فتثور هائجة غاضبة وتدور فى هياجها وغضبها ولكن فى حلقة لا يصل إليها السوط عندها بينما يلتهم لبلب اللحم تحت حماية ميتساه . وإذا لم يكن الوقت وقت طعام يبقى ميتساه الكلاب الأخرى بعيدا ويتظاهر بتقديم اللحم الى لبلب .

وتلقى الناب الأبيض هذا العمل فى رفق فقد قطع مسافة اطول من المسافة التى قطعتها الكلاب الأخرى فى الاستسلام لحكم الالهة وفهم تماما عدم جدوى معارضة ارادة الالهة وبالإضافة الى ذلك فان الاضطهاد الذى ناله على يد القطيع جعل الانسان اقرب اليه من القطيع لم يتعلم الاعتماد على نوعه فى المصاحبة . وفضلا عن ذلك فان كيش ذهبت ولم يعد لها أثر والمنفذ الوحيد لتعبيره هو الولاء للالهة التى قبل أن تكون سادة له . وهكذا عمل جادا وتعلم النظام والطاعة . وتميز عمله بالاخلاص والرضا . وهذه ميول أساسية فى الذئب والكلب البرى عند استئناسهما وهى فى الناب الأبيض أكثر وضوحا بصورة غير عادية .

وكانت هناك صعبة بين الناب الأبيض والكلاب الأخرى ولكنها صعبة حرب وعداوه . لم يتعلم أن يلعب معها بل لم يعرف سوى القتال فهو يقاتلها ويرد إليها ما كانت تناله به من عض وزمجرة أمام زعامة لبلب للقطيع . ولكن لبلب لم يعد الزعيم . وان تقدمهما فانما يكون ذلك حين يجر الزحافة والكلاب الأخرى ورائه . وعندما يخيمون ليلا يظل على كئيب من ميتساه أو السمر الأغر أو كلوكوش ولم يجرؤ على الابتعاد عن الالهة لان انياب الكلاب أصبحت كلها ضده .

ومن الممكن أن يصبح الناب الأبيض زعيم القطيع بعد خلع لبلب من الزعامة . ولكنه حزين شديد العزلة بحيث لا يصلح للزعامة . واكتفى بضرب رفاقه وفيما عدا ذلك فإنه يتجاهلها . وأخذت تبتعد عن طريقه اذا دنا . ولم يجرؤ أكثرها جرأة على سرقة نصيبه من اللحم بل أنها كانت تلتهم انصبتها من اللحم على عجل مخافة أن ينتزعها منها . وكان الناب الأبيض يعرف القانون جيدا . وهو قانون اضطهاد الضعيف وطاعة القوى . وكان يأكل نصيبه من اللحم بأسرع ما يستطيع ثم يدنو من الكلب الذى لم ينته من تناول نصيبه بعد فيزجر ويكشر عن

أنيا به ويندب الكلب حظه ويشكو للنجوم همه بينما ينوب الناب الأبيض عنه فى التهام نصيبه .

وقد يتور كلب أو آخر من لحظة الى أخرى ولكنه سرعان ما يخضع وهكذا ظل الناب الأبيض مستمرا فى تدريبه . كان حريصا على عزلة وسط القطيع وغالبا ما كان يقاتل للاحتفاظ بهذه العزلة ولكن القتال لم يكن ليطول اذ كان يفوق كل أفراد القطيع سرعة . فكان يصيبها بقطع فى لحمها وينزف دمها قبل أن تنتبه الى ما يحدث لها ويهزمها قبل أن تبدأ القتال .

وبمثل صرامة نظام الالهة كان نظام الناب الأبيض بين رفاقه لم يسمح لها بأى تقارب منه بل كان يكرها على احترامه احتراما لا تهاون فيه . ولها أن تفعل ماتشاء فيما بين بعضها والبعض الآخر اذ أن هذا لا يهمه . وكل الذى يهمه أن تدعه وشأنه فى عزلة وتخلي له الطريق حين يشاء المشى بينها وأن تعترف له طول الوقت بسيادته عليها . فاذا صلب بعضها سيقانه أو رفع شفته أو نفس شعره انهال عليها جميعها بلا رحمة بل بقسوة شديدة ليقتنها بما فى اسلوبها من خطأ .

كان ظالما رهيبا . وكانت سيطرته صلبة كالحديد الصلب . واضطهد الضعيف بانتقامه ولم يشأ أن يغفر مالم يهزمه من كفاح قاس فى سبيل حياته فى الايام التى كان فيها جروا حين كان أمه وحدهما بلا عون فى البيئة المتوحشة فى البرية أو يغفر كيف تعلم أن يشئ فى رقة حين تمر به الحيوانات القوية . فاضطهد الضعيف ولكنه احترم القوى وفى خلال الرحلة الطويلة مع السمور الأغبر سار فى رقة حقا بين الكلاب الكاملة النمو فى مخيم الحيوانات الانسانية الغريبة التى التقوا بها .

ومرت الشهور واستمرت رحلة السمور الأغبر . ونمت قوة الناب الأبيض خلال الساعات الطويلة فى الطريق والعمل المستمر بالزحافة وقد يبدو أن نموه العقلى أصبح قريبا من الكمال . وقد عرف العالم الذى يعيش فيه معرفة تامة وكانت نظراته كثيفة . وكان العالم لناظره عالما وحشيا غنيقا عالما بلا حنان عالما لا وجود فيه للملاطفة والحب والحلاوة البراقة .

لم يكن يكن حبا للسمور الأغبر . صحيح أنه اله ولكنه اله متوحش جدا . وكان الناب الأبيض مسرورا بالاعتراف بسيادة السمور الأغبر عليه ولكنها سيادة تقدم على اساس التفوق فى الذكاء والقوة الوحشية .

وكان في نسيج كيان الناب الأبيض شيء يجعل هذه السيادة أمرا مرغوبا فيه والا لما عاد من البرية وجاء يقدم ولاءه . وكانت في طبيعته أعماق لم يختبرها من قبل وربما وصلت الى هذه الاعماق كلمة طيبة أو لمسة ملاطفة من السمرور الأغبر ولكن السمرور الأغبر لم يلمسه ملاطفا ولم يكلمه كلمة طيبة . فلم تكن هذه طبيعته . كان تفوقه وحشيا وحكمه وحشيا وهو ينفذ قصاصه بالعصا ويعاقب العدوان بالايلام بالضرب ويكافئ عن العمل الطيب لا بالركة ولكن بمنع الضرب .

وهكذا لم يعرف الناب الأبيض شيئا مما يمكن أن تدخره له يد الانسان من نعيم . فضلا عن ذلك فإنه لم يحب أيدي الحيوانات الانسانية اذ كان يشك فيها . وصحيح أنها أحيانا تقدم اللحم ولكنها في أغلب الاوقات توقع الاذى ولا بد له والحالة هذه من الابتعاد عنها فهي تلقى الحجارة وتضرب بالعصا والسياط وتضع وتوجه اللكمات . واذا هي لمسته فانما لتلدغ أو تلوى . ولقد لقي في القرى القريبة أيدي الاطفال وعلم أن هذه الاطفال تتصف بالقسوة وفي ذات مرة كاد أحد الاطفال أن يفتق عينه . ومن هذه التجربة أصبح يشك في جميع الاطفال ولا يستطيع أن يحتملهم . وعندما يقتربون منه بأيديهم المنذرة بالشر ينهض واقفا .

وحدث في قرية عند بحيرة العبد الكبير أن استاء من شر أيدي الحيوانات الانسانية فغير القانون الذي تعلمه من السمرور الأغبر وهو أن الجريمة التي لا تغتفر هي عض أحد الالهة فقد حدث في هذه القرية أن جرى الناب الأبيض على عادة جميع الكلاب في جميع القرى خرج يبحث عن الطعام . وكان غلام يقطع لحم غزال متجمد ببلطة وقطع اللحم تتناثر فوق الجليد وكان الناب الأبيض مارا به في بحثه عن اللحم وبدأ يأكل القطع المتناثرة فوق الجليد . ولاحظ أن الغلام وضع البلطة على الارض وأمسك عصا قوية . فوثب الناب الأبيض بعيدا وتغادى في الوقت المناسب الضربة الهاوية وطارده الغلام . ولما كان غريبا في القرية فإنه جرى بين خيمتين الى أن وجد نفسه محصورا وقد سد جدار عال من الطمي الطريق في وجهه .

ولم يجد الناب الأبيض مهربا اذ كان المخرج الوحيد واقعا بين خيمتين والغلام يعترض هذا الطريق وهو يخبيء العصا استعدادا لضربه بها وأخذ يقترب منه وهو محاصر . وهاج الناب الأبيض وواجه الغلام وقد انتصب شعر جسمه وكثر عن انيابه . وثار فيه احساسه بالعدل .

كان يعلم قانون البحث عن الطعام الذى يقضى بأن تصير كل مخلفات اللحم كمثل هذه القطع المتجمدة الى الكلب الذى يعثر عليها . ولهذا فهو لم يخطئ ولم ينتهك قانونا ومع ذلك فهذا الغلام يستعد لضربه . ولم يدر الناب الابيض ما حدث اذ أنه فعل ما فعل وهو فى ثورة غضب . وجاءت فعلته سريعة للدرجة أن الغلام نفسه لم يدر هو الآخر ما حدث . وكل الذى عرفه الغلام أنه انقلب على الجليد بسرعة لم يتبينها وأن أنياب الناب الابيض مزقت ذراعه المسكة بالعصا .

ولكن الناب الابيض عرف أنه انتهك الالهة اذ غرس أنيابه فى اللحم المقدس وهو لحم واحد من هذه الالهة ولم يعد ينتظر الا أن يناله عقاب رهيب . وهرب الى السمور الأغبر وقبح وراء ساقبه الحاميتين فى الوقت الذى جاء فيه الغلام واسرته تطلب الانتقام . ولكنهم رجعوا دون أن يحققوا انتقامهم لان السمور الأغبر دافع عن الناب الابيض وكذلك فعل ميتساه وكلوكوش . وأنصت الناب الابيض الى الحرب الكلامية وراقب اشارات الغضب وعرف أنهم وجدوا لعمله تبريرا . وهكذا عرف أن هناك آلهة وآلهة . هناك آلهة وآلهة أخرى غيرها وبين هؤلاء وهؤلاء فارق . وسواء كان الحدث عدلا أم ظلما فإنه كان واجبا عليه أن يتلقى جميع الامور من أيدي آلهته . ولكنه لم يكن مضطرا الى أن يتلقى الظلم من الالهة الاخرى . ومن حقه أن يعرب عن استيائه بأسنانه . وهذا أيضا قانون من قوانين الالهة .

وقبل أن ينتهى النهار تعلم الناب الابيض شيئا اخر عن هذا القانون . فقد التقى ميتساه أثناء جمعه حطب الوقود بالفتى الذى عضه الناب الابيض . وكان معه فتیان أخرون . وتبادل الجميع كلمات ملتهبة . وعندئذ هاجم جميع الفتیان ميتساه وكان هجوما عنيفا لا قبل لميتساه به وانهاالت ضربات عليه من كل جانب . ونظر الناب الابيض الى ما يجرى أمامه فى أول الامر . فقد كان هذا الامر خاصا بالآلهة ولا شأن له به . ثم تبين ان هذا هو ميتساه وهو واحد من الهته الخاصة به وأنه يتعرض لمعاملة سيئة . ولم يكن دافعا منطقيا ذلك الذى دفع الناب الابيض الى الاقدام على ما فعله وقتئذ . لقد ثار غضبه ثورة جنونية فوثب بين المتعاركين وبعد خمس دقائق امتلأت الارض بالفتیان الهاربين وقد أخذ الدم يتقاطر من أجسام بعضهم وشهدت صفحة الجليد بأن أنياب الناب الابيض لم تكن متعطلة عن العمل . وعندما قص ميتساه القصة فى المخيم أمر السمور الاغبر بتقديم اللحم الى الناب

الابيض الذى ازدرده وركن الى النار حيث وافاه النعاس وهناك عرف أنه تم التصديق على القانون .

ومما يتفق وهذه التجارب أن تعلم الناب الابيض قانون الملكية وواجب الدفاع عما يملكه الهه يجب الدفاع عنه ضد جميع العالم حتى لو أدى الامر الى عض الالهة الاخرى ولم يكن مثل هذا العمل فى حد ذاته عملا دنسا فحسب بل هو محفوف بالمخاطر فالالهة قوية غاية القوة ولا يستطيع أى كلب أن يكون ندا لها ومع ذلك تعلم الناب الابيض أن يواجهها بوحشية غير هيب ولا وجل . وتقلب الواجب على الخوف وتعلمت الالهة السارقة أن تدع ما يملكه السمرور الأغبر وشأنه وهناك أمر يتصل بهذا وقد تعلمه الناب الابيض بسرعة وهو أن الاله الذى يسرق الهه جبان وعلى استعداد للهروب حالما يسمع صوت النذير . وتعلم أيضا أنه حالما يسمع السمرور الأغبر صوت النذير يسرع الى نجده وعرف أن اللص لم يكن يهرب خوفا منه بل خوفا من السمرور الأغبر . ولم يكن الناب الابيض يوجه نذيره نباحا فإنه لم ينبع قط بل كان يعمد الى مهاجمة الدخيل فورا والى غرس اسنانه فى جسمه اذا استطاع ذلك . ولما كان ميالا للعزلة وغير مخالط للكلاب الاخرى فإنه كان ملائما كل الملاءمة لمهمة حراسة أمتعة سيده وقد شجعه السمرور الأغبر ودربه على هذه المهمة . واسفر هذا عن جعل الناب الابيض اكثر وحشية واكثر عزلة .

ومرت الشهور وزاد توثيق العهد بين الكلب والانسان . كان ذلك هو العهد القديم الذى تشأ بين أول ذئب يأتى من البرية مع الانسان . وقد سار الناب الابيض على هذا العهد كما فعلت جميع الذئاب التالية والكلاب البرية . وكانت شروط العهد بسيطة . ففي مقابل حصوله على الهه من لحم ودم قدم حريته وكان الغذاء والنار والحماية والصحبة بعض ما يتلقاه من الاله . وفى مقابل ذلك يقوم بحراسة أمتعة ذلك الاله . ودافع عن جسده وعمل له وأطاعه .

ويتضمن الحصول على الاله خدمته . وكانت خدمة الناب الابيض خدمة واجب وخوف لا خدمة حب . لم يعرف ما هو الحب ولم تكن له خبرة بالحب . واصبحت كيش ذكرى بعيدة . وفضلا عن ذلك فإنه لم يتخل عن البرية وعن نوعه فحسب حين استسلم للانسان ولكن شروط العهد كانت تقتضى أنه اذا قدر له أن يقابل كيش مرة اخرى فإنه لا يتخل عن الهه ليذهب معها . ولقد بدا ولاؤه للانسان قانونا على نحو ما هو أعظم من حب الحرية والنوع وذوى القربى .

الفصل السادس المجاعة

كان فصل الربيع قد اقترب عندما أتم السمور الاغبر رحلته الطويلة وكان الشهر شهر ابريل وقد أتم الناب الابيض العام الاول من عمره عندما دخلوا قريتهم وحل ميتساه قيود الزحافة . وان لم يتم الناب الابيض نموه الكامل الا أنه كان يعد ولبلب اكبر جراء القرية . وقد ورث عن كل من أبيه الذئب وأمه كيش الضخامة والقوة وأصبح فى مثل حجم الكلاب الكاملة النمو ولكنه لم يتم بناء جسمه . وكان نحيف العود تكمن قوته فى عضلاته لا فى امتلاء جسمه . وكان فرائه فراء الذئب الاغبر الحقيقى بل ان مظهره يقول انه ذئب . ولم تترك نسبة الكلب فيه مما ورثه عن أمه أثرا بدنيا فيه وان ظل يلعب دوره فى تركيبه العقلى .

وأخذ يجوس خلال القرية يتعرف فى رضا على الالهة المختلفة التى كان يعرفها قبل الرحلة الطويلة ، ثم كانت هناك الكلاب والجراء التى تنمو نموه والكلاب الكبيرة التى لم يبدها عليها أنها من الكبر والضخامة كما كانت صورها المنطبعة فى ذهنه عنها وأصبح كذلك أقل خوفا منها مما كان من قبل فهو يسير بينها بلا مبالاة وهذا أمر جديد عليه وأحب الاستمتاع به .

وكان هناك الكلب العجوز باسيك الذى كان فى ماضيه يكفيه أن يكشف عن انيابه ليجعل الناب الابيض ينكمش ويقبع جانبا . وكان الناب الابيض قد تعلم منه قبلا أنه شخصا غير مهم أما الان فانه يتعلم منه الكثير مما اعتراه هو من تغيير وتطور فبينما كان باسيك يزداد ضعفا بسبب شيخوخته يزداد الناب الابيض قوة مع الشباب .

وتعلم الناب الابيض مدى التغير فى العلاقات التى تربطه بدنيا الكلاب أثناء التهام أحد الايائل عقب صيده . فحصل الناب الابيض على حافر وجزء من عظمة الساق وبها جزء كبير من اللحم . وانسحب من زحام الكلاب الاخرى الى مكان بعيد عن الانظار خلف أجمة وأخذ

يلتهم نصيبه وهنا اندفع اليه باسيك ، وقبل أن يدرك ماذا يفعل خدش الناب الابيض ذلك المتطفل عليه مرتين ووثب بعيدا عنه . وفوجئ باسيك بجراته وسرعة هجومه . ووقف يحقق النظر فى غباء نحو الناب الابيض وبينهما عظمة الساق الحمراء .

وكان باسيك عجوزا وقد بدأ فعلا يدرك ازدياد قوة الكلاب التى كان يميل الى مشاغبته ، وعلمته التجارب المرة أن يعالج هذه الكلاب القوية بحكمة الشيخوخة . ولو حدث هذا الامر فى الايام الخالية لوثب على الناب الابيض فى هياج وغضب التأديب ولكن قواه الواهنة الان لا تسمح له بمثل هذا السلوك ونفث شعره بوحشية ونظر الى الناب الابيض قلدا كبيرا من الخوف القديم وبدأ عليه انه سيذبل وينكمش منطويا على نفسه ويتضاءل وهو يقلبه فى خاطره لعله يجد وسيلة للتقهقر لا تكون مشينة .

وهنا أخطأ باسيك . ولو اكتفى بنفث شعره بوحشية وينظرة التهديد والوعيد لسارت الامور كما يشتهى ولترجع الناب الابيض اذ كان على وشك التقهقر . ولكن باسيك لم ينتظر بل اعتبر أنه انتصر فعلا وتقدم نحو اللحم واذا مال برأسه يشم اللحم بلا مبالاة نفث الناب الابيض شعره قليلا ، وحتى فى هذه اللحظة كان قد فات أوان استعادة باسيك الموقف . ولو انه وقف بجوار اللحم رافعا رأسه محدقا البصر لحض الناب الابيض مبتعدا عنه ولكن رائحة اللحم الطازج كانت نفاذة فى أنف باسيك ودفعه الجشع الى أن يقضم منها قضمة .

وكان هذا اكثر مما يحتمل الناب الابيض . ولم يكن عهده بسيطرته على رفاقه فى جر الزحافة قد طال به فلم يستطع ضبط نفسه وأن يقف ساكنا بينما يلتهم كلب اخر اللحم الخاص به ، وهجم كعادته بدون انذار وأطبق فكيه على اذن باسيك فقطعه شرائح وذهل باسيك من هذه الحركة المفاجئة ولكن اكثر الاشياء وأشدّها خطورة تحدث بنفس المفاجأة ووقع على الارض وعضه الكلب الصغير فى عنقه وبينما كان يحاول النهوض على اقدامه غرس الكلب الصغير أنيابه مرتين فى كتفه ، وكانت سرعة هذه الحركات مذهلة ، واندفع باسيك نحو الناب الابيض ولكنه اندفاع غير مجد اذ أطبق فمه على الهواء . وفى اللحظة التالية شق أنفه وترنح متراجعا مبتعدا عن اللحم .

وانقلب الموقف الان ووقف الناب الابيض فوق عظمة الساق بنفث شعره ويهدد بينما وقف باسيك بعيدا عنه يستعد للتقهقر دون

أن يجرؤ على المخاطرة بالقتال مع هذا الكلب الفتى السريع الهجوم وعرف مرة أخرى وعلى نحو أشد قسوة ضعف الشيخوخة وكانت محاولته محاولة بطولية ، وأدار ظهره يهدوء نحو الكلب الصغير وعظمة الساق كما لو كانا غير جديرين بملاحظة أو اعتبار ومضى بعظمة وجلال مبتعدا عنها ولم يتوقف ليلحق جراحه الا بعد أن اختفى عن الانظار .

واسفر هذا الموقف عن ازدياد ثقة الناب الابيض بنفسه وزيادة كبريائه وعاد يمشى بين الكلاب الكبيرة باعتماد بالنفس وأصبح موقفه منها أقل ميلا الى المصالحة ، ولم يكن مبعث هذا انه خرج على أسلوبه في الحياة وانه أصبح ينشد المتاعب . . كلا بل انه كان يطلب أن يأخذه الآخرون مأخذ الاعتبار حين يمشى بينهم . واستمسك بحقه في أن يمشى في طريقه بدون ازعاج وأن يفسح الطريق لاي كلب وكل ما في الامر أنه لابد أن يحسب حسابه لم يعد يقبل اغفاله أو تجاهله كما هو نصيب كثير من الجراء وكما هو نصيب الجراء التي تشاركه جر الزحافة . فهذه الجراء تفسح الطريق للكلاب الكبيرة وتتخلى لها عن اللحم وهي مرغمة . ولكن الكلاب الكبيرة كانت تقبل أن يكون الناب الابيض ندا لها وهو المنعزل الوحيد المتعالى الذى لا ينظر بمنة أو يسره . وتعلمت بسرعة أن تدعه لشأنه دون أن تغامر بالقيام بأعمال عدائية ضده أو حتى التودد اليه واذا هي تركته وشأنه تركها وشأنها ، وقد وجدت الكلاب الكبيرة ، هذا الامر مرغوبا فيه كثيرا بعد بضع لقاءات معه .

ومر الناب الابيض بتجربة في منتصف فصل الصيف ، اذ كان يركض بطريقته الصامتة ليفحص مخيما جديدا نصب عند حافة القرية حين كان غائبا عنها مع الصيادين فاذا به أمام كيش وجها لوجه . ووقف ونظر اليها . وتذكرها تذكر غامضا أما هي فلم تذكره ، ورفعت شفتها له مكشورة عن أنيابها في تهديد ووضحت ذاكرته وعادت اليه ذكرى طفولته وكل ما يرتبط بتلك التذكيرة المألوفة . كانت عنده ثورة الكون قبل أن يعرف الالهة ، وعادت اليه أحاسيسه المألوفة القديمة وثارت بين جوانحه ، وتقدم نحوها مبتهجا وهو يدب بأقدامه وتلقته بأنياب حادة نفذت في خده حتى العظم . ولم يفهم وتراجع متحيرا .

ولكن الغلطة لم تكن غلطة كيش . فالام البرية لا تسمح لها طبيعتها

بأن تتذكر جروها بعد سنة من غيابه عنها . وهكذا لم تتذكر الناب الابيض ، كان بالنسبة لها حيوانا غريبا متطفلا ولديها جراء صغيرة فلها الحق في الاستياء من هذا التطفل .

وامتد أحد الجراء نحو الناب الابيض ، كانا اخوين من أم واحدة الا أنهما لم يعرفا ذلك ، وتشمم الناب الابيض أخاه الصغير في فضول وهنا هجمت كيش عليه مرة أخرى وخذشت وجهه ، وتراجع الى الوراء وماتت كل الذكريات القديمة وعادت الى قبرها الذي كانت قد بعثت منه . ونظر الى كيش وهي تلعق جروها الصغير وتتوقف من لحظة لآخرى لترمجر فيه ، لم تعد ذات قيمة بالنسبة له ، فقد تعلم كيف يسر في الحياة بدونها ، نسي هجمتها ولم يعد لها مكان في تخطيطه للاشياء كما أنه لم يعد له مكان في تخطيطها للاشياء .

وظل واقفا في غباء وحيرة وقد ذهبت عنه الذكريات وتساءل ما هو الامر وعندئذ هاجمته كيش للمرة الثالثة مصممة على طرده نهائيا من جوارها . كانت انثى من نوعه ، ويقضى قانون نوعه بالآ يقاتل الذكور الاناث . ولم يعرف شيئا عن هذا القانون لانه لم يكن تصميميا من صنع العقل كما لم يكن شيئا يكتسب التجربة في هذا العالم ، بل كان يعرفه كحافز خفي غريزي كذلك الحافز الغريزي الذي يجعله يعوى للقمر ونجوم الليل والذي يجعله يخاف الموت والمجهول .

ومرت الشهور . وزاد الناب الابيض قوة وثقلا وامتلاء بينما كانت شخصيته تنمو على أساس الخطوط التي رسمتها وراثته وبيئته . كانت وراثته مادة الحياة التي يمكن أن تشبه بالطين وفيها عدد كبير من الامكانيات ويمكن أن تتشكل أشكالا عديدة مختلفة وقامت البيئة بتشكيل الطين شكلا خاصا ، وهكذا ان لم يحضر الناب الابيض الى فار الانسان لكونته البرية ذئبا حقيقيا ، ولكن الالهة منحته بيئة مختلفة فتشكل كلبا هو أقرب الكلاب الى الذئب وظل كلبا ولم يصبح ذئبا . وهكذا وطبقا لطبقة طبيعته وضغط بيئته تشكل تكوينه شكلا خاصا معيناً ولا مفر من ذلك ، زادت عزلته ووحشيته وزاد علم الكلاب أنه من الافضل لها أن تكون على وئام معه من أن تكون في حرب معه وزاده السمو الاغبر حظوه عنده وتقديره له يوما بعد يوم .

وبالرغم من أن الناب الابيض بلغ سمت القوة في كل ناحية من نواحيه فإنه كان يمانى ضعفا مزعجا وهو أنه لا يحتمل أن يسخر منه أحد فكان ضحك البشر منه شيئا كريها عنده ، وللبشر أن يضحكوا

ما شاء لهم الضحك فيما بينهم الا أن يضحكوا منه ، وفى اللحظة التى يتحول فيها الضحك الى السخرية منه يهيج هياجاً رهيباً فذلك الوقور المحتفظ بكرامته ومهابته يدفعه الضحك منه الى أن يصبح متهوساً لدرجة مضحكة . كان الضحك منه يثيره ويزعجه لدرجة أنه يقضى الساعات وهو يتصرف تصرف مارد جبار . وفى مثل هذه اللحظة ويل للكلب الذى يسخر منه . وكان يعرف القانون الذى كونه من السمرور الاغبر وهو أن وراء السمرور الاغبر عصا ورأس اله أما وراء الكلاب فلم يكن شيء قط سوى الفضاء والى هذا الفضاء تهرب حال ظهور الناب الابيض اذا أثار الضحك جنونه .

وقد حدثت مجاعة فى السنة الثالثة من حياة الناب الابيض ففى الصيف لم يكن صيد السمك وفيرا وفى الشتاء هجر الجاموس البرى موطنه المألوفة وأصبحت الايائل نادرة وأختفت الارانب تقريبا وهلكت الحيوانات المفترسة لانها بعد أن فقدت موارد غذائها الطبيعية أضعفها الجوع فافترس بعضها البعض الاخر ولم يبق غير القوى منها . وآلهة الناب الابيض حيوانات صيد دائما ، ومات القوى والضعيف من هذه الالهة على السواء . وانتشر فى القرية النحيب والولولة وخرجت النساء والاطفال للحصول على أى شيء ولو كان يسيرا يسد الرمق عندما يعود الصيادون من الغابة بدون صيد معهم .

واشتد الامر بالالهة الى حد أنها أكلت جلود أحذيتها بينما أكلت الكلاب سيورها الجلدية ونفس السياط التى تضرب بها . وكذلك أكل بعض الكلاب البعض الاخر كما أكل الالهة لحم الكلاب . وبدأت الالهة أكل الضعيف الذى لا قيمة له من الكلاب ونظرت الكلاب الباقية الى ما يحدث وفهمت سره وهجمت القلة منها وهى أشدها جراءة نيران الالهة بعد أن أصبحت هذه الالهة الآن بطيئة ثقيلة الحركة هربت الى داخل الغابة حيث انتهى بها الامر الى الموت جوعاً أو الى أن تصير طعاماً للذئاب .

وفى هذه المحنة ذهب الناب الابيض هو الاخر الى داخل الغابة وهو أكثر ملاءمة للحياة فيها من الكلاب الاخرى فقد تدرب فى طفولته عليها وكان هذا التدريب هاديا له ومشيرا ، وهو أكثر منها مهارة فى تصيد الاشياء الحية الصغيرة يختبئ ساعات طويلة متتبعا كل حركة من حركات السنجاب الحذر يترقب فى صبر شديد على شدة الجوع الذى يعانیه حتى يخرج السنجاب من مكمنه ويظهر على الارض وحتى

فى مثل هذه اللحظة لا يتعجل الناب الابيض بل يظل ينتظر حتى يطمئن الى أن هجومه سيتم قبل أن يستطيع السنجاب تسلق الشجرة . وعندئذ فقط ينقض فى ومضة البرق كالسهم الاغبر السريع سرعة تفوق حد التصديق فيصيب هدفه . هذا الهدف هو السنجاب الذى يحاول أن يهرب ولكن سرعته أقل مما يجب .

وبالرغم من نجاحه مع السناجب فهناك صعوبة تحول دون أن يستطيع العيش عليها بصورة تحفظ عليه بنيانه هذه الصعوبة هى انه ليس هناك العدد الذى يكفيه من السناجب لذلك . ولهذا ركن الى صيد الحيوانات الاصغر حجما . وأحيانا يشتد به الجوع فيتصيد الفئران من جحورها فى الارض ولم يتعفف من الدخول فى معركة مع بنت عرس وهى لا تقل عنه جوعا وان كانت أشد منه وحشية .

وفى ذات مرة عضه الجوع بنابه فقفل راجعا الى نيران الالهة . ولكنه لم يمس قدما نحو النيران بل كمن فى الغابة متحاشيا أن يكتشف أحد ممكنه ويسرق ما عساه قد يقع فى الفخاخ من حيوان بل أخذ يسرق ما يقع فى فخ السمور الاغبر من أرانب فى الوقت الذى يترنج فيه سيده فى الغابة سقما واعياء ويجلس بين لحظة وأخرى طلبا للراحة من أثر الضعف فى الحركة وفى التنفس .

وفى ذات الصيف صادف الناب الابيض ذئبا صغيرا ضامرا أعجف فتكت المجاعة أوصاله ولو لم يكن الناب الابيض نفسه جائعا لصاحبه ومضى معه الى قطيعه فليس غريبا عليه . ولكنه كان جائعا فهجم عليه وأوقعه على الارض وقتله وأكله .

وواتاه الحظ والتوفيق وكلما اشتدت حاجته الى الطعام وجد صيدا يصيده ، وعندما أصابه الضعف اسعده حظه فلم يصادف الحيوانات المفترسة الاقوى منه . وفى ذات يوم أكسبه أكله أنثى فهد يومين متتالين قوة وطارده قطيع من الذئاب الجائعة . وكانت مطاردة قاسية طويلة وانه كان أكثر شيعا منها فسبقها ، ولم يسبقها فحسب بل انه استدار على أعقابها وهاجم أحد الذئاب المطاردة له بعد أن انهكتها المطاردة .

وهاجر بعد ذلك من هذا الاقليم ورحل الى الوادى الذى ولد فيه ووجد كيش فى العرين القديم اذ كانت قد هربت هى الاخرى من نيران الالهة بعد أن عز الطعام من حولها ولجأت الى العرين لتضج فيه صغارها وعندما جاء الناب الابيض لم يكن قد بقى من هذه الجراء غير

واحد . ولم يقدر للموليد أن يعيش طويلا فصغار الحيوان لا تحتمل
المجاعة .

وخلت تحيتها لابنها الكبير من أى عطف . ولكن النسب الابيض
لم يهتم بهذا بعد أن أصبح أكبر من أمه حجما فأدار لها ظهره متفلسفا
وأخذ يركض بجوار الغدير . وعند التقاء الغدير بالنهر اتجه الى
اليسار حيث وجد عرين انثى الفهد التى اشترك مع أمه فى قتالها
عندما كان جروا وفى العرين المهجور استقر طلبا للراحة يوما .

وفى أوائل فصل الصيف وكانت المجاعة قد شارفت نهايتها قابل
لبلب وكان هو الآخر قد لجأ الى الغابات حيث كانت الحياة بائسة
وصادفه الناب الابيض على غير انتظار . كانا يركضان فى اتجاهين
متقابلين على طول قاعدة جرف عال ودارا ناحيته فاذا بهما وجهها
لوجه وتوقفا فى لحظة خوف ونظر كلاهما الى الآخر نظرة شك .

وكان الناب الابيض فى حال رائعة اذ صادفه التوفيق فى صيده
وأكل ملء بطنه طول أيام الاسبوع الماضى بل انه يوشك أن يختنق
من فرط امتلائه من آخر صيد له . ولكنه فى هذه اللحظة التى نظر فيها
الى لبلب وقف شعره على طول ظهره دون قصد منه وهى الحال الطبيعية
التي صاحبتها دائما فى الماضى عندما كان لبلب يشاغبه ويضطهده وتكرر
الان ما حدث فى الماضى ونفس الناب الابيض شعره وكثر عن أنيابه
ولم يضع وقته سدى . وتم الامر بسرعة وبصورة كاملة . وجرب
لبلب التقهقر ولكن الناب الابيض هاجمه بشدة وضرب كتفه بكتفه
وانقلب لبلب على ظهره وغرس الناب الابيض أنيابه فى عنق لبلب
فأخذ هذا فى الاحتضار ومكافحة الموت بينما أخذ الناب الابيض يمشى
حوله وقد صلب سيقانه ودقق الملاحظة ، ثم استأنف ركضه على طول
قاعدة الجرف العالى .

وفى ذات يوم وصل الى حافة الغابة حيث ينحدر شريط ضيق من
الارض العراء حتى نهر ماكنزى . وقد سبق له أن ركض فى هذه الارض
من قبل عندما كانت جرداء أما الان فقد نشأت فوقها قرية وتوقف
وهو لا يزال مختبئا بين الاشجار للدراسة الموقف . كان المنظر والاصوات
والرائحة مألوفا لديه . لقد انتقلت القرية القديمة الى مكان جديد .
ولكن المنظر والاصوات والرائحة لم تكن على الحال التى كانت عليها
وقت هروبه منها . لم يعد هناك عويل أو بكاء . والتقطت أذناه

اصوات الرضا ، وعندما سمع صوت امرأة غاضبة عرف أن الصوت صادر من معدة ممتلئة ، وملأت رائحة السمك الهواء وكان هناك طعام وانتهت المجاعة ، وخرج من مكانه في جراحة وركض داخلا مخيم السمور الاغبى ، ولم يكن السمور الاغبى هناك ولكن كلوكوش رحبت به بصيحة ابتهاج وكمية كبيرة من السمك الطازج ورقه ينتظر عودة السمور الاغبى .

الجزء الرابع

الفصل الأول عدو نوعه

لو أن فى طبيعة الناب الابيض أى احتمال ولو كان هذا الاحتمال ضئيلا لأن يتأخى مع نوعه فان هذا الاحتمال ضاع تماما عندما تزعم فريق الكلاب فى جر الزحافة لأن الكلاب الآن أصبحت تكرهه - تكرهه لما يناله من المزيد من اللحم الذى يقدمه ميتسياه له . وتكرهه لكل ما يناله من خطوة حقيقية ومتخيلة . وتكرهه لأنه يتقدمها جميعا ويهز ذيله الخشن فى وجوها على نحو يسبب لها الجنون .

وكذلك يكرهها الناب الابيض كلها بنفس قوة كراهيتها له ، حقا كان يرضيه أن يتزعمها فى جر الزحافة اذ لم يرضه اضطراره الى الجرى أمام مجموعة الكلاب العادية ثلاث سنوات متتالية وهى التى كثيرا ما سيطر عليها وهدهدا . كان هذا يفوق طاقته على الاحتمال ، ولكنه كان مضطرا للاحتمال والا عرض نفسه للهلاك وحيثاته بين جنببيه لا ترغب فى مثل هذا الهلاك ، وفى اللحظة التى يصدر ميتسياه فيها أمره ببدء المسير يقفز الفريق كله نحو الناب الابيض وقد علا صياحه . ولم يكن « للناب الابيض » سبيل للدفاع عن نفسه اذ لو استدأر لمواجهة تلك الكلاب لالهب ميتسياه وجهه بالسوط . ولهذا لم يبق أمامه الا أن يجرى لأنه لم يكن مستطيعا أن يعرض لذلك القطيع العادى ذيله وساقيه الخلفيتين فليست هذه أسلحة يستطيع بها مواجهة الانياب العديدة التى لا تعرف معنى للرحمة ، ولهذا أخذ يجرى متغاضيا عن طبيعته الخاصة وكرامته مع كل وثبة يشبها ومع جميع وثباته طول اليوم .

ويسفر انتهاك الحوافز الطبيعية عن انطواء تلك الطبيعة على نفسها مثل التواء الشعرة التى خلقت لتنمو بارزة من الجسم ثم تدور بصورة غير طبيعية عائدة الى منبتها وتدخل الجسم ثانية وتكون مصدر ألم . وهكذا كان شأن الناب الابيض وكل حوافز كيانه تدفعه الى اللوثب على ذلك القطيع الذى ينبج فى اعقابه ولكن ارادة الالهة تحول دون ذلك ووراء هذه الارادة ما يفرضها بالقوة وهو السوط المجدول من أمعاء الثور الذى يبلغ طوله ثلاثين قدما ولم يستطع الناب الابيض

الا أن يأكل قلبه فى مرارة والا أن ينمى فى نفسه الكراهية والشر بقدر يتناسب وطبيعته الوحشية التى لا تغفر .

ولو وجد مخلوق يكن عداوة لنوعه لكان الناب الابيض هو ذلك المخلوق لم يطلب رحمة أحد ولم يرحم أحدا . وكانت أنياب القطيع تترك فى جسده خدوشا وجروحا ويترك هو بدوره آثاره فى أجساد القطيع . ومن عادة زعماء القطيع الالتجاء لحماية الالهة بالتكور على كئب منها بعد انتهاء كل رحلة ولكن الناب الابيض استنكف أن يفعل ذلك بل كان يمشى بجراة فى أرجاء المخيم يوقع فى الليل عقابه على من أساء اليه فى النهار وقبل أن يتزعم فريقه كانت الكلاب تفسح له الطريق أما الان فان الامر تغير ذلك أن تلك الكلاب وقد أثارته مطاردتها اياه طول النهار ملكها الزهو والغرور بتكرار تذكرها منظره وهو يجرى امامها هاربا وغلب عليها شعور السيطرة الذى لازمها طول النهار فلم تعد ترضى باخلاء السبيل أمامه وإذا ظهر بينها احتدم العراك فيبدأ هو بالزمجرة والتكشير عن الانياب والعواء . وكان الهواء الذى يتنفسه مشحونا بالكراهية والحقد فيغذى كراهيته وحقه عليها .

وعندما يصبح ميتساء فى الكلاب بالكف عما هى فيه يطيع الناب الابيض وكان هذا فى أول الامر يسبب المتاعب للكلاب الاخرى . فتشب معا على الزعيم المكروه وهنا يتغير الوضع اذ يكون ميتساء وراء الناب الابيض وسوطه يغنى فى يده وهكذا فهتم الكلاب انه عندما يصدر الامر اليها بالسكون فعليها أن تدع الناب الابيض وشأنه أما اذا توقف الناب الابيض بدون أمر يصدر اليه بذلك أصبح مسموحا لها بالوثب عليه والقضاء عليه ان استطاعت ذلك . وبعد عدة تجارب لم يعد الناب الابيض يتوقف الا بعد صدور الامر اليه بذلك . وتعلم بسرعة وكان فى طبيعة الاشياء ضرورة أن يتعلم بسرعة للنجاة من الظروف القاسية التى خلقتها الحياة له .

ولكن الكلاب لم تستطع أن تتعلم درس تركه وشأنه فى المخيم فهى فى كل يوم تطارده وتنبج عليه متحدية اياه ناسية درس الليلة السابقة ثم تعود تتعلمه فى تلك الليلة لتتساء عقب ذلك . هذا الى رسوم كراهيتها اياه فهى تحس الفارق النوعى بينها وبينه - وهذا فى حد ذاته كاف للبغضاء . أنها ذئاب مستأنسة مثله ولكنها استؤنست منذ اجيال متعاقبة وضاع منها أغلب ما ورثته من البرية حتى أصبحت البرية بالنسبة لها هى المجهول الرهيب الدائم التهديد والمشتبك دائما فى حرب معها أما بالنسبة له من حيث المظهر والعمل والدافع فان

البرية لا تزال عالقة به وهو رمز لها وهو صورتها المتجسدة ، فهي
تكسر له عن أنيابها دفاعا ضد قوى التدمير الكامنة في ظلال الغابة
وفي الظلام الكائن وراء نار المخيم .

ولكن هناك درسا تعلمته الكلاب جيدا وهو وجوب تجمعها ، فقد
كان الناب الابيض شديد الوطأة على أى واحد منها ان التقى به منفردا
فكانت تلتقي به جماعات والا قتلها واحدا بعد الاخر في ليلة واحدة
وهكذا لم تنتج له فرصة قتلها . انه قد يدحرج واحدا منها على ظهره
ولكن القطيع في هذه اللحظة يشب عليه قبل أن يهجم هجمته القاتلة
على عنق ذلك الكلب الملقى على ظهره . واذا بدت أول اشارة الى صراع
تجمع القطيع كله وواجهه ، صحيح انه كانت للكلاب منازعاتها فيما بينها
الا انها سرعان ما تنساها عندما تبدأ المتاعب مع الناب الابيض ومن
ناحية أخرى فأنها لن تستطيع أن تقتل الناب الابيض مهما حاولت .
اذ هو شديد السرعة والحكمة وأشد منها بأسا . كان يتحاشى الاماكن
الضيقة ويبتعد عنها عندما يرى أنها أوشكت أن تحيط به ، أما ايقاعه
على الارض فلم يكن واحد من تلك الكلاب قادرا عليه على النحو الذى
يفعله كانت أقدامه تلتصق بالارض بنفس قوة تعلقه بالحياة . ومن
هذه الناحية كانت الحياة والثبات على الارض مترادفين في هذه الحرب
التي لا تنتهى بينه وبين القطيع ولم يعرف ذلك أحد ما معرفة الناب
الابيض اياه .

وهكذا أصبح عدو نوعه . كانت تلك ذئابا مستأنسة رقت
نيران الانسان من طبيعتها وأضعفها ظل قوة الانسان الذى تأوى اليه
أما الناب الابيض فقد كان شديدا لا يلين . هكذا شكلت طبيئته . وقد
شن حرب الانتقام على جميع الكلاب وعاش هذا الانتقام بصورة رهيبة
جدا الى حد أن السمر الاغبر الذى هو نفسه وحشى شديد أصبح
يعجب من وحشية الناب الابيض وأقسم انه لم يوجد من قبل مثيل
لهذا الحيوان . وأقسم الهنود فى القرى القريبة التى مروا بها نفس
القسم عندما شهدوا قتله كلابهم .

ولما قارب الناب الابيض سن الخامسة من عمره اصططحبه السمر
الاغبر فى رحلة كبرى أخرى . وعاشت طويلا ذكرى ما أنزله من قتل
بالكلاب فى القرى العديدة على طول نهر ماكنزى وعبر الجبال الصخرية
وعلى طول نهر القنفذ حتى يدكون . واستمتع بالانتقام الذى أنزله
بنوعه . كانت كلابا عادية لا يخطر الشك ببالها ، ولم تكن مستعدة
لسرعته أو هجومه المباشر الذى لا يسبقه انذار . ولم تعرف

حقيقته وهو القاتل الخاطف . كانت تلك الكلاب تنفث شعرها فى وجهه وتصلب سيقانها وتحداه ، أما هو فلا يضحى وقتا فى التمهيد المنمق بل يعمل كالزنبرك الصلب ويهجم على أعناقها ويقتلها قبل أن تدرك ما هو حادث أو تفيق من دهشتها .

وأصبح ماهرا فى القتال مقتصدا فى الجهد الذى يبذله فلا يبذل قوته ولا يطيل العراك بل يسرع بالهجوم فإذا لم يصب عاود الهجوم بسرعة أكبر . كانت فيه كراهية الذئب للكلاب بدرجة غير عادية . لم يكن يحتمل الاتصال الطويل بشئ آخر ففى هذا الاتصال خطورة تدفعه الى التهور . فلا بد اذن من أن يكون بعيدا وحرا واقفا على أقدامه لا يلمس شيئا حيا . كانت البرية هى التى تتعلق به وتؤكد وجودها من خلاله ، ولقد قرى فيه هذا الاحساس حياة العزلة التى عاشها منذ أن كان جروا . فهو يرى الخطر كامنا فى الاتصال بغيره والاتصال هو الفخ والفتح الدائم والخوف منه الكامن فى أعماق حياته والداخل فى نسيجه .

ولهذا لم تكن للكلاب الغريبة التى قابلها أية فرصة ضده فهو يروغ من أنيابها وينالها أو يهرب دون أن يمسها ناب فى كلا الحالتين . ولكن كانت هناك حالات استثنائية من هذا . اذ تتجمع عدة كلاب وتهاجمه فى وقت واحد وتعاقبه عقابا صارما قبل أن يستطيع الإفلات منها وأحيانا يهاجمه كلب واحد فينزل به هزيمة شديدة ولكن هذه كانت مجرد مصادفات فحسب . أما فى أغلب الأحيان فهو شديد الكفاية فى القتال الى حد أنه أصبح يمضى فى طريقه دون أن يعترض كلب طريقه .

وكانت له ميزة أخرى وهى صحة حكمه على الوقت والمسافة لا لأنه يفعل ذلك بوعى منه فإنه لم يحسب مثل هذه الأشياء بل كان ذلك كله تلقائيا وعيناه تريان رؤية صحيحة كما أن أعصابه تنقل الرؤى نقلا صحيحا الى المخ وأعضاؤه متناسقة بعضها مع البعض الآخر على نحو أفضل مما كان عليه الحال فى الكلب العادى وهذه الأعضاء تعمل معا فى توافق واتساق بصورة أكثر كمالا منها فى أى كلب آخر . ولقد اجتمع له تناسق عصبى وعضلى أفضل كثيرا مما فى الكلاب الأخرى . وعندما تنقل عيناه الى المخ الصورة المتحركة لحركة ما يعرف مخه بدون جهد واع المكان الذى يحد تلك الحركة والوقت المطلوب لاتمامها وبهذا يتحاشى وثبة كلب آخر أو اندفاع أنيابه ويستطيع فى نفس الوقت أدراك اللحمة العابرة التى يستطيع فيها توجيه هجومه .

وكان عمل جسده ومخه كاملا دون أن يكون له الفضل فى ذلك بل ان الطبيعة كانت معه آكرم منها مع الكلب العادى .

وقد حدث فى الصيف أن وصل الناب الابيض الى قلعة يوكون بعد أن عبر السمر الاغبر المساحة المائية العظيمة بين ماكنزى ويوكون فى أواخر فصل الشتاء وقضى فصل الربيع فى الصيد فى سفوح الجبال الصخرية . وبعد ذوبان الجليد فى نهر القنفذ بنى قاربا وأخذ يجدف به فى ذلك الغدير حتى بلغ ملتقاها بنهر يوكون بالقرب من الدائرة القطبية الشمالية . وهنا كانت قلعة شركة خليج هدسون القديمة حيث يكثر الهنود ويكثر الغذاء وفيها حركة لم يسبق لها مثيل كان ذلك فى صيف عام ١٨٩٨ وكان الاف صيادى الذهب ذاهبين يعبرون اليوكون الى دوسون وكلوندايك . وكانت بينهم وبين هدفهم مئات الاميال ومع ذلك فان الكثيرين منهم كانوا قد قضوا عاما فى الوصول الى هنا وقطع بعضهم اكثر من خمسة الاف ميل بل ان بعضهم الآخر جاء من الطرف الاخر من العالم .

وهنا توقف السمر الاغبر فقد بلغت اذنيه همسة الاندفاع نحو الذهب وكانت معه بالات من الفراء وبالات أخرى من القفازات والاحذية الجلدية وما كان ليقطع مثل هذه الرحلة الطويلة لو لم يتوقع أرباحا سخية . ولكن ما كان يتوقعه لا يذكر بجانب ما حققه ، فاقصى ما كان يحلم به هو أن تبلغ نسبة أرباحه مائة فى المائة ولكن حقق أرباحا تبلغ نسبتها الفا فى المائة ونهج نهج الهنود الاصيل فاستقر ليتجر بعناية وبطء ولو كلفه بيع سلعه كل فصل الصيف وبقية فصل الشتاء .

وفى قلعة يوكون رأى الناب الابيض اول انسان ابيض . وكان البيض من البشر عنده جنسا اخر من الكائنات البشرية غير الهنود الذين عرفهم بل هم الهة تفوق الالهة الهندية . وبدا البيض له ذوى قوة تفوق قوة الهنود والالهة يعتمد فى سلطانه على القوة . ولم ينطق الناب الابيض هذه القضية ولم تجر فى ذهنه العملية العقلية وهى عملية التعميم الدقيقة التى تؤدى الى استخلاص أن الالهة الببيض أقوى من الالهة الهنود . بل كان كل ذلك مجرد احساس ولا شئ أكثر من ذلك . ومع ذلك فإنه احساس له قوته وكما رأى فى طفولته فى المخيمات التى أقامها الانسان مظهرا للقوة فكذلك رأى نفس الرأى فى البيوت والقلعة الضخمة وكلها ذات أحجام هائلة . هنا قوة . وهذه الالهة الببيضاء قوية وسلطانها على المادة اكبر من سلطان الالهة التى

عرفها والتي كان السمر الاغبر اقواها ومع ذلك فما هو السمر
الاغبر اقواها ومع ذلك فما هو السمر الاغبر اله طفل بين هذه الالهة
البيضاء الاقوى ..

ومن المؤكد أن الناب الابيض كان يحس هذه الاشياء فحسب ولم
يكن يعيها ومع ذلك فالحيوانات تتصرف بدافع من احساسها اكثر من
تصرفها بدافع من تفكيرها وكل عمل يقوم به الناب الابيض الان انما
هو على أساس الاحساس بأن البشر البيض هم الالهة المتفوقة . وكان
أولا وقبل كل شيء فى شك من أمرها فما كان لديه من دليل على أى
رعب مجهول ذلك الرعب الذى هم مصدره أو أى أذى يمكن أن يوقعوه
به . وكان به فضول لمراقبتهم مخافة أن يلاحظوه وقضى الساعات
القليلة الاولى قانعا بالتسلل ومراقبتهم من بعيد ثم رأى أنه لا يقع
أى أذى على الكلاب القريبة منهم فازداد قربا .

وكان بدوره موضع فضولهم الشديد فقد استرعى انتباههم على
الفور مظهره الذئبى وأشار بعضهم اليه وهو يحدث غيره عنه .
وجعلته هذه الاشارات يأخذ حذره . ولما حاولوا الاقتراب منه كثر
عن انيابه وتراجع الى الوراء ولم ينجح أحد منهم فى وضع يده عليه
ولقد أفادهم كثيرا انهم لم يستطيعوا ذلك .

وسرعان ما تعلم الناب الابيض أن القليلين من هؤلاء البيض يقيمون
فى هذا المكان بل انهم لم يتجاوزوا العشرة وكل يومين أو ثلاثة أيام
تأتى باخرة « هى فى حد ذاتها مظهر هائل للقوة » الى الشاطئ وتقف
عدة ساعات . وينزل البيض من هذه البواخر ويمضون بها ثانية .
وعدد هؤلاء البيض كبير جدا . وقد رأى من الهنود طول حياته . ومع
مرور الايام جاء غيرهم عبر النهر وتوقفوا ثم مضوا ثانية عبر النهر
واختفوا .

ولكن اذا كانت الالهة البيضاء قوية غاية القوة فان كلابها لم تكن
ذات شأن وعرف الناب الابيض ذلك بسرعة وعن طريق الاختلاط بهذه
الكلاب التى نزلت الى الشاطئ مع ساداتها . كانت ذات اشكال
وأحجام مختلفة ، بعضها قصير السيقان بل ان هذه السيقان ممعنة فى
القصر وبعضها الآخر طويل السيقان غاية فى الطول . ولها شعر بدل
الفراء بل ان شعر بعضها قليل جدا ولم يعرف أى واحد منها كيف
يقاتل .

ولما كان الناب الابيض عدوا لنوعه فإنه لم يكن هناك مفر من أن
يقاتلها وخرج من هذا القتال بشعور احتقار شديد لها . كانت ناعمة

غاية في الضعف وتثير كثيرا من الضوضاء وهي تتسكع وتحاول بطريقة خرقاء أن تحقق بالقوة الاساسية وحدها ما كان يحققه هو بالمهارة والدهاء فتندفع نحوه وهي تعوى هادرة وعندئذ يميل جانبا فلا يعرف ماذا حدث له وفي تلك اللحظة يضربها في اكتافها ويوقعها على الارض ويهجم على أعناقها .

وقد ينجح هذا الهجوم أحيانا ويتدحرج الكلب المهاجم في الوحل فتقفز عليه الكلاب الهندية المنتظمة وتمزقه اربا . وكان الناب الابيض حكيما فقد تعلم منذ زمن طويل أن الالهة تفضب اذا قتلت كلابها وما كان البيض من البشر ليستثنوا من هذا ولذلك فهو يكتفى بقلب وقطع عنق أحد الكلاب ثم يتراجع ويترك قطيع الكلاب الهندية تهجم وتقوم بالقضاء على الفريسة . ففي هذا الوقت يأتي الرجال البيض مندفعين وينزلون جام غضبهم على القطيع بينما الناب الابيض بعيد لا يناله أذى وهو واقف على بعد مسافة منهم ينظر والحجارة والعصى والبطل وكل أنواع الاسلحة تنهال على رفاقه . لقد كان الناب الابيض غاية في الحكمة .

ولكن رفاقه اكتسبوا الحكمة هم أيضا بطريقتهم الخاصة واكتسب الناب الابيض حكمة أخرى معهم . تعلمت الكلاب الاخرى أنه عندما ترسو سفينة على الشاطئ ستحصل على فرائس جديدة . لأنها الفت ما كان يجري بعد افتراسها أول كلبين أو ثلاثة كلاب غريبة يخفى الرجال البيض كلابهم فوق ظهر السفينة وينزلون انتقامهم الرهيب بالكلاب المعتدية ، وقد حدث أن رأى رجل أبيض كلبه وهو من كلاب الصيد يمزق أمام عينيه فأخرج مسدسه من جيبه . واسرع باطلاق ست رصاصات فهوت ستة كلاب ميتة أو محتضرة - وهذا مظهر آخر من مظاهر القوة ترسب في اعماق وعي الناب الابيض .

واستمتع الناب الابيض بهذا كله اذ لم يكن يحب نوعه وكان بارعا في النجاة بنفسه من أي أذى . وكان قتل كلاب الرجال البيض في أول الامر تسلية ولم يمض وقت طويل حتى أصبح مهنته اذ هو بلا عمل آخر لانهماك السمور الاغبر في التجارة والاثراء وهكذا ظل الناب الابيض يتربص مكان رسو السفن هو وعصابته من الكلاب الهندية السيئة السيرة انتظارا لوصول السفن . وحالما تصل سفينة تبدأ العربدة و تنقضى بضعة دقائق حتى يذهب عن الرجال البيض أثر المفاجأة وتفرق العصاة وتنتهي العربدة الى أن تصل سفينة جديدة . ولكن لا يمكن القول بأن الناب الابيض عضو في العصاة فهو لا يختلط بأعضائها بل يظل مبتعدا عنها وهي تخافه وترهبه صحيح

انه كان يعمل معها اذ هو الذى يبدأ مشاغبة الكلب الغريب بينما العصابة تنتظر حتى اذا انقلب الكلب الغريب على ظهره هجمت العصابة عليه وقضت عليه . ولكن صحيح ايضا أنه عندئذ ينسحب تاركا العصابة تتلقى عقاب الالهة الغاضبة .

ولم يتطلب اثاره المنازعات جهدا كبيرا فكل ما عليه هو أن يظهر للكلب الغريب حال نزوله الى الشاطئ ، وعندئذ يندفع الكلب الغريب نحوه وهذا أمر غريزي فى الكلاب الغريبة والناب الابيض عندهما الشيء البرى المجهول الرعيب الدائم التهديد الشيء الذى كان يحوم فى الظلام حول نيران العالم البدائي عندما كانت هذه الكلاب تربض بالقرب من النار تعيد تشكيل غرائزها وتخشى البرية التى يأتى منها هذا الشيء وكانت هذه الكلاب نفسها قد هجرتها من قبل ودفع هذا الخوف فى طبيعتها وتوارثتها الاجيال جيلا بعد جيل . وظلت البرية قرونا عديدة تعنى الرعب والدمار فمنحها سادتها طول هذا الزمان سلطة قتل الاشياء التى تأتى من البرية . وهى بهذا العمل تحمي نفسها والالهة التى ترافقها .

وهكذا حالما تركض هذه الكلاب الآتية من عالم الجنوب الهادئ على اللوح الطويل المقام للمرور عليه بين السفينة والبر وترى الناب الابيض تجد أنفسها مندفعة اندفاعا لا معقب له للهجوم والقضاء عليه وربما كانت كلابا نشأت فى المدن ولكن الخوف الغريزي من البرية كامن فيها بالوراثة ، انها حقا لم تكن ترى المخلوق الذئبى السواقف أمامها فى وضوح النهار بأعينها بل كانت تراه بأعين اسلافها وبذكرياتها الموروثة وعرفت فى الناب الابيض الذئب فتذكرت العداء القديم .

ومن شأن هذا كله أن يجعل أيام الناب الابيض ممتعة اذ الافضل له أن يدفع منظره هذه الكلاب الغريبة نحوه فهى تراه فريسة مشروعة لها كما يراها هو أيضا فريسة مشروعة له .

وأفاده أن رأى ضوء النهار أول ما رآه فى عرين منعزل وأن اشتبك فى أول قتال له مع القط وبنث عرس وانثى الفهد كما أفاده أن زاد قسوة العيش عليه فى طفولته اضطهاد لبلب وكل قطيع الجراء ولو لم تمر به هذه الظروف لاصبح صورة أخرى غير صورته الآن ولولا وجود لبلب لقضى طفولته مع الجراء الأخرى ونشأ أقرب الى الكلب واصبح أكثر ميلا للكلاب ، ولو حياه السموور الاغبر بالعطف والحب لوصل الى أعماق الناب الابيض وأخرج منها الى السطح كل صفات الرحمة ولكن الامر لم يكن كذلك ، بل شكلت طينة الناب الابيض على النحو الذى صار اليه الآن وحيدا مكتنبا متوحشا لا يعرف الحب بل هو عدو نوعه .

الفصل الثانى

الآله المجنون

وكان يقيم فى قلعة يوكون عدد صغير من البيض وطال عهدهم بالاقامة فيها وهم يصفون أنفسهم بأنهم « العجيبة المرة » ويجسرون فخرا كبيرا فى هذا الوصف ويكنون لغيرهم من المحدثين احتقارا شديدا ويطلقون على الذين ينزلون الى البر من البواخر اسم « التشيشساكو » وهؤلاء الجدد يصنعون خبزهم باضافة خميرة البيرة الى العجيبة التى يصنعون منها خبزهم فلا تكون العجيبة مرة .

ويحتقر أهل القلعة القادمين الجدد ويستمتعون برؤيتهم حزانى ويبلغ استمتاعهم مداه حين يرون التدمير الذى ينزله الناب الابيض وعصائبه سيئة السيرة بكلاب هؤلاء القادمين الجدد . وكلما وصلت باخرة حرص رجال القلعة على النزول الى الشاطئ لرؤية تلك اللعبة التى يترقبونها ترقب الكلاب الهندية ويستمتعون بمشاهدة الدور الوحشى الماكر الذى يلعبه الناب الابيض .

ولكن كان بينهم رجل يستمتع برؤية اللعبة بصفة خاصة فهو يأتى جريا حال سماعه صوت صفارة السفينة حتى اذا انتهى القتال وابتمد الناب الابيض والقطيع عاد الى القلعة فى بطء وقد ارتسم الاسف على وجهه ، وأحيانا كان هذا الرجل يرى كلبا ضعيفا من كلاب الجنوب يسقط على الارض وهو يصرخ صراخ الموت تحت أنياب القطيع فلا يستطيع ضبط نفسه بل يقفز فى الهواء ويصيح صيحة الابتهاج ويرنو دائما بطرفه نحو الناب الابيض .

وكان اسم هذا الرجل « الجميل » وبهذا الاسم ناداه الرجال الآخرون فى القلعة ولم يعرف أحد اسمه الاول بل هو يعرف بصفة عامة فى طول البلاد وعرضها باسم « سميث الجميل » ولم يكن بالجميل بل ان هذا الاسم من قبيل تسمية الاشياء باضدادها فقبحه أبرز ماقيه اذ كانت الطبيعة شحيحة معه فهو صغير الحجم أولا وفوق جسده الضار رأس غاية فى الصغر تكاد قمته تكون مديبة بل لقد كان يسمى فى طفولته فى الواقع « رأس الدبوس » وذلك حتى أطلق رفاقه عليه اسم الجميل .

ورأسه ينحدر من وراء ابتداء من قمته في ميل حتى عنقه ومن أمام ينحدر نحو جبين منخفض عريض بصورة ملحوظة ، وهنا عبرت الطبيعة عن شحها بأن زادت من ضخامة ملامحه فعيناه واسعتان والمسافة بين العينين تبلغ طول العينين معا وإذا قيس وجهه بجسمه لبدا هائلا . وفي فكيه بروز شديد فهما واسعتان ثقيلتان بارزتان الى الامام والى أسفل حتى ليبدو وجهه مستندا الى صدره . وربما كان هذا المظهر راجعا الى ضعف عنقه النحيف وعدم قدرته على حمل ذلك الوجه الثقيل .

وتوحى فكه بقوة الارادة الوحشية وعيب فمه كبير حجمه بصورة غير طبيعية ومع ذلك فقد كان الايحاء كاذبا اذ المعروف عنه في طول البلاد وعرضها أنه أكثر الضعفاء ضعفا وأشد الجبناء جبنا . أما أسنانه فكبيرة وصفراء اللون تتقدمها سنان كبيرتان بارزتان تحت شفته العليا الدقيقة وكأنهما نابان وعيناه صفراوان غائمتان كما لو كانت الطبيعة قد نقضتها الصبغات فاعتصرت رواسب أنابيب الالوان لتلوين عينيه وهذا هو شأن شعره الخفيف غير منتظم النمو والذي يميل لونه الى الصفرة الموحلة .

وسميث الجميل باختصار مشوه الخلقة وليس مستولا عن ذلك بل هكذا خلق . وهو يطهو الطعام للرجال الآخرين في القلعة ويفسل الصحون ويقوم بغير ذلك من أعمال حقيرة . وهم لا يحتقرونه بل يتسامحون معه على نحو انساني عريض كما يتسامحون مع أى مخلوق اساءت الطبيعة تكوينه كما أنهم يخافونه فهياجه وهو هياج الجبان يجعلهم يخافون أن يطلق على أحدهم رصاصة في الظهر أو يدس له السم في القهوة . ثم لابد أن يقوم واحد بالطهو وكأنه ما كانت عيوب سميث الجميل فانه يستطيع الطهو .

هذا هو الرجل الذى تعود النظر الى الناب الابيض وهو مبتهج بوحشية قوية ويرغب فى أن يملكه ، وبدأ يتودد الى الناب الابيض منذ البداية وبدأ الناب الابيض يتجاهله . وفيما بعد وبعد أن استمر التودد طويلا نفش الناب الابيض شعره وكشر عن انيابه وتراجع الى الوراء . لم يحب الرجل وكان احساسه به سيئا وأحس فيه الشر وخاف اليد الممتدة ومحاولات القول المصمول ولهذا كله كره الرجل والمخلوقات البسيطة تفهم ما هو خير وما هو شر . فالخير هو فى جميع الاشياء التى تعود بالراحة والرضا والبعد عن الالم ، ولهذا فالخير محبوب . أما الشر فهو فى جميع الاشياء المشوبة بالقلق والتهديد

والاذى ولهذا فهي مكروهه عندها . وكان احساس الناب الابيض بسميث الجميل سيئا . كانت تنبعث من جسده الرجل المشوه وعقليته المعقدة انبعاثات غامضة من السقم الداخلى كالضباب الذى يرتفع من المستنقعات الموبوءة بالملايا . وأحس الناب الابيض أن الرجل ينذر بالشر محمل بالاذى ولهذا فهو شئ سئ وجدير بان يكرهه . وليس مصدر هذا الاحساس المنطق أو الحواس الخمس وحدها بل الحواس الاخرى النائية غير المرسومة .

وكان الناب الابيض فى مخيم السمرور الاغبر حين زاره سميث الجميل لأول مرة ، وحالما سمع وقع خطاه من بعيد وقبل أن يراه عرف الناب الابيض من هو القادم وأخذ ينفش شعره . كان راقدا مستسلما للراحة ولكنه نهض بسرعة حتى اذا وصل الرجل تسلس مبتعدا على نحو ما تفعله الذئاب الحقيقية الى حافة المخيم ولم يعرف شيئا مما قالاه ولكنه استطاع أن يرى الرجل والسمرور الاغبر يتحدثان معا . وحالما أشار الرجل اليه رد الناب الابيض على هذه الاشارة بالتكشير عن أنيابه كما لو كانت اليد قد هبطت عليه وكأنما لم يكن بعيدا عنها مسافة خمسين قدما ، وضحك الرجل لهذه الحركة وتسدل الناب الابيض مبتعدا داخل الغابات ينشد ملجأ . ومضى الناب الابيض ينزل فى خفة فوق الارض وهو يستدير برأسه يرقب ما يحدث . ورفض السمرور الاغبر بيع الكلب قائلا انه أثرى من تجارته وليس فى حاجة الى شئ فضلا عن ذلك فان الناب الابيض حيوان له قيمته فهو أقوى ما لديه من الكلاب التى تجر الزحافة وأحسن من يتقدم الكلاب ويضاف الى هذا انه ليس له مثيل بين الكلاب على الإطلاق فى حوض ماكنزى أو يوكون . وفى استطاعته أن يقاتل بل انه ليقتل الكلاب الاخرى كما يقتل البشر الذباب ، وتألفت عينا سميث الجميل عند هذا القول ولحق شفثيه الرقيقتين بلسانه المتلهف ، كلا لم يكن الناب الابيض ليبيع مهما كان الثمن .

ولكن سميث الجميل كان يعرف أساليب الهنود . فأكثر من زيارة مخيم السمرور الاغبر وهو يخفى تحت معطفه زجاجة سوداء أو ما يشبه ذلك . ومن صفات الويسكى أنه يزيد التعطش اليه . وتعطش السمرور الاغبر الى الويسكى والتهبت الاغشية المخاطية ومعدته وتطلبت المزيد منه أكثر فأكثر وسيطر عليه الحافز للشراب حتى أكرهه على الذهاب الى أى مدى فى سبيل الحصول عليه . وبدأت الاموال التى حصل عليها من بيع الفراء والقفايزات والاحذية الجلدية فى التسرب من بين

يديه وزادت سرعتها في الذهاب وكلما نقص المال لديه زاد ضيق مزاجه .

وأخيرا ذهب ماله وذهبت بضاعته وفقد أعصابه ولم يبق عنده سوى تعطشه للويسكى . وزاد هذا التعطش مع كل نفس يتنفسه وعندئذ عاد سميث الجميل يحدثه بشأن الناب الابيض ورغبته في شرائه منه ولكن الثمن المعروض هذه المرة كان زجاجات من الويسكى ولم يكن نقودا وكانت اذنا السمور الاغبر متلهفتين على الانصات وكانت اخر كلماته لسميث الجميل .

« امسكه وخذه فهو لك » .

وجاء سميث الجميل بالزجاجات بعد يومين وقال للسمور الاغبر:
« امسك لى الكلب » .

وانسل الناب الابيض الى داخل المخيم ذات مساء ورقد بعد أن تنهد تنهد الرضا . اذ لم يكن الاله الابيض المخوف هناك . فقد زادت مظاهر رغبته في وضع يده عليه في الايام الاخيرة مما كان يدفع الناب الابيض أخيرا الى الابتعاد عن المخيم ولم يعرف أى شر يكمن في اليدين بأصرارهما بل عرف فقط أنهما تهديدان بشر من نوع ما وأنه من الافضل له أن يبتعد عن متناولهما .

ولكنه ما كاد يرقد حتى جاء السمور الاغبر اليه مترنحا وحاط عنته بسير من الجلد وجلس بجواره ممسكا الطرف الاخر من السير الجلد بأحدى يديه وزجاجة باليد الاخرى ، وكانت الزجاجاة تنقلب على رأسه من وقت لآخر بمصاحبة أصوات بقبة .

ومرت ساعة على هذه الحال حتى دلت اهتزازات الارض تحت أقدام الناب الابيض على اقتراب انسان . وبدأ ينقش شعره بينما السمور الاغبر منكس رأسه نعاسا . وحاول الناب الابيض أن يجذب السير الجلدى بخفه من يد سيده ولكن الاصابع المسترخية قوترت وأحكمت امساك السير وأفاق السمور الاغبر .

ودخل سميث الجميل ووقف بجوار الناب الابيض وهمهم الناب الابيض بصوت خافت في خوف وراقب حركة اليدين مراقبة دقيقة . وامتدت احدى اليدين وبدأت تهبط على رأسه ، وزادت زمجرتة قوة وخشونة ، واستمرت اليد في هبوطها ببطء واستمر هو فى الانكماش تحتها وهو ينظر اليها فى دهاء . وقصرت زمجرتة وزادت قصرا مع سرعة تنفسه . وعلى حين فجأة فتح فمه وأبرز أنيابه وكاد يطبق فكيه على اليد ولكن الرجل سحب يده بسرعة وأطبق الناب الابيض فكيه على

فراغ فأصطكت الانياب والاسنان بصوت شديد ، وخاف سميث الجميل وغضب وربت السمور الاغبر على رأس الناب الابيض فأدناه من الارض احتراماً له واطهاراً لطاعته .

وتعقبت عينا الناب الابيض المتشككتان كل حركة ورأى سميث الجميل يذهب ثم يعود وييده عصا قوية . وعندئذ قدم السمور الاغبر الطرف الاخر من السير الجلدى ، وأخذ سميث الجميل فى المشى بعيداً وتوتر الشريط الجلدى وقاوم الناب الابيض الجذب ، ولطمه السمور الاغبر يمنة ويسره ليدفعه الى النهوض ومتابعة سميث الجميل . وأطاع ولكن فى اندفاع فارتطم بالرجل الغريب الذى أخذ يجره بعيداً .

ولم يقفز سميث الجميل مبتعداً لانه كان يتوقع هذا ورفع العصا برشاقة وهوى بها على الناب الابيض الذى وقع على الارض . وضحك السمور الاغبر وهز رأسه موافقاً ، وجذب سميث الجميل السير الجلدى من جديد وزحف الناب الابيض وراءه وهو يهرج وقد أصابه الدوار . ولم يندفع مرة أخرى اذ كانت ضربة واحدة من العصا كافية لاقناعه بأن الاله الابيض يعرف كيف يعامله وكان أحكم من أن يقاتل القدر المحتوم ، وهكذا سار فى أعقاب سميث الجميل وهو فى استياء وذيله بين قائمته الخلفتين وهو يزمر بصوت خافت . ولكن سميث الجميل ظل يرقبه بانتباه وظلت العصا مستعدة لضربه .

وفى القلعة تركه سميث الجميل مقيداً بأحكام وأوى الى فراشه وانتظر الناب الابيض ساعة ثم أخذ يقرض السير الجلدى بأنيابه ولم تمض عشر ثوان حتى أصبح حراً طليقاً بعد أن انقطع السير الجلدى انقطاعاً عرضياً وكأنما قطعتة سكين . وتطلع الناب الابيض الى القلعة وهو ينفش شعره ويزمجر فى نفس الوقت واستدار وأخذ يركض عائداً الى مخيم السمور الاغبر . لم يكن يدين بالولاء لهذا الاله القريب الرهيب لانه منح نفسه للسمور الاغبر ولا يزال ينتمى للسمور الاغبر فى اعتباره .

وتكرر ما حدث من قبل مع فارق بسيط . قيده السمور الاغبر بسير جلدى وفى الصباح قدمه لسميث الجميل . وهنا ظهر هذا الفارق وهو أن سميث الجميل ضربه ضرباً مبرحاً وما كان الناب الابيض وهو المقيد بأحكام مستطيعاً أكثر من أن يهيج عيناً وأن يتلقى العقاب واستخدمت العصا والسوط فى ضربه وتلقى ضرباً لم يتلق مثيلاً له من قبل حتى الضرب المبرح الذى ضربه اياه السمور الاغبر فى طفولته كان شيئاً هيناً اذا هو قوون بهذا الضرب .

واستمتع سميث الجميل بعمله هذا وإبتهج به واحمرت عيناه
احمرارا كثيبا وهو يلوح بالسوط أو بالعصا ويهوى على الناب الابيض
بينما هذا يصيح ألما ويعوى ويزمجر ، ذلك لان سميث الجميل قاس
قسوة الجبناء ولكم جرب سميث الجميل الانكماش والانطواء حول
نفسه تحت ضربات الانسان وعباراته الغاضبة ليتنقم فيما بعد من
المخلوقات التى هى دونه قوة ، ان الحياة بشتى صورها تحب القوة .
ولم يكن سميث الجميل استثناء لهذه القاعدة . كان محروما من التعبير
عن القوة بين نوعه فلذا ينهال على المخلوقات الاقل شأنا وقوة ضربا
وبهذا حقق الحياة التى بين جنبيه . ولكن سميث الجميل لم يكن هو
الذى خلق نفسه وما كان لاحد أن يوجه اليه لوما بسبب صفاته هذه
انه جاء الى العالم بجسد ملتو وذكاء وحشى . وهذا هو قوام طبيئته ولم
يكن العالم هو الذى شكل هذه الطينة .

وعرف الناب الابيض لماذا ضرب . وعندما أحاط السمور الاغبر
عنفه بالسير الجلدى وقدم الطرف الاخر من هذا السير الجلدى الى
سميث الجميل عرف الناب الابيض أنها ارادة الهه له أن يذهب مع
سميث الجميل . وعندما تركه سميث الجميل مقيدا خارج القلعة
عرف أنها ارادة سميث الجميل أن يبقى هناك . واذن فقد خالف ارادة
الهين وناله هذا العقاب نتيجة لذلك . ولقد رأى كلابا تغير سادتها فى
الماضى ورأى الكلاب الهاربة تضرب كما ضرب الان . انه حكيم ومع
ذلك ففى طبيعته قوى أعظم من الحكمة . من هذه القوى الوفاء . انه
لا يحب السمور الاغبر ومع ذلك فهو مخلص له رغم ارادته وغضبه
ولا حيلة له فى ذلك وهذا الاخلاص صفة من صفات الطينة التى شكل
منها والصفة المميزة لهذا النوع من بين جميع الانواع الاخرى والصفة
التي دفعت الذئب والكلب البرى الى الحضور من البرارى لمصاحبة
الانسان .

وبعد الذى ناله الناب الابيض من ضرب مبرح جره سميث الجميل
الى داخل القلعة وقيده بالعصا والمرء لا يتخلى عن الهه بسهولة وهكذا
كان الامر مع الناب الابيض ، كان السمور الاغبر الهه الخاص وبالرغم
من ارادة السمور الاغبر ظل الناب الابيض متعلقا به ولم يرد أن يتخلى
عنه . لقد خانه السمور الاغبر وتخلي عنه ولكن لم يكن لكل هذا تأثير
عليه وهو الذى سلم نفسه له جسدا وروحا . ولم يكن هناك أدنى
تحفظ من جانب الناب الابيض وما كان الرباط لينفصم بسهولة .
وهكذا عمد الناب الابيض فى الليلة التالية بعد أن نام من بالقلعة

الى العصا واعمل فيها أنيابه وكانت جافة صلبة كما كانت مقيدة قريبا جدا من عنقه بحيث كانت أنيابه بالكاد تصل اليها . ولكنه استطاع بفضل الجهد العضلي الشديد الذى بذله وثنى عنقه أن ينجح فى وضع العصا بين اسنانه وثأبر فى صبر هائل ساعات طويلة على عض العصا وهذا أمر لا يفترض أن تستطيعه الكلاب ولم يسبق له مثيل ولكنه الناب الابيض استطاع وحطم العصا وفى الصباح المبكر كان الناب الابيض يركض خارجا من القلعة وطرف العصا يتدلى من عنقه .

وكان حكيما ولو كان مجرد حكيم فحسب لما عاد الى السمرور الاغبر الذى خانه مرتين ، ولكنه كان مخلصا فعاد ليخونه السمرور الاغبر مرة ثالثة واستسلم مرة أخرى للقيد الذى أحاط به السمرور الاغبر عنقه وجاء سميت الجميل مرة أخرى يطلبه . وفى هذه المرة ضربه بقسوة تفوق قسوة ضربه فى المرتين السابقتين .

ووقف السمرور الاغبر ينظر فى غير اهتمام والرجل الابيض يمسك السوط ولم يحم الناب الابيض الذى لم يعد كلبه . ولما انتهى الضرب أصبح الناب الابيض عليلا . ولو كان واحد من كلاب الجنوب الناعمة فى مكانه لمات من أثر هذا الضرب . كانت مدرسة حياته أشد صلابة من مدرسة حياة كلاب الجنوب وكان هو نفسه أشد صلابة من بقية نوعه . وكانت حيويته شديدة وتمسكه بالحياة قويا . ولكنه أصبح عليلا جدا . وفى أول الامر عجز عن جر نفسه جرا واضطر سميت الجميل الى الانتظار نصف ساعة واقفا بجواره . وبعد انقضاء نصف الساعة سار فى أعقاب سميت الجميل أعمى يترنح عائدا الى القلعة .

وقيد بسلسلة من حديد تتحدى أنيابه وحاول عبثا انتزاع السلسلة من قطعة الخشب المثبتة فيها يجذبها معه بعيدا . وبعد بضعة أيام رحل السمرور الاغبر مفلسا مبتدئا رحلته الطويلة الى ماكنزى ، وبقي الناب الابيض فى يوكون يملكه شبه مجنون ولكنه متوحش ولكن ماذا عساه ليعرفه كلب فى وعيه عن الجنون ، كان سميت الجميل عند الناب الابيض الها حقيقيا وإن كان رهيبا . كان الها مجنونا ، ولكن الناب الابيض لم يعرف شيئا عن الجنون بل عرف فقط أنه عليه أن يخضع لارادة هذا السيد الجديد وأن يطيع نزوته وخياله .

الفصل الثالث حكم الكراهية

وأصبح الناب الابيض تحت وصاية الاله المجنون عدوا له وظل مقيدا بالسلاسل فى حظيرة فى مؤخرة القلعة وهنا أخذ سميت الجميل يعاكسه ويضايقه ويعذبه حتى يصيبه بالجنون . وقد تبين الرجل مبكرا سرعة تأثر الناب الابيض بالضحك الذى يضمه السخرية بينما هو فى نفس الوقت يشير اليه بأصبعه مستهزئا ، وفى مثل هذه اللحظات يذهب عن الناب الابيض عقله ويهيج هياجا عظيما يجعله أكثر جنونا من سميت الجميل نفسه .

وكان الناب الابيض من قبل ذلك عدو نوعه - عدوا غاية فى الوحشية فأصبح الان عدوا لجميع الاشياء وأشد وحشية منه قبلا ولقد بلع سميت الجميل فى تعذيبه حدا جعل الناب الابيض يتمادى فى كراهيته العمياء الخالية تماما من أى بصيص من العقل . كره السلسلة الحديدية التى تقيده والرجال الذين يطلون عليه من شقوق جدران الحظيرة والكلاب التى فى صحبة الرجال والتى ترمجر فيه فى خبث وهو بلا حول أو قوة . كره نفس خشب الحظيرة التى تضمه بين جدرانها وكره سميت الجميل أولا وأخيرا .

ولكن كان لسميت الجميل غرض فى كل ما كان يفعله للناب الابيض وفى ذات يوم تجمع عدد من الرجال حول الحظيرة ، ودخل سميت الجميل والعصا بيده وحل وثاق الناب الابيض الحديدى . من عنقه ، وخرج من الحظيرة وبقي الناب الابيض طليقا وأخذ يدور فى أنحاء الحظيرة فى ثورة محاولا الخروج الى هؤلاء الرجال وكان منظره رهيبا وطوله خمسة أقدام كاملة وعرض كتفيه قدمان ونصف قدم أما وزنه فيفوق وزن أى ذئب فى حجمه ، وقد ورث عن أمه مثل وزن الكلب قبله وزنه وهو خال من أى دهن أو لحم زائده أكثر من تسعين رطلا . كان كله عضلات وعظما وأعصابا - كان مقاتلا فى أحسن حالاته .

وفتح باب الحظيرة ثانية . وتوقف الناب الابيض . كان هناك شئ غير عادى يحدث . وانتظر . وزاد اتساع فتحة الباب ثم دفع كلب ضخم الى داخل الحظيرة وأغلق الباب عليهما ولم ير الناب الابيض مثل

هذا الكلب من قبل ، كان ضخما جدا . ولكن ضخامة حجم هذا الكلب أو مظهره الوحشي لم يعوق الناب الابيض ، انه يرى أمامه شيئا لا هو بالخشب ولا هو بالحديد . انه شيء يستطيع أن يصب عليه جام كراهيته فوثب عليه بأنياب ذات بريق خاطف وانتزعت جانبا من عنق الكلب الضخم فهز هذا رأسه وزمجر زمجرة شديدة ووثب على الناب الابيض ولكن هذا وثب هنا وهناك وفي كل مكان متحاشيا ومرواغا دائما وهو مستمر في وثبه يصيب بأنياؤه ثم يشب مبتعدا في الوقت المناسب متحاشيا العقاب .

وصاح الرجال في الخارج صيحات الاستحسان وصفقوا وسميت الجميل في نشوة الابتهاج وهو يحدق النظر فيما يفعله الناب الابيض بغريمه وبدا لاول وهلة ألا أمل للكلب الضخم اذ كان غاية في ثقل الوزن بطيئا في الحركة . وبعد انتهاء المعركة دخل سميت الجميل بعصاه يحجز الناب الابيض عن الكلب الضخم الذي أخذ اصحابه يجرونه الى الخارج ودفع المتراهنون الرهان ورنت النقود في يد سميت الجميل .

وتطلع الناب الابيض في حماس الى جماعة الرجال حول حظيرته كان معنى ذلك أنه قتال ، وبنت هذه هي الطريقة الوحيدة التي منحت له للتعبير عن الحيوية التي بين جنبيه ، كان الرجل يعذبه وينسى فيه عاطفة الكراهية ويبقيه أسيرا حتى لا تكون هناك وسيلة لاشباع تلك الكراهية الا بأن يحطم له كلبا اخر وقتما يشاء وكان سميت الجميل يحسن تقدير الناب الابيض لانه ينتصر دائما ، وفي ذات يوم ساق اليه ثلاثة كلاب الواحد بعد الآخر . وفي يوم اخر أدخل عليه من باب الحظيرة ذئبا صيد حديثا وجيء به من البرية ، وفي ذات يوم جيء له بكلبين معا في وقت واحد . وكان هذا أشق قتال اشترك فيه وبالرغم من أنه قتلها في ختام المعركة الا أن هذا القتال كاد يكلفه حياته .

وفي فصل الشتاء بدأ الجليد يتساقط وأخذت ألواح الثلج تسيح فوق صفحة النهر . وركب سميت الجميل والناب الابيض باخرة أقلعت من يوكون في طريقها الى دوسون وكان الناب الابيض قد ذاع صيته في البلاد وعرف في طول البلاد وعرضها باسم « الذئب المقاتل » فأحاط الفضوليون بالقصص التي وضع فيه فوق السفينة فكان يشور ويزمجر فيهم أو يرقد بهدوء ويرقبهم بكراهية باردة ولماذا لا يكرههم ؟ انه لم يوجه لنفسه هذا السؤال بل كان يعرف الكراهية فحسب واستسلم وأصبحت الحياة بالنسبة له جحيما لا يطاق . فانه لم يخلق

لحياة الاسر التى تتحملها الحيوانات المتوحشة على أيدى البشر ومع ذلك فانه كان يعامل على هذا النحو بالذات ، يحدق الناس فيه النظر من خلال قضبان حديدية لتدفعه الى الزمجرة ثم تضحك منه .

وكان هؤلاء الناس يبنته وهم يشكلون طينته حتى يصبح أكثر وحشية مما خلقتة الطبيعة ، وبالرغم من ذلك فان الطبيعة منحته صفة الطواعية ، ولو كان أى حيوان فى مكانه لمات غما وكما أو انهارت روحه المعنوية ، وكان من الممكن لسميث الجميل عدو الناب الابيض اللدود ومعذبه أن يقضى على روحه ولكن لم تبد أية دلالة على ذلك حتى الآن .

ولئن كان الشيطان كامنا فى نفس سميث الجميل فقد كان فى الناب الابيض شيطان مثله ولم يكف كلا الشيطانين عن الهياج على الشيطان الآخر . وكان من شأن الناب الابيض من قبل الحكمة التى تدفعه الى الانكماش والخضوع لرجل بيده عصا ولكن هذه الحكمة زالت عنه الآن ، اذ أصبح يكفيه أن يرى سميث الجميل ليهيج هياجا عثيفا واذا دنا أحدهما من الآخر وضربه سميث الجميل بالعصا زمجر وكشر عن أنيابه ولا يستطيع شئ أن يوقفه عن الزمجرة ولو اشتد عليه الضرب فاذا توقف سميث الجميل عن الضرب وانسحب تبعته الزمجرة المتحدية أو وثب الناب الابيض على القضبان الحديدية يصب عليه كراهيته .

وعندما وصلت الباخرة الى دوسون أنزل الناب الابيض على الشاطئ وهو فى قفصه وقد أحاط به الفضوليون من البشر وعرض على الناس باعتباره « الذئب المقاتل » ودفع المتفرجون عليه خمسين سنتا ذهبيا مقابل مشاهدته ، ولم يأخذ أى نصيب من الراحة واذا هو أراد النوم أيقظته وخزة عصا حادة حتى يرى الجمهور منه مقابل مادفعه ثمنا لرؤيته وكانوا يبقونه فى حالة هياج دائم لكى يكون العرض مسليا . ولكن كان هناك ما هو اسوأ من كل هذا وهو الجو الذى يعيش فيه ، فقد كان يعتبر أكثر الوحوش البرية تخويفا ورأى مظاهر ذلك من خلال القضبان الحديدية فقد رأى فى كل كلمة يقولها هؤلاء الناس أو اشارة يأتونها دليلا على وحشيته الرهيبة فزاد ذلك لهب وحشيته اشتعالا . ولم تكن لهذا سوى نتيجة واحدة هى نمو وحشيته وزيادتها وجاء هذا دليلا اخر على مرونة طينته وقابليتها للتشكل تحت ضغط البيئة .

وبالإضافة الى عرضه على الناس فانه كان حيوانا مقاتلا ، وأحيانا

كانوا ينظمون قتالا بينه وبين كلب آخر فيخسرجه سميت الجميل من قصصه ويقوده الى الغابات على بعد بضعة أميال من المدينة ، ويحدث هذا ليلا عادة وذلك لتحاشي تدخل فرسان البوليس في المنطقة وبعد بضع ساعات انتظار يطلع الفجر ويأتى الجمهور والكلب المحدد لقتاله وبهذه الوسيلة قاتل كل أنواع الكلاب ويشتى أحجامها ، وكانت تلك المنطقة متوحشة وأهلها متوحشون والقتال ينتهى بالموت .

ويدل استمرار الناب الابيض فى القتال على أن الكلاب الاخرى ماتت وأنه لم يعرف الهزيمة ذلك لان تدريبه فى أوائل حياته عندما قاتل لبلب وقطيع الجراء كله قوم بناءه واكسبه الصلابة التى تثبت أقدامه فى الارض فما كان كلب يستطيع أن ينتزعه من موقفه وكانت الحيلة البارعة المحبوبة عند الكلاب المنحدرة من سلالات ذئبية هى الاندفاع اليه سواء مباشرة أم بحركة مفاجئة على أمل دفع كتفه واسقاطه على الارض . حاولت كل كلاب تلك المنطقة إيقاعه على الارض فلم نفلح وتأكد الجميع من ثبات أقدامه فى الارض وتناقل الناس حديث ذلك وأخذوا يرقبون مثل هذا الموقف .

ثم كانت له صفة أخرى الى جانب ثبات أقدامه وهى سرعته الخاطفة التى تميزه عن منافئيه . اذ مهما كانت خبرة هذه الكلاب فى القتال فانها لم تكن لها طول تلك الخبرة وما كانت لتتحرك بنفس السرعة التى يتحرك بها أو تضرب ضربته المباشرة ، ويلجأ الكلب العادى الى التمهيد للعراك بالزمجرة ونفث الشعر فكان الناب الابيض يقلبه على الارض ويقضى عليه قبل أن يبدأ القتال أو قبل أن يفيق من أثر المفاجأة وكثيرا ما حدث هذا حتى أصبحت العادة امسك الناب الابيض حتى ينتهى الكلب الاخر من استعداداته التمهيدية بل ويقوم بهجمته الاولى .

ولكن اكبر مزايا الناب الابيض هى خبرته . كان يعرف عن القتال أكثر مما يعرفه أى واحد من الكلاب التى واجهته اذ كان قد اشترك فى معارك أكثر من المعارك التى خاضها أى واحد منها ويعرف من الحيل والخدع والطرق أكثر مما تعرف الكلاب جميعا بل لقد ابتكر هو بعض الطرق فى القتال .

ومع مرور الزمن قل عدد المعارك التى اشترك فيها فقدة يشس الناس من أن يجدوا ندا له واضطر سميت الجميل الى أن يؤلب عليه الذئاب ، وكان الهنود الحمر ينصبون الفخاخ لصيد الذئاب لهذا الغرض وكان تدبير معركة بين الناب الابيض وأحد هذه الذئاب كفيلا بأن يجمع حشدا من المتفرجين . وصيدت اثنتى فهد ذات مرة وكانت

كاملة النمو وفي هذه المرة قاتلها الناب الابيض فى سبيل المحافظة على حياته . اذ لم تكن تقل عنه سرعة أو وحشية وكان يقاتلها بأنيابه فقط بينما تقاتله هي بالناب والمخلب الحاد .
وبعد هذه المعركة كف القتال بالنسبة للناب الابيض اذ لم تعد هناك حيوانات ليقاتلها أو على الاقل حيوانات جديرة بقتاله ، وهكذا اكتفى بعرضه على المتفرجين حتى جاء فصل الربيع اذ وصل الى تلك المنطقة تيم كينان المقامر بورق اللعب وفي صحبته كلب ضخم من نوع البولدوج فكان أول ما دخل كلوندايك من هذه الكلاب وكان لابد من أن يلتقى الناب الابيض وهذا الكلب . وظل القتال المنتظر بينهما موضوع حديث بعض أحياء المدينة اسبوعا قبل وقوع هذا القتال .

الفصل الرابع الموت المعلق

فك سميث الجميل السلسلة من حول عنق الناب الابيض وتراجع خطوة الى الوراء .

وللمرة الاولى في حياة الناب الابيض لم يهاجم مهاجمته المباشرة بل وقف ساكنا وقد نصب اذنيه الى الامام في يقظة وانتباه وفضول يفحص الحيوان الغريب الذى يواجهه ولم يكن قد رأى مثل هذا الكلب من قبل ، ودفع تيم كينان الكلب الضخم الى الامام وهو يتمتم قائلا .
« اذهب اليه »

وتهادى الحيوان نحو مركز الدائرة قصيرا ثقيلنا بطيئا . وتوقف ورمش بعينيه نحو الناب الابيض .
وتعالت صيحات الجمهور .

« اذهب اليه يا تشيروكى ! اضربه يا تشيروكى ! كله يا تشيروكى !
ولكن تشيروكى لم تبد عليه لهفة الى القتال ، وأدار رأسه ونظر الى الرجال الصائحين وهو فى نفس الوقت يهز ذيله القصير فى طيبة لم يكن خائفا بل كان كسولا فحسب . وفضلا عن ذلك فانه لم يبد له أن المقصود من هذا الموقف هو أن يقاتل الكلب الذى أمامه . ولم يكن متعودا القتال مع كلاب من هذا النوع وانتظر أن يؤتى له بالكلب الحقيقى .

وتقدم تيم كينان خطوات الى الامام وانحنى فوق تشيروكى ونخسه فى جانبى كتفيه بيديه وذلك جلدور شعره حتى دفع جلده الى الامام . وكانت فى هذا اىحاءات عديدة كما كانت مضايقة لتشيروكى وبدأ يزمجر بصوت خافت جدا عميق النبرات فى حلقه . وكان هناك تناسب بين هذه الحركات وبين الزمجرة وارتفعت نبرة الزمجرة مع كل زيادة فى حركة يدى الرجل ثم خفت الزمجرة لتعود الى الارتفاع من جديد مع بداية الحركة الجديدة وتوقفت الحركة واستمرت الزمجرة وعلت فجأة .

وكان لهذا تأثيره على الناب الابيض وبدأ شعر ظاهر عنقه ينتصب وكذلك شعر كتفيه . ودفع تيم كينان كلبه الدفعة النهائية الى الامام

وتراجع الى الوراء حيث كان من قبل . وبعد أن انتهى الحافز الذى دفع تشيروكى الى الامام استمر فى المضي قدما بمحض ارادته فى جرى سريع انحنت له سيقانه وعندئذ هجم الناب الابيض وارتفعت صريريات الاعجاب والدهشة فقد قطع الناب الابيض المسافة بينه وبين غريمه بسرعة وخفة القط . وبنفس السرعة غرس فيه أنيابه ثم وثب بعيدا عنه .

ونزف الدم من شق وراء اذن تشيروكى فى عنقه الغليظ ولم تظهر منه أية دلالة على تأثيره بل ولم يزمجر أو يكشر عن أنيابه بل استدار وطارد الناب الابيض ، واستمر العرض من الجانبين سرعة من جانب وثبات من جانب اخر مما أثار روح التحيز فى الجمهور وتراهن الرجال مرافعات جديدة وزادوا رهانهم القديم وهجم الناب الابيض مرة ثانية وثالثة وطعن غريمه ووثب مبتعدا عنه دون أن يمسه اذى ومع ذلك استمر عدوه الغريب يتبعه بدون تعجل لم يكن بطيئا ولكنه كان مصمما متحققا بصورة عملية ، وكان وراء طريقته هذه هدف - هدف يعتزم تحقيقه ولا شيء يمكن أن يحول بينه وبين تحقيقه .

وكان سلوكه كله وكل حركة من حركاته مطبوعة بهذا الهدف . وحيرت هذه الطريقة الناب الابيض . انه لم ير مثل هذا الكلب من قبل قط . لم يكن على جسمه شعر يحميه بل كان جلده ناعما تسهل اسالة دمه منه فلم يكن هناك ذلك الغطاء السميك من الفراء الذى يضلل الناب الابيض عادة عندما يهاجم الكلاب الاخرى ذات الفراء . وفى كل مرة يضربه بأنيابه يغرس هذه الانياب بسهولة فى اللحم اللين بينما لا يبدو لدى الكلب أية قدرة على الدفاع عن نفسه . وهناك شيء محير اخر وهو أنه لم يصدر عنه أى عواء أو صياح كما تعود أن يسمع ويرى من الكلاب الاخرى التى قاتلها . وتلقى هذا الكلب الضخم عقابه فى صمت اللهم الا زمجرة أو همهمة يسيرة . ولكنه لم يتوقف عن مطاردة الناب الابيض .

ولم يكن تشيروكى بطيئا بل هو سريع جدا فى الاستدارة والدوران حول نفسه ولكن الناب الابيض كان يروع منه دائما مما حير تشيروكى هو الاخر اذ لم يسبق له أن قاتل من قبل كلبا لا يستطيع الاطباق عليه وفى كل قتال سابق كانت الرغبة متبادلة بينه وبين الكلب الاخر فى الاطباق كليهما على الاخر ، أما هذا الكلب فإنه مبتعد دائما يرقص ويراوغ هنا وهناك وفى كل الانحاء . وعندما يغرس أسنانه فيه لا يستمر طويلا فى مثل هذا الوضع بل يتخلى عنه بسرعة ويمضى بعيدا

ولكن الناب الابيض لم يستطع الوصول الى الجزء السفلى الناعم من عنق تشيروكى فقد كان هذا الكلب غاية في القصر كما كانت فكاه الضخمتان درعا واقيا . وعجم الناب الابيض وتراجع دون أن يمس به ضرر بينما أخذ عدد جراح تشيروكى في الازدياد . وامتدت الخدوش والشقوق في جانبي عنق ورأس تشيروكى ونزف الدم منه غزيرا ولكن لم يبد عليه أى أثر للانزعاج بل استمر في مطاردته الا أنه حدث ذات مرة أن توقف توقفا تاما ورمش بعينه للرجال الناظرين اليه وهو في نفس الوقت يهز ذيله تعبيرا عن رغبته في القتال .

وفي تلك اللحظة هجم عليه الناب الابيض وارتد عنه وفي هذه المرة قطع الباقي من احدى اذنيه . وظهر شيء من الغضب على تشيروكى وعاد الى مطاردة الناب الابيض متعمقا داخل الدائرة التي يصنعها الناب الابيض بدورانه ويحاول أن يسرع بالاطباق على عنق الناب الابيض فيقضى عليه ، وكاد يحقق هذه الغاية ولكنه أخطأ بمسافة قيد شعرة وارتفعت صيحات الاستحسان اذ ابتعد الناب الابيض فجأة وفي تلك اللحظة المناسبة متجها الى الناحية الاخرى ونجا من الخطر .

ومضى الوقت وبقي الناب الابيض يرقص ويراوغ وينثنى ويشب عليه ثم يشب عنه وهو دائم احداث الاصابات به ومع ذلك ظل الكلب الضخم يجرى وراءه فى ثقة كبيرة فى انه سيحقق غرضه ان عاجلا وان اجلا وسيقبض قبضته التي تحقق له النصر فى المعركة . وفى خلال ذلك تقبل كل عقاب استطاع الاخر أن ينزله به . اصبحت أذناه شرايح كأنها خيوط وأصيب عنقه وكتفاه بعدة خدوش وجراح كبيرة وشقت شفتاه وأخذتا تنزفان وما من أثر تلك الهجمات الخاطفة التي تفوق تنبؤاته وحذره .

وحاول الناب الابيض المرة تلو الاخرى أن يوقع تشيروكى على الارض ولكن الفارق بين ارتفاعهما كان كبيرا جدا . ولجأ الناب الابيض الى هذه الحيلة أكثر من مرة وواتته الفرصة فى احدى انثناءاته السريعة ومخالفة الدوران ففاجأ تشيروكى اذ كان رأسه مائلا عنه وهو يدور على نحو أكثر بطنا وانكشف كتف تشيروكى فهجم الناب الابيض عليه ولكن كتفه هو كانت عالية فعند هجومه بقوة شديدة حملته دفعته فوق غريمه الى الناحية الاخرى . ولاول مرة فى تاريخ قتال الناب الابيض رآه الناس وقد ارتفعت سيقانه عن الارض فأدار جسمه وهو لا يزال فى الهواء وكان من المحتمل أن يقع على ظهره لو لم ينثن فى مهارة القط وهو فى الهواء وذلك حتى يهبط على أقدامه ولكنه وقع على جنبه . وفى

الملحظة التالية كان قد نهض على أقدامه ولكن فى تلك اللحظة أطبقت أسنان تشيروكى على عنقه .

ولكن تشيروكى لم يحكم أطباق فكيه وذلك لقربه من الارض واستمر تشيروكى ممسكا بعنق الناب الابيض الذى وثب فاهضا على أقدامه ودار حوله بهوس محاولا إبعاد الجسد الثقيل عنه وأصيب الناب الابيض بالهوس بسبب هذا الثقل المعلق بعنقه والذى قيد حركاته وحريته . كان كالفع واستامت منه غريزته وتمردت عليه تمردا مجنوناً وظل عدة دقائق مجنوناً وسيطرت عليه الحياة الاساسية فيه وغلبت عليه ارادة بقاء جسده وهيمن عليه مجرد حب هذا الجسد الحياة ، وذهب عنه كل تفكير وبدا وكأنما لم يعد له عقل اذ حل محل هذا العقل لهفة الجسد العمياء للبقاء والحركة ، والحركة مهما كانت المخاطرة والاستمرار فى الحركة لأن الحركة تعبير عن وجوده .

وظل يدور ويدور ثم يعكس دورانه محاولا التخلص من هذا الثقل الذى يزن خمسين رطلا والمتعلق بعنقه . وظل تشيروكى قابضاً على العنق بفكيه واستطاع أحياناً ولكنها أحيان نادرة أن يثبت أقدامه على الارض لحظة واحدة ليثبت فى موقع ما ازاء الناب الابيض . ولكنه سرعان ما يفقد هذا الثبات اذ يجره الناب الابيض معه ويدور به فى جنون وعرف تشيروكى بغريزته أن عمله هذا هو الصواب وأنه يجب عليه أن يظل ممسكا بعنق الناب الابيض وأشعره هذا بالرضا وأحسن هزة الرضا وفى اللحظة التى يغمض فيها عينيه ويسمح لجسده بالتأرجح هنا وهناك طبقاً لجذب الناب الابيض اياه دون أن يهتم بأى اذى يلحق به نتيجة لهذا ظل متمسكاً بتلك القبضة على عنق غريمه . ولم يكف الناب الابيض عن هذه الحركة الا بعد أن انهكه التعب لم يعد مستطيعاً أن يفعل شيئاً ولم يستطع أن يفهم سر ذلك . انه أمر لم يحدث له قط طول عهد قتاله فالكلاب التى قاتلها لم تقا تل على هذا النحو . لم يكن قتاله معها يكلفه اكثر من أطباق فم أو غرس أنياب ثم الابتعاد عنها . ويكرر ذلك عدة مرات . ووقد على جنبه تقريباً وهو يلهث ، واستمر تشيروكى مطبقاً فمه ويدفعه بجسمه ليلقيه على جنبه تماماً . وقاوم الناب الابيض وأحسن ضغط الفكين يخف قليلاً ثم تطبقان ثانية فى حركة مضغ فى كل انتقال من هذه الانتقالات وكانت طريقة الكلب الضخم أن يظل متمسكاً بما بين أنيابه وأن يزداد امعساناً فى الامساك كلما أتاحت له الفرصة لذلك ، وأتيحت له الفرصة عندما كف الناب الابيض عن الحركة وعندما كافح الناب الابيض اكتفى تشيروكى بالامساك .

وكان ظاهر عنق تشيروكى البارز هو الجزء الوحيد من جسده الذى يمكن لاستئان الناب الابيض أن تنال وأمسك بقاعدة ظاهر العنق عند اتصاله بجسده بين الكتفين ولكنه لم يكن يعرف طريقة المضغ فى القتال كما أن فكيه لم تكونا لتتلاهما مع هذه الطريقة وأخذ ينشئ أنيابه فى ظاهر عنق تشيروكى فى حركة تشنجية ويمزق فيه . ثم حدث تغيير فى موقفيهما فابعد عما كان فيه اذ استطاع تشيروكى أن يقلب الناب الابيض على ظهره وأن يصبح فوقه وهو لا يزال ممسكا بعنقه ، وضم الناب الابيض ساقيه الخلفيتين اليه كما يفعل القط وأخذ يحفر بهما فى بطن تشيروكى وهو فوقه ويضربها بمخالبه التى أبرزها عن آخرها وكان من الممكن أن يقرر بطن تشيروكى لو لم يدر هذا مبعدا بين جسميهما دون أن يفلت عنق الناب الابيض من بين فكيه .

ولم يكن هناك مفر من هذه القبضة التى كانت كالقدر نفسه لا ترحم وانتقل المكان الى أعلى قليلا قليلا على طول العنق وكل ما أنقذ الناب الابيض من الموت هو عدم التصاق جلده الذى أمسكه تشيروكى بهلحم عنقه ثم ذلك الفراء السميك الذى يغطى ذلك الجلد والذى كون كرة كبيرة ملأت فم الكلب الضخم وتحدثت أسنانه ولكنه زاد مقدار ما يدخل فمه من ذلك الجلد وهذا الفراء شيئا فشيئا كلما سنحت له الفرصة لذلك . وأسفر هذا عن أنه بدأ يخنق الناب الابيض فى بطنه حتى أصبح هذا يجد صعوبة فى التنفس وازدادت الصعوبة بمرور الدقائق .

وبدت المعركة منتهية وابتهج المراهنون على تشيروكى وعرضوا رهانات عجيبة أما المضاربون على الناب الابيض فقد أصابهم القنوط وعرض الاولون عليهم رهانات بنسبة ١٠ الى ١ بل وحتى ٢٠ الى ١ فرفض المضاربون على الناب الابيض هذه العروض بل وبلغ التهشور بأحد أفراد الفريق الاول فعرض على سميث الجميل رهانا بنسبة ٥٠ الى ١ وتقدم سميث الجميل داخل الحلقة وأشار بأصبعه الى الناب الابيض ثم أخذ يضحك ساخرا مستهزئا . وأسفر هذا عن النتيجة المطلوبة ، وهاج الناب الابيض نائرا ، واستجمع احتياطيه من القوة ووقف على أقدامه وبينما هو يناضل للفكاك من قبضة أسنان الكلب الضخم ويدور حول الحلقة ظلت الخمسون رطلا معلقة بعنقه وهو يجذبها معه فذهبت عنه سورة الغضب وحل محله الذعر وسيطرت عليه الحياة الاساسية من جديد وهرب الذكاء أمام ارادة جسده الحياة

ودار ودار ثم عاد ثانية وتعثرو وسقط ونهض وتقهقر أحيانا على ساقيه الخلفيتين ورفع عدوه عن الارض ولكن هذا الكفاح فى سبيل التخلص من الموت المعلق بآء بالفشل .

وأخيرا سقط متعثرا الى الورا وقد أنهكت قواه ونقل الكلب الضخم قبضته على الفور وزادها قربا من حلقه مائلا فمه بالمزيد من الفراء والجلد وزاده اختناقا وعلت صيحات الاستحسان للمنتصر وتعددت الصيحات .

« تشيروكى ! تشيروكى ! » .

واستجاب تشيروكى لهذا بهز ذيله القصير ولكن صيحات الاستحسان لم تصرفه عما هو فيه . ولم تكن هناك علاقة تعاطف بين ذيله وفكيه الضخمتين ، وقد يهتز ذيله ولكن الفكين ظللتا فى قبضتهما الرهيبة على عنق الناب الابيض .

وفى هذا الوقت شغل النظارة عما يرون بشيء اخر هو رنين أجراس وسماهم صوت قائدى الكلاب ، وتطلع الجميع فى خوف ما عدا سميث الجميل ، وكان الخوف من أن يكون القادمون من قوة البوليس ، ولكنهم رأوا فى أعلى الطريق لا فى أسفله رجلين تجرى بهما زحافة تجرهما الكلاب . وكانا بداهة اثنين على طول الوادى من احدى رحلات التعدين ، وحالما رأيا هذا الجمع أوقفا كلابهما وانضمّا الى الجمع وقد ثار فضولهما لرؤية سبب هذا الانفصال . وكان قائد الكلاب ذا شارب كبير أما الاخر فقد كان أطول منه قامة وأكثر شباهيا كما كان حليق اللحية متورد الوجه من أثر اندفاع الدم الحار فى عروقه من سرعة الجرى فى الهواء البارد .

وكان الناب الابيض قد كف عن النضال تماما الا أنه أخذ بين لحظة وأخرى يبدل شيئا من المقاومة فى تشنّج ولكن بلا هدف . وقلت كمية الهواء التى تدخل رئتيه مع تنفسه وزادت قلتها لحظة بعد أخرى مع تشدد القبضة التى لا ترحم ، وبالرغم من هذا الدرع من الفراء فان حبل وريد الناب الابيض كان ينقطع لو لم تكن قبضة تشيروكى الاولى منخفضة جدا قريبا من الصدر واستغرق تشيروكى وقتا طويلا فى نقل تلك القبضة الى أعلى وفى هذا الانتقال زاد امتلاء فمه بالفراء وثنيات الجلد .

وفى أثناء ذلك استيقظ الوحش الكامن فى أعماق نفس سميت الجميل وسيطر على ذهنه وتحكم فى ذلك القدر الضئيل من العقل الذى كان فى رأسه ، ولما رأى عيني الناب تترججان وثق من أن القتال

قد انتهى وعندئذ انطلق ووثب على الناب الابيض وأخذ يركله بوحشية وبدأت هممة وصيحات احتجاج تصدر من الجميع ولا أكثر من ذلك . واستمر الحال هكذا وسميث الجميل يركل الناب الابيض حتى حدثت حركة بين الجمع اذ أخذ الشاب المديد القامة يشق طريقه بين الحشد بالقوة يدفع الرجال بكتفيه يمنة ويسرة بدون أية مراعاة للياقة أو الرفة ، وعندما دخل الحلقة الخالية كان سميث الجميل يوجه ركلة أخرى الى الناب الابيض وقد اعتمد بكل ثقله على ساق واحدة فكان في حركة توازن غير مستقرة . وفي تلك اللحظة لكمه القادم الجديد لكمه شديدة في وجهه فارتفعت ساق سميث الجميل الواقفة على الارض في الهواء وبدأ جسده كله معلقا في الفضاء واستدار هذا الجسد في الهواء الى الوراء وسقط على الجليد والتفت القادم الجديد الى الجمهور وصاح قائلا :

« أيها الجبناء ! أيها الوحوش ! » .

وكان هو نفسه هائجا . ولكنه هياج عاقل . وبدت عيناه السمران كالمدن . كمدن الصلب وهما تلمعان على الجمهور . ووقف سميث الجميل على قدميه وجاء نحوه في جبن وخوف . ولم يفهم القادم الجديد ولم يعرف أي رعديد كان سميث الجميل وظفه قادما يقائله ولهذا لكمه في وجهه لكمة قوية أخرى وهو يسبه قائلا :

« أيها الوحش ! » .

وأوقعه على الارض . ورأى سميث الجميل أن الجليد خير مكان أمين يلجأ اليه ورقد حيث سقط ولم يبذل أي جهد للقيام . ونادى القادم الجديد قائد الكلاب الذي كان يتبعه الى داخل الحلقة .

« تعال يا مات . . ساعدني . »

وانحنى الرجلان فوق الكلبين وأمسك مات الناب الابيض مستعدا لجذبه عندما ينفتح فكا تشيروكي . وهذا هو ما حاوله الشاب بامسك فكي الكلب الضخم بيديه محاولا فتحهما . ولكن كان ذلك عبثا . وبينما كان يجذب وينتزع احدي الفكين من الاخرى ظل يردد مع كل تنفس .

« يا لكم من وحوش ! »

وساد الهرج وأخذ البعض يحتجون على افساد اللعبة ولكن القادم الجديد اسكتهم عندما رفع رأسه عن عمله لحظة ونظر اليهم في حدة قائلا في انفجار .

« ايها الوحوش الملعونة ! »

ثم استمر فى عمله .

وأخيرا قال مات

« لا جدوى يا مستر سكوت فانك لن تستطيع ابعاد احدى الفكين

عن الاخرى بهذه الطريقة . »

وتوقف الاثنان وفحصا الكلبين المتشابكين :

وقال مات :

« انه لا ينزف كثيرا . . ولم يقض عليه بعد . »

ورد عليه سكوت قائلا :

« ولكنه قد ينتهى فى أية لحظة . انظر ! هل رأيت ذلك . لقد

زاد قبضته امعانا . »

وزاد انفعال الشاب وخوفه على الناب الابيض واخذ يضرب الكلب

الضخم على رأسه بوحشية ولكنه لم يفتح فكيه . وهز تشيروكى ذيله

القصير اعلانا لفهمه معنى الضربات واعلانا لانه يعلم أنه على صواب

وأنه انما يؤدى واجبه بالمحافظة على قبضته .

وصاح سكوت فى الجميع يائسا :

« ألا يساعدنى بعضكم ؟ »

ولكن لم يعرض أى واحد منهم أية مساعدة بل انهم بدأوا يحيونه

ساخرين ويمطرونه بالنصائح المازحة .

وأشار مات عليه قائلا :

« لابد أن تجد شيئا تدسه بين فكيه .

ومد الاخر يده فى حزامه وأخرج منه مسدسه وحاول ادخال

ماسورة المسدس بين فكي الكلب الضخم ، واخذ يدسه بقوة حتى

أصبح صوت احتكاك صلب المسدس بأسنان الكلب مسموعا بوضوح

وكان الرجلان راكعين على ركبهما منحنيين فوق الكلبين . ودخل تيم

كينان الى وسط الحلقة ، ووقف بجوار سكوت ولمس كتفه قائلا بلهجة

التهديد :

« لا تكسر أسنان الكلب ايها الغريب . »

ورد عليه سكوت بعنف قائلا .

« اذن سأكسر عنقه . »

ثم استمر فى دس ماسورة المسدس بين الفكين .

وقال المقامر بنغمة أشد من سابقتها نزيها .

« قلت لك لا تكسر أسنانه »

وكان يقصد اخافته ولكنه لم ينجح فى هذا ولم يكف سكوت عن
بذل جهوده بل تطلع اليه وسأله فى برود :
« أهو كلبك ؟ »

• وهمهم المقامر بالايجاب .
وقال سكوت :

« اذن تعال وفك قبضته • »

• وقال الآخر وهو يشعر بالضيق .

« حسن أيها الغريب ، لا بأس فى أن أقول لك ان هذا شيء لم
اعمله من قبل ولا أعرف كيف يتم • »
ورد عليه سكوت قائلا :

« اذن لا تتدخل ولا ترزعجنى فانا مشغول • »

وظل تيم كينان واقفا بجواره ولكن سكوت لم يعد يابه بوجوده
واستطاع أن ينفذ ماسورة المسدس بين الفكين حتى برزت من الناحية
الآخرى وأخذ يحرك ماسورة المسدس شيئا فشيئا بينما أخذ مات
يخلص عنق الثاب الابيض قليلا قليلا •

وأمر سكوت المقامر صاحب تشيروكى بالانتظار حتى يأخذ كلبه
وأطاع المقامر الامر وانحنى ليمسك تشيروكى بأحكام •
وقال سكوت وهو يدفع ماسورة المسدس بين الفكين اخر دفعة
« أخيرا ! »

وانفصل الكلبان كلاهما عن الآخر وقاوم الكلب الضخم امساكه
بقوة وقال سكوت •
« خذه بعيدا • »

• وجر تيم كينان تشيروكى الى داخل صفوف الجمهور •
وبذل الثاب الابيض عدة جهود غير مجدية للنهوض • واستطاع
الوقوف على اقدامه أثناء احدى هذه المحاولات ولكن سيقانه كانت غاية
فى الضعف فلم تستطع حمله ومال فى بطن وغاص على الجليد مرة
أخرى • وكانت عيناه شبه مغمضتين وسطحهما لامعا كالزجاج وانفراج
فكاه وتدللى لسانه بينهما خدرا • وشابهت كل مظاهره مظاهر كلب
خنق حتى مات •

وفحصه مات وقال :

« لا يزال حيا • ولكن قدرته على التنفس زادت • »

• ووقف سميث الجميل على قدميه وجاء مرة أخرى ينظر الى الثاب
الابيض وقال سكوت :

كم يساوى كلب الزحافة الجيد يا مات ؟ ،
وفحص قائده كلاب الزحافة الناب الابيض وهو لا يزال راكما
بجواره وقال :

« ثلثمائة دولار »

وعاد سكوت يسأل من جديد وهو يدفع الناب الابيض بقلعه .

« وكم يساوى كلب الزحافة الذى كاد يؤكل هكنا ؟ »

« نصف ذلك المبلغ »

ووجه سكوت حديثه الى سميت الجميل قائلا .

« هل سمعت أيها السيد الوحش ؟ سأخذ هذا الكلب منك

وسأعطيك مائة وخمسين دولارا ثمنا له » .

وفتح كيس نقوده وأخذ يعد الاوراق النقدية .

ووضع سميت الجميل يديه وراء ظهره ورفض أن يلمس المال
المعروض عليه وقال .

« لن أبيع »

وقال له الرجل الاخر مؤكدا .

« بل ستبيعه لانى سأشتريه . خذ هذه هي نقودك وهذا الكلب

كلبى »

وأخذ سميت الجميل يتراجع الى الوراء ويداه خلف ظهره .

ووثب سكوت نحوه وأعد قبضته لضربه ومال سميت الجميل

جانبا متوقعا وصول اللكمة الى وجهه .

ونهنه قائلا :

« احتفظ بحقى » .

ورد عليه سكوت قائلا

« لقد تنازلت عن جميع حقوقك فى هذا الكلب فهل ستأخذ هذا

المال أم أضربك ثانية ؟ »

وأجاب سميت الجميل فى خوف واضح قائلا :

« حسن سأخذ المال وأنا احتج . فالكلب منتج ذهب ولا اسمح

لاحد بأن يسلبنى اياه ولكل انسان حقوقه » .

وأجابه سكوت وهو يقدم له النقود قائلا :

« صحيح أن لكل انسان حقوقه . ولكنك لست انسانا بل انت

وحش . »

وهدهد سميت الجميل قائلا :

« انتظر حتى أعود الى دوسون وسأرفع قضية ضدك » .

« اذا فتحت فمك بعد عودتك الى دوسون طردتك من المدينة ،
هل تفهمنى ؟ » •

ورد سميث الجميل بهمه غير مفهومة •

وقال الاخر فى زئير وبوحشية مفاجئة •

« هل تفهمنى ؟ »

ورد سميث الجميل بهمه وهو يتكلم قائلًا :

• « نعم »

« نعم ماذا ؟ »

وكشر سميث الجميل عن اسنانه وقال فى شبه زمجرة •

• « نعم يا سيدى »

وصاح أحدهم قائلًا :

« انتبه ! انه سيعض ! »

وارتفع ضجيج الضحك •

وأدار سكوت له ظهره وعاد يساعد قائد الكلاب الذى كان يدلك

النااب الابيض •

وأخذ بعض الرجال فى الانصراف ووقف البعض الاخر فى جماعات

صغيرة يتطلعون ويتكلمون • • وانضم اليهم كينان وسال القوم •

« من هذا ؟ »

ورد عليه أحدهم قائلًا :

« انه ديدون سكوت »

وسأله المقامر ثانية :

« ومن يكون ديدون سكوت هذا بحق الجحيم ؟ »

• وجاءه الجواب •

« انه واحد من الخبراء فى التعدين وهو يعمل مع واحد من كبار

الاغنياء واذا أردت السلامة لنفسك كان عليك أن تبتعد عن طريقه

واستمع لنصيحتى • انه على صلة بالمستولين • والمشراف على الذهب

صديق حميم له •

وكان تعليق المقامر على هذا القول :

« لقد خطر ببالي أنه مهم • ولهذا ابعدت يدى عنه منذ البداية •

الفصل الخامس

الذى لا يتحرق

واعترف ديدون سكوت بأنه لا أمل فيه
وجلس على سلم كوخه وحقق النظر فى قائد الكلاب الذى رد على
هذه الملاحظة بهزة من كتفه تتضمن معنى القنوط. بالمثل .
ونظرا معا الى الناب الابيض فى الطرف البعيد من سلسلته
الحديدية المشدودة وهو ينفش شعره ويضمجر فى وحشية وتوتر
يحاول الوصول الى كلاب الزحافة وذلك بعد أن تلقى عدة دروس من مات
بالمصا . وكانت كلاب الزحافة قد تعلمت أن تترك الناب الابيض
وشأنه . وهى وقتئذ راقدة بعيدا عنه وبدا عليها أنها تتجاهل وجوده .

وقال ديدون سكوت :

« انه ذئب ولا أمل فى استئناسه »

واعترض مات قائلا :

« لا أعرف شيئا عن ذلك . ربما كانت فيه نسبة كبيرة من الكلب .
هذا هو كل ما يمكن أن نقوله عنه . ولكن هناك شيئا واحدا أعرفه بصورة
مؤكدته ولا مفر منه

وصمت قائد الكلاب وأشار برأسه الى جبل جلد الغزال فى غموض
وقال سكوت فى حدة بعد أن انتظر وقتا طويلا :

« لا تبخل بما تعرف وقله . ما هو ؟ »

وأشار قائد الكلاب الى الناب الابيض بظاهر ابهامه وقال

« سواء أكان ذئبا أم كلبا فإنه مستأنس فعلا . »

« كلا »

« صدقنى ففى جسده آثار قيود الزحافة . انظر هنا بامعان الا ترى

هذه العلامات على صدره ؟ »

« أنت على حق يامات . كان كلب زحافة قبل أن يستولى عليه

سميث الجميل . »

« وليس هناك ما يحول دون أن يعود كلب زحافة . »

وسأله سكوت بحماس :

« ما رأيك ؟ لقد انقضى أسبوعان على وجوده عندنا ومع ذلك فهو

اشد ضراوة الآن منه فى أى وقت مضى .

واشار مات عليه قائلا :

« اعطيه فرصة واطلق سراحه على سبيل التجربة » .

ونظر اليه الآخر نظرة غير المصدق

واستطرد مات يقول :

« نعم أعرف أنك حاولت .. ولكنك لم تستخدم العصا »

« حاول ذلك أنت الآن » .

واحضر قائد الكلاب عصا ومضى نحو الحيوان المقيّد بالسلاسل

وراقب الناب الأبيض العصا كما يرقب الأسد الحبيس سوط مدرّبه .

وقال مات

« ألا ترى نظرته وهو يوجهها الى العصا ؟ هذه دلالة طيبة . ليس

احمق . وهذا هو الذى رسخ فى ذهنى كلما امسكت العصا . ليس

مجنونا بالتاكيد » .

ولما اقتربت يد الرجل من عنق الناب الأبيض نفّس هذا شعره

وزمجر وقبع فى مكانه . وبينما كان ينظر الى اليد المقتربة تعقب مسار

العصا فى اليد الأخرى وهى معلقة فوقه فى تهديد . وفك مات السلسلة

عن طوق الناب الأبيض وتراجع الى الوراء .

ولم يصدق الناب الأبيض أنه أصبح حراً فقد انقضت عدة أشهر

عليه وهو فى أسر سميث الجميل ولم يعرف خلال تلك الفترة أية لحظة

استمتع فيها بالحرية الا عند اطلاق سراحه لمقاتلة الكلاب الأخرى وعقب

انتهاء قتاله مع كل كلب منها يعاد الى قيده .

ولم يعرف سبب ذلك . ربما كان شراً ارادته الالهة أن تنزله به .

ومشى فى بطنه وحذر مستعداً لمواجهة أى هجوم فى أية لحظة . ولم

يعرف ماذا يصنع فالامر كله لم يسبق له مثيل . واتخذ حذره من أن

يبتعد عن الالهين اللذين يرقبانه ومشى بحذر الى ناصية الكوخ . ولم

يحدث شيء . وظهرت عليه الحيرة ثم عاد ثانية ووقف على بعد عشرة

اقدام ونظر الى الرجلين بامعان .

وسأل سيده الجديد .

« ألا يهرب ؟ »

وهز مات كتفيه وقال :

« لا بد لنا من المفامرة فهى الطريقة الوحيدة للاكتشاف » .

وهمهم سكوت فى رثاء وقال

« يا للمسكين ! ان كل ما هو فى حاجة اليه هو اظهار الرحمة
الانسانية نحوه » .

ثم استدار سكوت ودخل الكوخ .
وخرج من الكوخ ويده قطعة من اللحم القى بها الى الناب الابيض
فوثب هذا مبتعدا عنها وأخذ يفحصها من بعيد متشككا فيها
وصاح مات محذرا كلبا اخر اقترب منها :
« اياك ياميجور ! »

ولكن التحذير جاء بعد فوات الآوان
كان ميجور قد وثب على قطعة اللحم . وفى اللحظة التى أطبق
فكاه فيها عليها ضربه الناب الابيض وقلبه على الارض واندفع مات
نحوهما ولكن الناب الابيض كان اسرع منه ونهض ميجور مترنحا وقد
صبغ الدم المنبثق من عنقه الجليد باللون الاحمر واتسعت رقعة الدم
على الجليد .

وقال سكوت على عجل :
« ان الامر غاية فى السوء ولكنه نال ما يستحقه » .
ومد مات قدمه ليركل بها الناب الابيض . ووثب الناب الابيض
وومضت اسنانه اعرابا عن الدهشة الشديدة . وزمجر بوحشية وهو
يتراجع الى الوراء عدة ياردات . وفى هذه الاثناء انحنى مات يفحص
ساقه .

وقال وهو يشير الى ماتزق من سرواله والثياب الداخلية تحته
وبقعة الدم الآخذة فى الاتساع :
« لقد أصابنى »

وقال سكوت بصوت اليائس :
« قلت لك يا مات انه لا أمل فيه فقد فكرت طويلا فى امره وعبثا
حاولت الامتناع عن التفكير فيه . ولكننا صرنا الآن الى هذا الامر .
وليس لنا الا أن نفعلها » .

وبينما كان يتكلم أخرج مسدسه من جيبه وتأكد من حشوه
واعترض واعترض مات قائلا :

« اسمع يا مستر سكوت . لقد مر هذا الكلب بتجارب مرة فلا
تنتظر منه أن يخرج من هذه التجارب ملاكا ناصعا . اعطه فرصة »
وقال الآخر .

« انظر الى ميجور »
وفحص قائد الكلاب الكلب المصاب الذى سقط على الجليد وسط

دائرة من دمائه وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة وقال :
« لقد قلت بنفسك يامستر سكوت انه نال ما يستحق . حاول أن
ياخذ قطعة اللحم الخاصة بالناب الأبيض فمات . وهذا أمر متوقع .
وأنا لا احترم كلبا لا يستطيع الدفاع عن طعامه » .
« ولكن انظر الى نفسك يا مات . لا بأس فيما يتعلق بالكلبين ولكن
يجب أن ترسم حدودا للامور » .

واجاب مات فى عناد :
« لقد نلت ما استحق . لماذا أركله ؟ ألم تقل بنفسك انه أحسن
صنعا . اذن فلم يكن لى حق فى أن أركله » .
واصر سكوت على رأيه اذ قال :

« فى قتله رحمة . انه غير قابل للاستثناس » .
« اسمع يامستر سكوت . اعط المسكين فرصة للمحاولة . وهو
لم يمنح مثل هذه الفرصة حتى الآن . لقد اجتاز اختبارا رهيبا هذه هي
أول مرة يطلق فيها سراحه . اعطه فرصة فاذا لم يستفد من الفرصة
قتلته أنا بنفسى . هل اتفقنا ؟ » .
ورد عليه سكوت قائلا :

« الله يعلم أنى لا أريد قتله أو أن ادع غيرى يقتله . وسندعه مطلق
السراح وسنرى ماذا تجديه الرحمة . ولنجرب » .
وأعاد سكوت مسدسه الى مكانه . ومضى نحو الناب الأبيض وأخذ
يكلمه فى رقة مهدئا .

وحذره مات قائلا :
« خير لك أن تصطحب معك عصا » .

وهز سكوت رأسه واستمر فى محاولته كسب ثقة الناب الأبيض
وساور الشك الناب الأبيض . وأحس أن شيئا وشيك الحدوث
بعد أن قتل كلب هذا الاله وعض رفيقه فماذا يمكن أن يتوقع غير
العقاب الرهيب ؟ ولكنه ازاء ذلك ظل على جموحه الذى لا يقهر . ونفث
شمره وكشف عن اسنانه وارتسمت اليقظة والانتباه فى عينيه وفى
جسده كله استعداد لاي شيء . ولم تكن بيد الاله عصا ولهذا احتمل
منه اقترابه . وامتدت يد الاله واخلت تهبط على رأسه وانكمش الناب
الأبيض وهو يهبط بنفسه تحت هذه اليد . رأى أن هناك خطرا
أو خيانة أو شيئا من هذا . وهو على علم بأيدى الالهة وسيطرتها
وبراعتها فى الايذاء . وفضلا عن ذلك فهناك عداوته للمسح . وزمجر
زمجرة أكثر تهديدا مع استمراره فى الانحناء ولم يرد أن يعرض اليد

الممتدة نحوه وتحمل خطورتها حتى ثارت فيه غريزته وسيطر عليه حبه الحياة .

وكان ديدون سكوت يعتقد أنه سريع الحركة الى حد أنه يستطيع تحاشي أية أصابة من جانب الناب الأبيض . ولكن كان عليه أن يتعلم سرعة الناب الأبيض الملحوظة الذي يضرب بثقة وسرعة الثعبان الملتف حول نفسه .

وصاح سكوت بشدة من اثر المفاجأة وأمسك يده الممزقة بأحكام بيده الأخرى وصرخ مات صرخة شديدة ووثب الى جانبه . وقبح الناب الأبيض وتراجع الى الوراء وهو ينفش شعره ويكشف عن انيابه وفي عينيه نظرة خبيثة فيها تهديد . فهو الآن يتوقع ضربا مخيفا في شدة ما كان يتلقاه من ضرب على يد سميت الجميل .

وصاح سكوت على حين فجأة قائلا :

« اسمع .. ماذا تفعل ؟ »

وكان مات قد اندفع الى داخل الكوخ وخرج منه حاملا ببندقية .

وقال في بطاء وهدوء يفعله فيه اللامبالاة .

« لا شيء أكثر من أن أفي بوعدى . لقد وعدت بقتله » .

« كلا لا تقتله » .

« بل سأقتله . انظر » .

وكما سبق أن توسل مات مدافعا عن الناب الأبيض حين عضه كذلك

فعل ديدون سكوت الآن . فقال :

« لقد طلبت أن نمنحه فرصة . لماذا لا تمنحه أنت هذه الفرصة ؟

أننا لا نزال في البداية ولا نستطيع أن نتخلى عنه في البداية .. لقد

استحققت أنا ما وقع بى . والآن انظر اليه ! » .

وكان الناب الأبيض عند ناصية الكوخ وعلى بعد أربعين قدما

يزمجر بوحشية يقشعر لها البدن لا ناحية سكوت بل ناحية قائد

الكلاب .

ودهش قائد الكلاب وقال :

« انه سيفترسنى » .

« انظر الى ذكائه . انه يعرف معنى الاسلحة النارية كما تعرفه أنت،

فيه ذكاء ولا بد أن نعطي هذا الذكاء فرصة . دع البندقية جانبا » .

وقال مات موافقا :

« حسن . ولا أرى بأسا في ذلك » .

ثم وضع البندقية على كومة الخشب •
وفي اللحظة التالية قال مات فى دهشة
« انظر اليه الآن ! »

كان الناب الأبيض قد هدأ وكف عن الزمجرة •
وقال مات :

« ان هذا أمر جدير بالبحث • انظر ! » •
ومد مات يده نحو البندقية •• وفى نفس اللحظة زمجر الناب
الأبيض وابتعد مات عن البندقية وعلى الفور غطت شفتا الناب الأبيض
أنفابه •

وقال مات :

« والآن على سبيل المزاح » •

وامسك البندقية وأخذ يرفعها تدريجاً الى كتفه • وبدأت زمجرة
الناب الأبيض مع بدء ارتفاع البندقية وعلا صوت الزمجرة مع ارتفاع
البندقية تدريجاً • ولكن قبل أن تصل البندقية الى مستوى التصويب
والإطلاق وثب الناب الأبيض جانباً واختفى وراء الناصية • ووقف مات
يحدق النظرة فى المكان الذى كان الناب الأبيض واقفاً فيه على الجليد •
ووضع قائد الكلاب البندقية جانباً فى وقار ثم استدار ونظر الى
الرجل الآخر وقال :

« اوافقك يامستر سكوت فالكلب شديد الذكاء بدرجة لا يجوز
معا قتله » •

الفصل السادس السيد المحبوب

وأخذ الناب الأبيض يرقب ديدون سكوت وهو يقترب منه • ونفث شعره وزمجر معلنا أنه لن يستسلم للعقاب • وانقضت أربع وعشرون منذ أن أحدث جرحا باليد التي تغطيها الضمادات الآن والتي هي معلقة بعنق صاحبها لحفظ الدم من التدفق بها • وقد ألف الناب الأبيض في الماضي تأجيل العقاب وخشى أن يكون قد حان الآن موعد العقاب • وكيف يكون غير ذلك ؟ لقد ارتكب ما يعتبر عنده انتهاكا لحرمة مقدسة - بأن غرس أنيابه في لحم اله مقدس وفضلا عن ذلك فهو اله أبيض البشرة • ومن طبيعة الأشياء وعلى ضوء اتصاله السابق بالالهة فإن شيئا رهيبا ينتظره •

وجلس اله على بعد عدة أقدام ولم ير الناب الأبيض في ذلك شيئا خطرا فمن عادة الالهة حين ينزلون عقابا أن يقفوا على أقدامهم • وفضلا عن ذلك فليس مع هذا اله عصا أو سوط أو سلاح نارى ويضاف الى كل هذا أنه هو شخصا حر غير مقيد بسلسلة أو عصا فهو يستطيع الهرب الى بر الامان فى الوقت الذى يستغرقه السيد فى الوقوف على قدميه والى أن يتم ذلك فلا مانع من أن ينتظر ويرى •

وظل اله هادئا لا تصدر عنه حركة ما وخفتت زمجرة الناب الأبيض ببطء حتى لم تعد هناك زمجرة • ثم تكلم اله وعندما سمع الناب الأبيض صوت كلامه نفث شعره واندفعت حشرة الزمجرة فى حلقه • ولكن اله لم يأت بحركة عدائية واستمر فى كلامه بهدوء وزمجر الناب الأبيض بعضا من الوقت أثناء كلام السيد متفقا معه فى النغم ولكن اله لم يكف عن الكلام بل ظل يكلم الناب الأبيض على نحو لم يسبق أن كلمه به أحد • تكلم بصوت خافت مهدىء فى رفق لمست مكانا ما فى الناب الأبيض على نحو ما • وبدأ الناب الأبيض يثق فى هذا اله بالرغم منه ومن التحذيرات اللاذعة من غريزته واحس الامن الذى لم يحسه من البشر فى جميع تجاربه السابقة •

وبعد وقت طويل نهض اله ودخل الكوخ • وفحصه الناب الأبيض فى خوف عند خروجه من الكوخ • ولم يجد معه سوطا أو عصا أو

سلاحا ولم تكن يده السليمة وراء ظهره تخفى شيئا ما . وجلس كما سبق أن جلس وفي نفس المكان على بعد عشرة أقدام . ومد يده بقطعة من اللحم . ونصب الناب الأبيض اذنيه وفحصها في شك وعمل على أن ينظر في وقت واحد الى اللحم والى الاله منتبها الى أية حركة قد تحدث وجسده متوتر مستعد للوثب بعيدا عند ظهور أية دلالة على حركة معادية .

وظل العقاب مؤجلا واكتفى الاله بتقديم قطعة اللحم من أنفه ولم يبد على قطعة اللحم شيء يعييبها ومع ذلك ظل الناب الأبيض متشككا وبالرغم من أن قطعة اللحم كانت تدفع اليه في اغراء فانه رفض أن يلمسها . فالالهة كلها حكمة ودهاء وليس هناك أى دليل على ما عساه يكون هناك من خداع كامن وراء تلك القطعة من اللحم التي لاضير فيها . وعلى ضوء تجاربه الماضية وخاصة مع السناجب كان اللحم والعقاب مرتبطين معا ارتباطا ينطوى على كارثة .

وفى آخر الامر ألقى الاله بقطعة اللحم على الجليد عند أقدام الناب الأبيض . وتشمم قطعة اللحم بعناية ولكنه لم ينظر اليها اذ فى الوقت الذى كان يتشممها فيه ظل محدقا نظره فى الاله ولم يحدث شيء وأخذ قطعة اللحم بفمه وازدردها . ومع ذلك لم يحدث شيء . وكان الاله يعرض عليه فعلا قطعة لحم أخرى ، ورفض للمرة الثانية أن يأخذها من يده والقيت اليه مرة ثانية وتكرر هذا العمل عددا من المرات . ولكن جاء وقت رفض فيه الاله القاء قطعة اللحم اليه بل القاهها فى يده عارضا ايهاا فى نفس الوقت .

وكان اللحم جيدا وكان الناب الأبيض جائعا فاقترب من اليد قليلا قليلا ولكنه ظل خلال ذلك حذرا كل الحذر . وأخيرا جاء الوقت الذى قرر فيه أن يأكل اللحم من اليد ولم يرفع عينيه قط عن الاله وهو يمد رأسه وقد جذب اذنيه الى الوراء ونفث شعره بصورة لا ارادية . وحشرجت زمجرة منخفضة فى حلقه كتحذير بأنه لا تجوز الاستهانة به وأكل قطعة اللحم ولم يحدث شيء . وأكل اللحم كله قطعة قطعة ولم يحدث شيء وظل العقاب مؤجلا .

ولمق أضلعه وانتظر . ومضى الاله يتكلم وفى صوته رقة وهذا أمر لم يكن للناب الأبيض عهد به . واثارت فى أعماقه احساسيس لا عهد له بها . وأحس رضا غريبا معينا كما لو كان قد اشبع حاجة ما . وكما لو أن فراغا ما فى كيانه قد ملئ . وعادت غريزته تدب . وتحذير تجاربه الماضية بأن الالهة مأكرة ولها اساليب لا يمكن التكهن بها لتحقيق اغراضها .

آه ! لقد حدث ما توقعه فان يد الاله التى تضمم الاضرار به فى دهاء امتدت نحوه وأخذت تهبط على رأسه ولكن الاله استمر فى الكلام وكان صوته خافتا هادئا . وبالرغم من تهديد اليد كان الصوت يوحى بالثقة . وبالرغم من الصوت المطمئن كانت اليد توحى بعدم الثقة . ومزقت الناب الابيض المشاعر والدوافع المتناقضة حتى لقد بدا له أنه سيتمزق أربا وقد بلغ الجهد الذى بذله لضبط نفسه مبلغا شديدا وهو فى حيرة شديدة بين التردد غير المرغوب فيه والقوى المتضادة التى تتصارع بين جنبيه فى سبيل تغلب بعضها على البعض الآخر .

وتصرف تصرفا وسطا . فزمجر ونفث شعره وجذب اذنيه الى الوراء ولكنه لم يفتح فمه ويفلقه ولا هو وثب مبتعدا ، وهبطت اليد قليلا قليلا حتى لمست الاطراف العليا من شعره المنتصب ، وانكش مخفضا رأسه تحتها فهبطت معه وازدادت منه قريبا شيئا فشيئا وهو يزداد انكماشاً وانخفاضا ويكاد يرتعش ومع ذلك ظل متماسكا . وكان ذلك عذابا يعانیه من هذه اليد التى تلمسه وتنتهك غريزته . ولم يستطع أن ينسى فى يوم واحد كل الشرور التى الحقنها به كل أيدي البشر ولكنها كانت ارادة الاله وعمل على الخضوع لها .

وارتفعت اليد وهبطت ثانية ومرت على رأسه وظهره مهدئة واستمرت هذه الحركة ولكن كلما ارتفعت اليد عاد شعره الى الانصباب وفى كل مرة هبطت اليد جذب اذنيه الى الوراء وحشرجت زمجرة مخيفة فى حلقه . وزمجر الناب الابيض وظل يزمرجر محذرا وبهذه الوسيلة أعلن أنه مستعد للانتقام لكل اذى يلحق به فلم يكن يدرى متى يكشف الدافع الظاهري للاله عن حقيقته . فقد يتحول الصوت الرقيق الموحى بالثقة الى زئير غضب وتتحول تلك اليد المهددة الى قبضة شريرة تجعله بلا حول أو قوة وتنزل به العقاب .

ولكن الاله استمر فى كلامه الخافت وظلت يده ترتفع وتنخفض تربت عليه بلا عداوة وأحس الناب الابيض أحاسيس مزدوجة . وكان هذا الامر مما لا تستسيغه غريزته فهو يكبح جماحه ويقمع ارادته ويقيد الحرية الشخصية ومع ذلك فهو لا يؤلم جسده بل على عكس ذلك انه سار بصورة طبيعية . وتغيرت حركة الربت فى بطنه وبعنائه واصبحت عركا للأذنين وقاعدتيهما وزاد الاستمتاع الجسدى قليلا ومع ذلك استمر خوفه واتخذ حذره وتوقع شرا لا يمكن التكهن به وهو يعانى ثم يستمتع ثم يعانى من جديد طبقا للاحاسيس التى تنتابه على التبادل . وقال مات وهو خارج من الكوخ مشعرا عن ساعديه وفى يده وعاء ماء قدر :

« حسن ! »

وكف عن الكلام وعن صب الماء القدر اذ رأى ديدون سكوت يربت على ظهر الناب الأبيض .
وفي اللحظة التي شق صوته فيها حجاب الصمت وثب الناب الأبيض الى الوراء وزمجر في وحشية .
ونظر مات الى سكوت نظرة تنطق بعدم موافقته على ما يفعل ثم قال :

« ان سمحت لي بالاعراب عن احساسى يامستر سكوت فانى اقول لك ان سبعة عشر نوعا من الحمقى اجتمعت فيك وكل نوع منها يختلف عن بقية الانواع » .

وابتسم ديدون سكوت ابتسامة تنطق بالتسامي ووقف على قدميه ومضى نحو الناب الأبيض وكلمه فى تهدئة ولكنه لم يطل الكلام ثم بسط يده ووضعها على رأس الناب الأبيض واستأنف الربت عليها .
وتحمل الناب الأبيض ذلك مبقيا عينيه محددين وفيهما نظرة الشك لا فى الرجل الذى يربت عليه بل فى الرجل الواقف بعتبة الكوخ .
وقال مات :

« قد تكون فى قمة خبراء التعدين ليس فى هذا شك ولكن فانتك فرصة العمر عندما كنت صبيا صغيرا فلم تهرب للحاق بسيرك لتعمل به . »

وزمجر الناب الأبيض عند سماعه صوت قائد الكلاب ولكنه لم يشب فى هذه المرة مبتعدا عن اليد التى تربت عليه .
وكانت هذه هى بداية النهاية للناب الأبيض - نهاية الحياة القديمة وحكم الكراهية . وطلوع فجر حياة عادلة . وتطلب تحقيق هذا من ديدون سكوت كثيرا من التفكير وصبرا لا حد له كما تطلب من الناب الأبيض ثورة اذ تجاهل حوافز ودوافع الغريزة والعقل وتحدى التجربة وكذب الحياة نفسها .

ولم يكن فى الحياة التى عرفها مكان لما فعله الآن بل كانت جميع تياراتها مضادة للتيارات التى استسلم لها الان . وباختصار اذا أخذت جميع الامور فى الاعتبار فانه عليه أن يلائم بين نفسه وبين ظروفه على نحو أكثر اتساعا من الملامة التى حققها عندما جاء من البرية وقبل السمور الأغبر سيدها له . كان وقتئذ مجرد جرو صغير حديث عهد بالولادة غرض الاهاب لم يتكون له شكل بعد وذا قابلية لأن يقوم ابهام الظروف بتشكيله أما الآن فان الامر مختلف . فقد أجاد ابهام الظروف

عمله جيدا اذ شكله وجعل مادته صلبة وجعل منه الذئب المقاتل المتوحش الذى لا يرحم ولا يحب ولا يحبه أحد . ويشبه تحقيق هذا التغيير الارتداد فى التكوين وفى وقت لم يعد لمرونة الشباب وجود فيه بعد أن تصلب نسيجه وأصبح خشنا معقدا صلبا وأصبح وجه روحه حديديا وتبلورت غرائزه الاساسية فأصبحت قواعد مقررة هى الحذر والكراهية والرغبة .

ومع ذلك ففي هذه الملاءمة الجديدة كان ابهام الظروف هو الذى ضغطه ووخزه ورققه رغم صلابته وأعاد تشكيله فى شكل أرق مما كان عليه . وكان ديدون سكوت فى الحقيقة هذا الابهام الذى تعمق حتى جذور طبيعة الناب الأبيض برقة لمست امكانيات الحياة التى كانت قد وهنت وشارفت الهلاك . وكان الحب واحدا من هذه الامكانيات بعد أن كان مجرد ميل عند اتصاله بالالهة .

ولم يأت هذا الحب بين عشية وضحاها بل لقد بدأ ميلا ثم تطور فى ببطء حتى أصبح حبا . ولم يهرب الناب الأبيض رغم السماح له بالحرية لانه مال الى هذا الاله الجديد وكانت الحياة معه بالتأكيد خيرا من الحياة التى كان يحيها فى قفص سميث الجميل وانه لمن الضرورى أن يكون له اله . فسيادة الانسان ضرورة فى طبيعته . وقد دمج بطابع اعتماده على الانسان منذ ذلك اليوم الذى ادار فيه ظهره للبرية وزحف عند قدمي السمور الأغبر ليتلقى الضرب المنتظر . ودفع ثانية بهذا الطابع بصورة غير قابلة للمحو عند عودته الثانية من البرية بعد انتهاء المجاعة الطويلة الامد وعودة السمك الى الظهور مرة أخرى فى قرية السمور الأغبر .

وهكذا بقى الناب الأبيض لانه فى حاجة الى اله ولانه فضل ديدون سكوت على سميث الجميل واعرابا عن ولائه أخذ على نفسه حراسة ما يملكه سيده وأخذ يجوب أنحاء المنطقة المحيطة بالكوخ أثناء نوم كلاب الزحافة . وقد اضطر أول زائر ساقته الظروف الى الكوخ ليلا الى استخدام العصا فى ابعاده عن طريقه حتى جاء ديدون سكوت للنجدة ولكنه سرعان ما تعلم الناب الأبيض كيف يفرق بين اللصوص والشرفاء وتقدير القيمة الحقيقية للخطر والسلوك . فأخذ يترك القادم الذى يمشى بخطوات جريئة مسموعة الخطو فى خط مستقيم نحو باب الكوخ وان ظل يرقبه بيقظة حتى يفتح الباب ويلقى تاييد السيد لمثل هذا السلوك . أما الذى يمشى على حذر مخافة أن يسمع وقع اقدامه ويتخذ سبيلا دائريا نحو الكوخ وهو يتلفت فى حذر ينشد الامان فذلك

هو الذى يسرع الناب الأبيض بالحكم عليه ويجعله يمضى فورا وبسرعة وبلا كرامة .

وأخذ ديدون سكوت على نفسه مهمة تعويض الناب الأبيض - أو بالاحرى تعويض خطأ البشرية الذى ارتكبته فى حقه . وكانت المسألة عنده مسألة مبدأ وضمير وأحس أن الأذى الذى الحق بالناب الأبيض دين فى عنق الانسان ولا بد من الوفاء به . وهكذا أخذ على عاتقه أن يمعن فى الرحمة بالذئب المقاتل . . . واهتم بأن يربت عليه ويدلله كل يوم وأن يطيل فى ذلك ما شاءت له الإطالة .

وكان الناب الأبيض فى أول الامر متشككا ومعاديا ثم مال الى هذا التدليل ولكن كان هناك شيء لم يتخل عنه وهو الزمجرة . وكان يبدأها منذ اللحظة التى يبدأ فيها التدليل ويظل يزمر فالزمجرة عند مثل هذا الغريب مظهر من مظاهر وحشيته البدائية التى تهز الاعصاب وتجعل الدم يتجمد فى عروقه . ولكن حلق الناب الأبيض كان قد اخشوشن من أثر الاصوات الوحشية التى كان يصدرها على طول السنوات العديدة التى انقضت منذ أول زمجرة غضب صدرت عنه فى طفولته فى العرين وما كان ليستطيع أن يلفظ من خشونة الاصوات التى تصدر عن ذلك الحلق الآن للأعراب عن الوداعة التى يحسها الآن ومع ذلك كانت اذن ديدون سكوت وعطفه من الرقة بحيث تلتقطان النغمة الجديدة وان غرقت فى هذه الوحشية . . . وكانت النغمة مجرد اشارة من نغمة رضا وهذه النغمة هى التى سمعها .

وزاد نمو الميل مع مرور الايام حتى أصبح حبا . وأخذ الناب الأبيض نفسه يدرك هذا التطور وان لم يعرف فى اعماقه ما هو الحب . وظهر فى كيانه على صورة فراغ أو جوع يؤلم أو لهفة تتطلب اشباعها كان ألما وقلقا لا يهدأ الا بلمسة وجود الاله الجديد . وفى مثل هذه الاوقات كان الحب عنده متعة واشباعها قويا شديد الهزة ولكن عندما يكون بعيدا عن سيده يعود اليه الألم والقلق ويزداد الفراغ بين جوانحه اتساعا ويثقل عليه بوطانه وينهشه الجوع ولا يكف عن نهشه .

وكان الناب الأبيض وقتئذ يمر بمرحلة اكتشاف نفسه . فبالرغم من نضجه بما بلغه من أعوام عمره وصلابته الوحشية كانت طبيعته تمر بمرحلة اتساع وكان يحس فى اعماقه مشاعر غريبة ودوافع غير عادية وأخذ قانون سلوكه القديم يتغير . كان فيما مضى يحب الراحة والبعد عما يؤلم ويكره الازعاج والألم فكان يلأثم بين أعماله طبقا لهذا

القانون أما الآن فقد اختلف الامر . وبسبب هذا الشعور الجديد فيه أخذ يختار الألم وعدم الراحة من أجل الهه وهكذا أخذ ينتظر ساعات طويلة عند باب الكوخ فى الصباح المبكر فيحظى بنظرة من السيد بدلا من التجول والبحث عن الطعام أو الرقود فى مأوى ظليل . وفى الليل عندما يعود الاله يترك الناب الأبيض مكان نومه الدافئ الذى حفزه فى الجليد ليتلقى فرقة الاصابع الودية وكلمة التحية . بل لقد كان يفغل اللحم حتى اللحم نفسه فى سبيل أن يكون مع الهه ليتلقى لمسة منه أو يصحبه الى المدينة .

وحل الحب محل الميل وغاص الحب فى اعماق قلبه على نحو لم يسبق له مثيل ومن هذه الاعماق صعدت الاستجابة وهى الشئ الجديد . الحب . وما قدم له رد مثله . كان هذا الها حقيقيا . الهه الحب انه الهه مشرق دافئ اتسعت طبيعة الناب الأبيض فى ضوءه كزهرة تتمدد فى ضوء الشمس .

ولكن الناب الأبيض لم يكن يجيد الاعراب عن الحب فهو اكبر سنا من ذلك . تجدد شكله فلم يعد ماهرا فى الاعراب عما بنفسه بطرق جديدة . واحساسه بالذات كبير ويشعر بالراحة فى العزلة وطال عهده بتنمية روح العزلة فيه ولم يسبق له أن نبح كما تنبح الكلاب فليس الان مستطيعا أن يتعلم النباح ترحيبا بمقدم الاله . وليس متطفلا أو مسرفا أو احمق فى الاعراب عن حبه وهو لا يجرى قط لمقابلة الهه بل ينتظر من بعيد . ولكنه ينتظر دائما وهو موجود دائما . واتسم حبه بطابع العبادة الصامتة والاعجاب الصامت . ولم يعرف عن حبه بأكثر من النظرة الثابتة فى عينيه وبتعقب كل حركة تصدر عن آلهه بعينيه بصفة مستمرة وكذلك عندما ينظر اليه الهه ويكلمه يكشف عن شعوره بالذات نتيجة لنضال حبه فى سبيل الاعراب عن نفسه ضد عجزه البدني عن مثل هذا الاعراب .

وتعلم كيف يلائم بين نفسه وهذه الطريقة الجديدة للحياة بعدة طرق . فحرص على أن يدع كلاب سيده وشأنها ومع ذلك فقد أكدت طبيعته الغالبة نفسها واضطر فى أول الامر الى اكرامها على الاعتراف بتفوقه وزعامته . وبعد أن تم له هذا لم يلق منها أية متاعب فكانت تتبعه كلما جاء وكلما ذهب أو مشى بينها حتى اذا أكد ارادته أطاعته . وعلى نفس النحو احتمل مات على أنه ملك لسيده . ومن النادر أن يطعمه سيده بل مات هو الذى يطعمه - فهذه هى مهمته ومع ذلك فان الناب الأبيض استنتج أن ما ياكله انما هو طعام سيده وأن سيده هو

الذى يطعمه عن طريق نائبه ولقد حاول مات تقييده بالزحافة مع الكلاب الاخرى ويجعله يشترك معها فى جرها ولكنه فشل فى ذلك . حتى اذا قام ديدون سكوت بقيده بالزحافة قبل ذلك مع أن سيده يريد أن يقوده مات كما يقود الكلاب الاخرى الخاصة بالسيد .

وزحافات كلوندايك تختلف عن زحافات ماكنزى فان كلابها لا تمشى فى صورة مروحة بل تسلك فى خيط واحد وتسير صفا واحدا وزعيم الكلاب فى كلوندايك زعيم حقيقى . فالزعيم هو أقوى هذه الكلاب واكثرها حكمة وفريق الكلاب يدين له بالطاعة كما أنه يخشاه . وكان وصول الناب الأبيض الى هذا المركز أمرا محتوما فما كان من الممكن ارضاءه بما هو دون ذلك كما تعلم مات بعد كثير من الازعاج والتعب وكان الناب الأبيض هو الذى اختار بنفسه هذا المركز لنفسه وأيد مات هذا الحكم بعد أن قام بالتجربة . وان كان الناب الأبيض يعمل فى جر الزحافة نهارا الا أنه لم يتخل عن حراسة سنده ليلا وبهذا كان طول الوقت يؤدى واجبه دائم اليقظة والولاء وبهذا كان أعلى الكلاب قيمة .

وقال مات ذات يوم :

« اذا كانت فى حرية الأعراب عما بنفسى فانى اقول لك أنك كنت غاية فى الحكمة عندما اشتريت هذا الكلب ودفعت ثمنه لسميث الجميل بعد أن لكمته فى وجهه » .

وظهر وميض الغضب فى عيني ديدون سكوت وتمتم بوحشية
« يا له من حيوان »

وفى اواخر فصل الربيع عانى الناب الأبيض مشكلة كبرى اذ اختفى السيد المحبوب فجأة وبدون انذار . كان هناك انذار ولكن الناب الأبيض لم يكن يدرك مثل هذه الامور ولم يفهم سر هذه الحقائق وتذكر فيما بعد أن مثل هذا الحزم يسبق اختفاء السيد أما فى هذه المرة الاولى فإنه لم يشك فى شيء . وفى تلك المرة الاولى انتظر طول الليل عودة السيد وعند منتصف الليل دفعته الريح الباردة التى هبت وقتئذ الى أن ينشد ماوى عند ظاهر الكوخ . وغلبه النعاس وظل بين اليقظة والنوم واذناه مرهفتان لالتقاط أدنى صوت لوقع الخطى المألوف حتى اذا دقت الساعة الثانية صباحا أخرجه قلقه من مأواه ودفعه الى الباب الامامى حيث قبع وانتظر .

ولكن السيد لم يحضر . وفى الصباح فتح الباب وخرج مات منه وحدث الناب الأبيض النظر فيه باهتمام كبير ولم تكن هناك لفة مشتركة

يمكن أن يعرف بها ما أراد معرفته . وجاءت الايام ومضت ولكن السيد لم يجيء . ومرض النساب الأبيض وهو الذى لم يعرف المرض قط فى حياته . واشتد عليه المرض الى حد اضطراب ماته الى أن يدخله الكوخ وعندما كتب مات رسالة الى ديدون سكوت كرس صفحة كاملة منها للنساب الأبيض .

وقرأ ديدون سكوت الرسالة فى مدينة « سبركل » حتى وصل الى هذه الفقرة .

« ان ذلك الذئب الملعون لا يعمل ولا يأكل ولم تعد له همة وجميع الكلاب تعلقه وهو يريد أن يعرف ماذا صار اليه أمره ولا أعرف كيف ارد عليه . ومن المحتمل أن يكون فى طريقه الى الموت » .

وكان الامر كما قال مات ، فان النساب الأبيض كف عن الاكل وفترت همته وسمح لكل من فى طريقه بضربه . ورقد فى الكوخ على الارض بجوار الموقد دون أدنى اهتمام بالطعام أو بمات أو بالحياة نفسها سواء لديه ان كلمه مات برقة أم سبه ولعنه فهو فى الحالين لا يفعل أكثر من أن ينظر اليه نظرتة الكثيبة ثم يخفض رأسه الى حيث كانت فوق ساقيه الاماميتين الممتدتين أمامه .

وفى ذات ليلة كان مات يقرأ وشفتاه تتحركان وتصدران أصواتا مبهمه فاذا به يفاجأ بنهته من النساب الأبيض الذى كان قد وقف على اقدامه وأرهف أذنيه نحو الباب وأنصت باهتمام . وبعد دقيقة واحدة سمع مات وقع خطوات وفتح الباب ودخل ديدون سكوت وتصفاح الرجلان ثم تطلع ديدون سكوت فى أنحاء الغرفة . وسأل :

« أين الذئب ؟ »

ثم رآه واقفا حيث كان راقدا بالقرب من الموقد ولم يندفع نحوه كما تفعل الكلاب الاخرى بل وقف يرقب وينتظر . وقال مات :

« يا الله ! انظر اليه ! انه يهز ذيله ! »

وسار ديدون سكوت نحوه وهو يناديه وجاء النساب الأبيض اليه لا وثبا كعادته ولكنه مع ذلك جاءه مسرعا . وارتسم تعبير غريب فى عينيه وهو يقترب من سيده فقد أضاءهما شعور لا يمكن توصيله . وعلق مات على ذلك بقوله :

« لم ينظر الى قط على هذا النحو منذ أن رحلت » .

ولم يسمع ديدون سكوت ما قاله مات فقد كان جالسا على عقيبه

فى مواجهة الناب الأبيض وهو يدلله ويعرك قاعدتى أذنيه ويمر ييده على ظهره فى رقة • وزمجر الناب الأبيض مستجيبا للمسّات العطف والحنان وفى الزمجرة رنة الحب •

ولكن الامر لم يقتصر على هذا بل كانت هناك فرحة الحب الكبير الذى يفمر جوانحه وهو يتدفق ويندفع للتعبير عن نفسه فهل وجد طريقة جديدة لهذا التعبير ؟ لقد دفع رأسه فجأة الى الامام ودسها بين ذراع السيد وجسده واختبأت رأسه عن الانظار فيما عدا اذنيه وكف عن الزمجرة واستمر فى دفع رأسه •

ونظر كلا الرجلين الى الآخر • ولعلنا عينا سكوت •

وقال مات بصوت خافت فيه خوف

« يا الهى ! »

وبعد أن أفاق قال :

« لقد كنت اصر دائما على أن هذا الذئب كلب • انظر اليه ! »

وعجلت عودة سيد الحب بشفاء الناب الأبيض • وقضى يوما وليلتين فى الكوخ ثم بارحه • وكانت كلاب الزحافة قد نسيت قوته ولم تعد تذكر سوى صورته فى ضعفه ومرضه • وحالما رآته يبرح الكوخ وثبت عليه •

وتتمم مات فى مرج قائلا وهو واقف بالباب يتطلع الى ما يجرى

أمامه •

« أدبها أيها الذئب • • أدبها !! » •

ولم يكن الناب الأبيض فى حاجة الى تشجيع اذ كانت عودة السيد المحبوب كافية لان تعود الحياة دفاقة فيه رائحة لا تغلب وقاتل بدافع البهجة وهو يجد فى القتال تعبيرا عن بعض ما يحسه اذ لم يستطع التعبير عنه بالكلام وما كانت هناك سوى نهاية واحدة اذ تفرق فريق الكلاب فى هزيمة مشينة ولم تظهر الكلاب الا بعد أن اقبل الظلام • جاءت متلصصة الواحد منها فى أثر الآخر فى ذلة وخضوع معلنة بذلك ولاها للناب الأبيض •

وبعد أن تعلم الناب الأبيض كيف يستكن تحت ذراع سيده أكثر منها فكانت القول الفصل ولم يستطع أن يتجاوزها • فرأسه أهم ما يحرص عليه دائما وكان يكره أن يلمسها أحد • وكانت هذه هى الناحية الباقية فيه من حياة البرية ناحية الخوف من الاذى والعرض من الفخاخ تلك الناحية التى نشير فيه الذعر وتدفعه الى تحاشي

الاتصال ٠ وكان حكم غريزته أن يبقى رأسه حرا والآن مع سيد الحب كان هذا العمل يقوم به متممدا بوضع نفسه في وضع لا يكون له فيه حول أو قوة فكان تعبيرا عن الثقة الكاملة والاستسلام المطلق كما لو كان يريد أن يقول

« أنى اضح نفسي بين يديك فافعل بي ما تشاء » .

وفى ذات ليلة جلس سكوت ومات يلعبان الورق قبل أن يأويا الى فراشيهما اذ سمعا صرخة مدوية وصوت زمجرة وتبادلا النظرات وهما ينهضان واقفين .

وقال مات :

« لقد أصاب الذئب أحدا ما » .

ودفعهما الى الاسراع سماعهما صيحة خوف شديد وألم

وصاح سكوت وهو يثب الى الخارج

« هات مصباحا » .

وتلاه مات ويده مصباح وعلى ضوء المصباح رأيا رجلا راقدًا على ظهره فوق الجليد . وقد عقد ما بين ذراعيه على وجهه وعنقه . وعلى هذا النحو كان يحاول أن يحمي نفسه من اسنان الناب الأبيض . وكان فى حاجة حقيقية الى هذا . فقد كان الناب الأبيض هائجا يهاجم اشد مواقع الجسم تعرضا للهجوم . وكان قد مزق ثياب الرجل ابتداء من كتفه حتى معصمه ومن كتفه حتى وسطه . كما كانت ذراعا الرجل نفسها قد أصيبتا بجراح وقطوع طويلة والدم ينبثق منها .

ورأى الرجلان كل هذا فى لحظة واحدة وفى اللحظة التالية أمسك ديون سكوت بعنق الناب الأبيض وجره بعيدا وحاول الناب الأبيض التخلص من قبضة سكوت ولكنه لم يحاول أن يعضه بل هدا على الفور عندما صاح فيه سيده يأمره بالسكون .

وساعد مات الرجل فى الوقوف على قدميه . وفى أثناء قيامه انزل ساعديه عن وجهه فظهر وجه سميت الجميل الوحشى . وتركه قائد الكلاب على الفور كما لو كان قد أمسك نارا . ورمشت عينها سميت الجميل فى ضوء المصباح وتلفت حوله ورأى الناب الأبيض وارتسم الرعب على وجهه .

وفى نفس اللحظة رأى مات شيئين ملقيين على الجليد . وقرب المصباح منهما وأشار اليهما بطرف قدمه . . كانا سلسلة كلاب من الصلب وعصا غليظة .

ورأى ديدون سكوت ذلك وأوما برأسه . ولم يقل أحد كلمة بل وضع قائد الكلاب يده على كتف سميث الجميل وأداره الى الناحية الأخرى لم تكن هناك حاجة الى الكلام وبدأ سميث الجميل يمشى .

وفي أثناء ذلك كان سيد الحب يربت على الناب الأبيض ويكلمه :
« هل حاول أن يسرقك ؟ ولم ترض أنت عن ذلك . حسن . حسن .
لقد اخطأ . . اليس كذلك ؟ » .

وقال سائق الكلاب ساخرا :

« لا بد أن يكون الذي خطر بباله أن سبعة عشر شيطانا هاجمته ! »
وظل الناب الأبيض نافشا شعره مزمجرا ومزمجرا . وأخذ الشعر يهدأ وينسدل على جسده . وبدأت نفمة الحب تظهر خافتة بعيدة جدا في هذه الزمجرة ومع ذلك بقيت الزمجرة مستمرة ونفمة الحب تزداد قوة فيها .

روايات الهلال تقدم

أولنا ولد

بقلم

خيري شلبي

تصدر : ١٥ مايو سنة ١٩٩٠

هذه الرواية



أجمل الحكايات دائما ... هي تلك التي
صبغت على الحيوانات مشاعر انسانية
سامية ..

ولعل هذه السمة رفعت بعض الكتاب
الى أعلى الدرجات مثلما حدث مع روديارد
كيبيلنج و جاك لندن .

والناب الابيض هو ثمرة علاقة حب قوية
نمت بين كلب و ذئب عاشا فوق الجليد
فكانت علاقتهما الدافئة سببا في نوبان كل
الجليد .. وقد وجد «الناب الابيض» نفسه
يبحث عن المعيشة بعيدا عن عالم
الحيوانات الذى ألفه . مؤمنا أن الحياة بين
العشيرة الانسانية افضل بكثير منها فى
الغابة الجليدية .

ياله من مخلوق مسكين ذلك الناب
الابيض المتوحش .. فهل يمكن أن يجد لدى
العشيرة الانسانية ذلك الدفء الذى اعتاده
فوق الجليد .. ؟

حول هذا العالم الجذاب . والجميل .
تدور أحداث هذه الرواية المليئة باعماق
المشاعر الانسانية التى اكسبها جاك لندن
الى حيوانه الخليط .. وتركه يواجه
مصيره .

ترى كيف سيواجه «الناب الابيض»
مصيره .. ؟

وكيف ستدوم به الحياة بعيدا عن
الجليد ؟

فى هذه الرواية اجابات لعشرات من
هذه الاسئلة



جاك لندن

● كاتب امريكى من رواد
الحركة الادبية المعاصرة
عاش فى الفترة بين عامى
١٨٧٦ و ١٩١٦

● عمل بحارا وراح
يجوب البحار والارض باحثا
عن الذهب والمغامرة .. ثم
ترك البحر كى يعمل
بالصحافة .

● الف العديد من الروايات
عن الحيوانات والبشر الذين
يعيشون فى القطب الشمالى
.. ومن أهم هذه الروايات
«القط الأسود» و «ابن
الذئب» .. و «ابنة الثلوج»
و «ذئب البحر» .

● يعتبر أحد الكتاب
الاكثر شعبية لدى القارىء
الامريكى . وترجمت رواياته
الى العديد من اللغات .
وترجمت إلى اللغة العربية
روايته «القدم الحديدية»
التي ناصر فيها حقوق
العمال ..

سانتو...

مسحوق مغسول لفسل
ويطهر لجميع
أنواع الفسيل



إنتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون



Kr 65.00

مصر للطيران

٢٠٠ رحلة اسبوعياً إلى ٥٠ مدينة عالمية